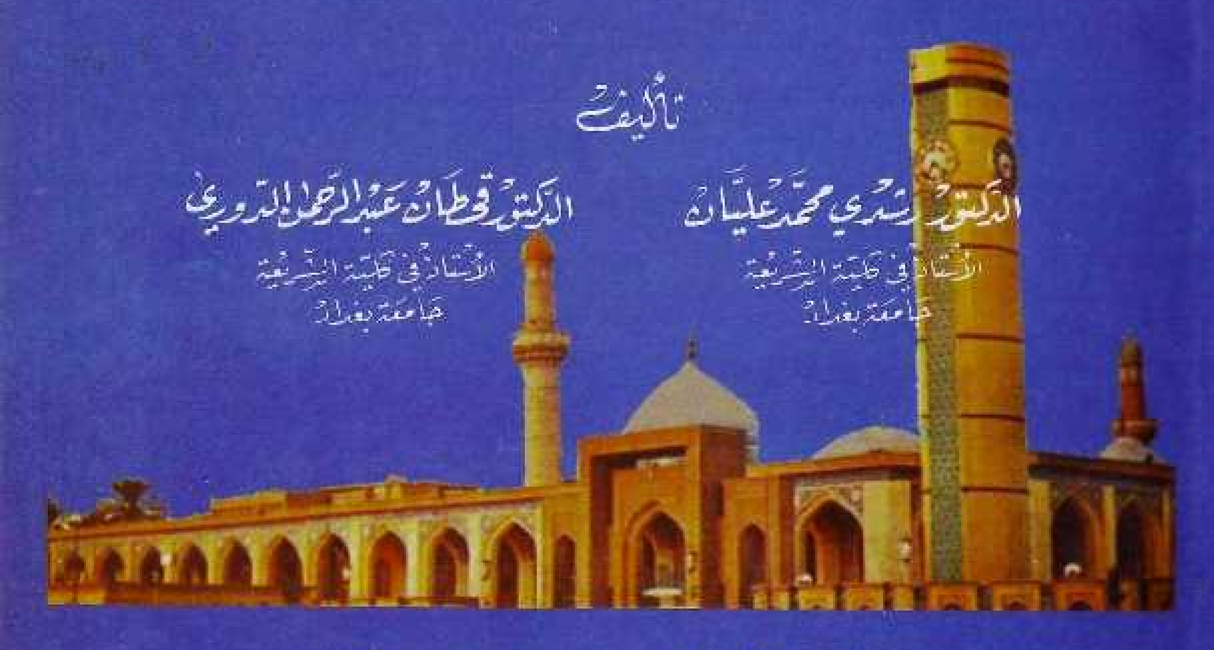
أصول الدين الإسلامي

تأليف

الدكتور رشدي محمد عليان
الأستاذ في كلية الشريعة
جامعة بغداد

الدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري
الأستاذ في كلية الشريعة
جامعة بغداد



نسخة محققة ومصححة من قبل أهل الاختصاص
ومطابقة مع نسخة المؤلف (طبعة خاصة للعراق وقطر)

طبعة دار الإمام الأعظم
النعمان بن ثابت
بيروت - لبنان

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم الإسلامية



أصول الدين الإسلامي

تأليف

الدكتور رشدي محمد عليان
الأستاذ في كلية الشريعة
جامعة بغداد

الدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري
الأستاذ في كلية الشريعة
جامعة بغداد

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الصورة في الغلاف
جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه في بغداد

نسخة محققة ومصححة من قبل أهل الاختصاص
ومطابقة مع نسخة المؤلف (طبعة خاصة للعراق وقطر)

طبعة دار الإمام الأعظم
النعمان بن ثابت
بيروت - لبنان




توزيع الأعمال بين المؤلفين

كتب الأستاذ الدكتور رشدي عليان:

١ ـ **الفصل الأول**: بحوث ممهدة.

٢ ـ ومن **الفصل الثالث**:

المبحث الأول: العقل الإنساني وحاجته إلى هدي النبوة.

والمبحث الثاني: مناقشة منكري النبوات.

وكتب الأستاذ الدكتور قحطان عبدالرحمٰن الدوري:

١ ـ **الفصل الثاني**: الإلهيات.

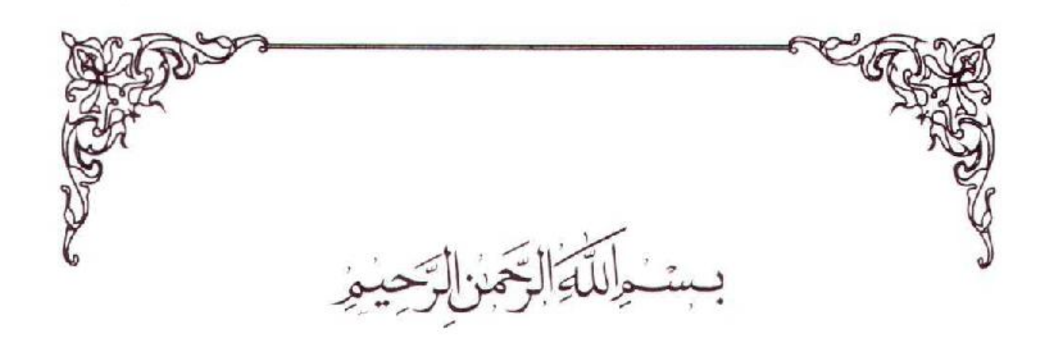
٢ ـ ومن **الفصل الثالث**:

المبحث الثالث: النبوة العامة.

والمبحث الرابع: النبوة الخاصة.

٣ ـ **الفصل الرابع**: اليوم الآخر.



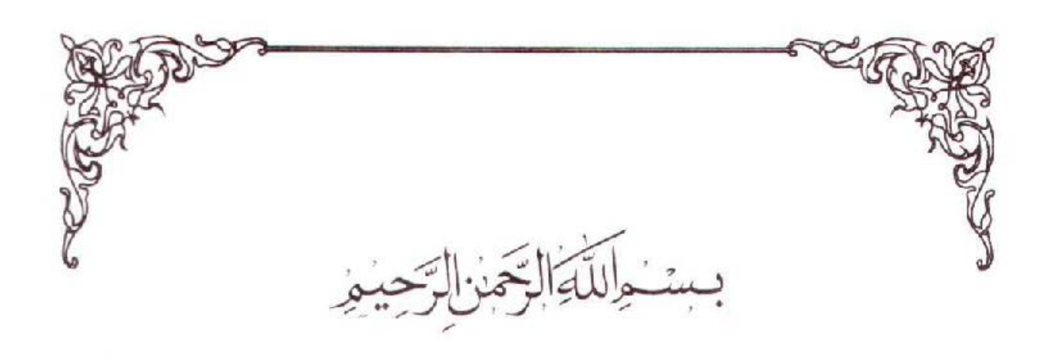
مقدمة الطبعة الرابعة

نفدت الطبعة الثالثة لهذا الكتاب المنهجي، المقرر تدريسه في مادة العقائد الإسلامية في الجامعات العراقية.

وتلبية لحاجة أبنائنا الطلبة إليه، أقدم هذه الطبعة مصححة منقحة، وفق خطة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في تحديث الكتب المنهجية.

وذلك بعد وفاة زميلي الأستاذ الدكتور رشدي عليان، الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى في مساء الأحد ٣ رمضان ١٤٠٩ الموافق ٩ نيسان ١٩٨٩، والذي كان نِعْمَ الأخ والجار والصديق، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، وبوّأه فسيح جناته، إنه سميعٌ مجيب.

الدكتور قحطان عبدالرحمٰن الدوري
الأستاذ في كلية الشريعة ـ جامعة بغداد
١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م



مقدمة الطبعة الثالثة

نَفِدَت الطبعتان الأولى والثانية من هذا الكتاب، بعد أن أقرّته اللجان العلمية بجامعات القطر كتاباً منهجياً في تدريس مادة العقائد الإسلامية، واستملكته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

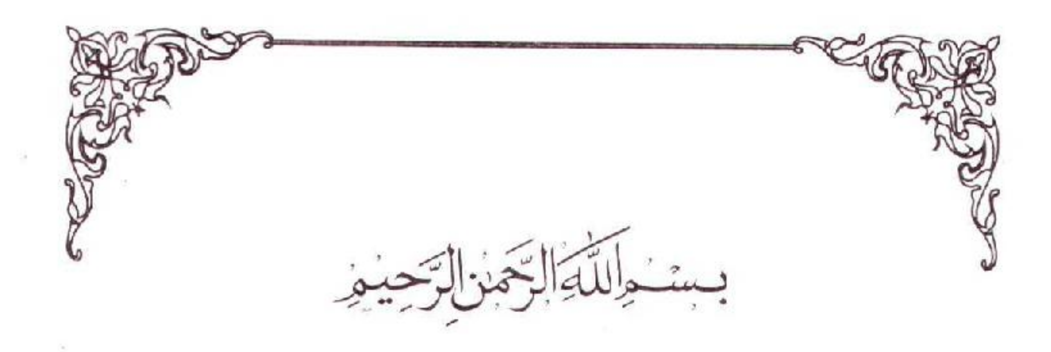
وبناءً على خطة الوزارة في تأليف الكتب المنهجيّة وتحديثها، نقدّم كتابنا هذا منقّحاً ومَزيداً ومغَطّياً مفردات المناهج المقررة في هذه المادة.

نسأله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الطلبة الأعزاء والقراء الكرام، إنه سميع الدعاء.

والحمد لله رب العالمين.

المؤلفان

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م



مقدمة الطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب خلال أشهر معدودات، بعد أن اعتمدته اللجان العلمية بجامعات القطر في تدريس مادة العقائد الإسلامية.

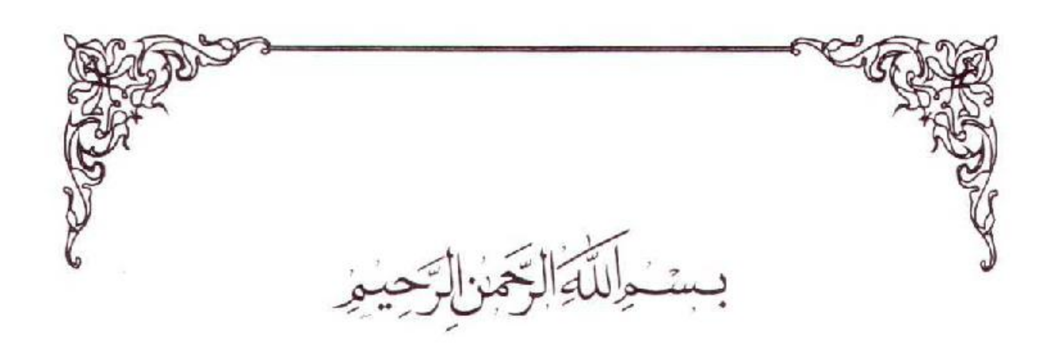
وحين أقرّته لجنة المناهج التعليمية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي كتاباً منهجياً، قررت استملاكه.

وها نحن نقدم الكتاب بطبعة ثانية منقَّحة ومَزيدة.

راجين الباري ﷻ أن ينفع به القارىء الكريم، إنه سميعٌ مجيب. والحمدُ لله رب العالمين أولاً وآخراً.

المؤلفان

١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م



مقدمة الطبعة الأولى

يموج العالَمُ منذ زمن طويل بعقائد متباينة، ويعجّ بأفكار متصارعة مضطربة، كلٌّ منها يزعم أنه أصاب الهُدى، وارتوى من عين الحقيقة.

ونحن ـ المسلمين ـ نشفق على الإنسانية الضالة، التي تدفعها الأهواء، وتطوّح بها النزعات، بين الحين والحين، ونريد أن يعمرها الإسلام، لأنه هو الذي يصل بها إلى العزة المنشودة، والحياة السعيدة، ويخلِّصها من أدران الحقد والأنانية والضلالة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وتتجلى هذه الرحمة: بأن أوجب الإيمان بالله تعالى على كل فرد، ليؤمن أن المُلك لله وحده، وأن الإنسان بما يملك زائل. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وليؤمن أن الدار الآخرة هي الباقية، قال سبحانه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]، وهي دار الجزاء والحساب، فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله على ما قدّم من فعل. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وذلك ليبني به مجتمعه، فتسعد البشرية بالنظام، الذي جاء به القرآن الكريم، وأوضحه رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:

٧]، وعندئذ تتكون الشخصية الإسلامية المستقلة بفكرها وعقائدها، لا تستجدي الجهل المركّب، من اليهود والحاقدينْ من أعداء العرب والإسلام.

ونحن إذ نُقدِّم كتابنا هذا إلى القارىء الكريم، نريد أن يأخذ مكانه في هذا الخِضَمّ من العقائد، فيشارك ما ألف في هذا الميدان في عرض العقيدة الإسلامية بشكل مبسَّط مقرَّب إلى الذهن، متوخين فيه الإيجاز الواضح، مبتعدين فيه عن الخلافات والتفريعات التي نحن في غِنى عنها، ولم نقتصر فيه على ذكر مذهب واحد، وإنما تعرّضنا لآراء المذاهب الإسلامية المختلفة، ليقف الدارس على حقيقة الاختلاف، وليعلم أن ذلك الاختلاف ما كان إلا في مسائل فرعية، ليست ذات بال، ما دام الجميع يتفقون على الأصول الثلاثة للإسلام، وهي الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

من أجل ذلك قسّمنا الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: فصل تمهيدي، بيَّنَّا فيه نشأة هذا العلم، وتطور الأصول في المذاهب.

الثاني: الإلهيات.

الثالث: النبوّات.

الرابع: اليوم الآخر.

ونرجو أن يسد هذا الكتاب فراغاً في المكتبة العربية والإسلامية، والله نسأل أن يجنِّبنا العثرات، وأن يقينا الشطَط، وأن يهدينَا سواء السبيل... إنه سميعٌ مجيب.

المؤلفان

١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م




الفصل الأول
بحوث ممهدة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف علم أصول الدين

المبحث الثاني: تاريخ علم أصول الدين

المبحث الثالث: أصول الدين الإسلامي






المبحث الأول
تعريف علم أصول الدين

تمهيد:

الإسلام هو خاتمَ الرسالات الإلهية، ومن أجل ذلك كان دعوة عالمية وديناً للناس جميعاً، وتكفَّل ببيان الأصول الاعتقادية، والمبادىء الخلُقية، والتشريعات العملية التي من شأنها أن تنظم حياة الإنسان: في خاصة نفسه، وعلاقته بربه، وصلته بأسرته، وحقوقه وواجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه.. حتى ينعم بالراحة والأمن في حياته، ويطمئن على مصيره بعد مماته.

وإن مَن يتفحّص ما جاء به الدين الإسلامي يجده ثلاثة أقسام:

١ ـ المبادىء الخلُقية.

٢ ـ الأحكام العملية.

٣ ـ الأصول الاعتقادية.

المبادىء الخلُقية: وموضوعها كل ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الصفات التي من شأنها أن ينتج عنها صدور الأعمال الخيِّرة، كالوفاء والأمانة، والعدل والإحسان، والتواضع والتعاون، والعفو والتسامح، والتحابب والتآلف...

والغاية منها: نشر الفضيلة، والابتعاد عَنْ الرذيلة، والعمل على إيجاد المجتمع الإنساني المثالي الواقعي.

والعلم الذي يتكفل ببيان تلكم المبادىء: هو علم الأخلاق والتصوُّف.

الأحكام العملية: وموضوعها كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال ـ سواء أكانت عبادة أم معاملة ـ كالصلاة والجهاد، والبيوع والجنايات.

والغاية منها: تنظيم شؤون المجتمع الإنساني في كل ما تدعو إليه حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والعلم الذي يتكفّل ببيان هذه الأحكام: هو علم الشرائع والأحكام، أو علم الفقه.

الأصول الاعتقادية: وموضوعها هو المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، وما يتفرع عنها من مباحث النبوة، والمعاد...

والغاية منها: إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية، وإرشاد المتدينين بإيضاح الحجّة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبُهات المبطِلين.

والعلم الباحث في أصول الاعتقاد: هو علم أصول الدين.

١ ـ أسماء هذا العلم وأسبابها:

سمي العلم الباحث في العقائد الدينية بأسماء مختلفة منها:

أ ـ الفقه الأكبر: سمّاه بهذا الاسم الإمام أبو حَنيفة في كتابه (الفقه الأكبر)[١] حيث ذكر أنّ (الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل، والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم).

ب ـ علم النظر والاستدلال: سمي بهذا الاسم لأنه يعتمد منهج النظر الفكري، والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات أصول العقائد التي ثبتت بالنصوص الدينية.

جـ ـ علم التوحيد والصفات: سمي بهذا الاسم لأن أشهر مباحثه، وأهمها وأخطرها، مبحثا التوحيد والصفات الإلهية.

د ـ علم العقائد: سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل ببحث العقائد الدينية، وإثباتها بالأدلة اليقينية، والدفاع عنها ضد العقائد والأفكار المخالفة لها.

هـ ـ علم الكلام: اشتهر بهذا الاسم لعدة أسباب أهمها[٢]:

---

(١) كُتيب صغير، وقد شرح عدة شروح، وطبع عدة طبعات.

(٢) انظر: التَّفْتازاني/ شرح العقائد النَّسَفية ص١٤، ١٥ والمواقف وشرحه للسيد الشريف ١٦ وانظر أيضاً مصطفى عبدالرازق/ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٦٧ وعبدالرحمٰن بدوي/ مذاهب الإسلاميين ج١ ص٢٨.

١ ـ إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها، واشتد النزاع حولها في القرون الأولى كانت مسألة (كلام الله) هل هو أزلي قائم بذاته، أم مخلوق حادث؟ فسمي العلم باسم أهم مسألة فيه.

٢ ـ أو أنه يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبين. وغيره قد يتحقق بالتأمُّل ومطالعة الكتب.

٣ ـ لعل أوجه الأسباب أن أصحابه (المتكلمين) تكلموا فيما كان السلف من الصحابة والتابعين يسكتون فيه. فالكلام ضد السكوت، والمتكلمون كانوا يتكلمون حيث ينبغي الصمت اقتداءً بالسلف الذين لم يخوضوا في المسائل الاعتقادية إلا بحد ضيق.

و ـ أصول الدين: سمي بهذا الاسم لأنه أصل المعارف الدينية لابتنائها عليه وتفرعها عنه، ولأنه يتكفل ببيان ما يعتبر من أصول الدين وأركانه التي لا يتم إيمان بدونها. مقابل علم الفقه الذي يتكفل ببيان الفروع العملية للدين، ومقابل علم الأخلاق والتصوف الذي يعنى بجانب السلوك والأخلاق على أساس من الذوق الروحي والوجدان القلبي.

ولذا آثرنا هذا الاسم وجعلناه عنواناً لهذا الكتاب، ولأن غايتنا هي التركيز في البحث على أصول الدين، وليس البحث في الأصول المذهبية، والمسائل الفرعية، سواء كانت نظرية أم عملية.

٢ ـ تعريف علم أصول الدين:

سنعرف علم أصول الدين أولاً باعتباره مركباً إضافياً من كلمة (أصول) وهي المضاف، وكلمة (الدين) وهي المضاف إليه وذلك يكون بتعريف كل كلمة منه على حدة. ونعرفه ثانياً باعتباره اسماً لعلم مخصوص من علوم الدين.

أصول:

جمعٌ. مفردها: أصل. ومعناها اللغوي: ما يبتنى عليه غيره سواء أكان الابتناء حسياً كالأساس الذي يشيد عليه البناء، فهو أصل له. أم كان الابتناء عقلياً كابتناء الأحكام الجزئية على القواعد الكلية. وقد تصرف العلماء في كلمة أصل فنقلوها من معناها اللغوي التي تدل عليه حقيقة، واستعملوها بعدة معانٍ مجازية أهمها[١]:

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة (أصل) وإرشاد الفحول ص٣ ومباحث الحكم عند الأصوليين ص٨ لمحمد سلام مدكور والأصول العامة ص٣٩ للسيد محمد تقي الحكيم.

ما يقابل الفرع، والقاعدة، والدليل، والراجح من الأمور.

وكلمة (أصل) تُستخدم في هذا العلم بمعناها اللغوي، أي: ما يبتنى عليه غيره، وذلك لأن ما عداها من أمور الدين يبتنى عليها ويتفرع عنها.

كما يصح استخدامها بالمعنى المجازي الأول، أي: ما يقابل الفرع. وذلك لأنها أصل في مقابلة علم الشرائع. وتستخدم أيضاً بالمعنى المجازي الثاني، أي القاعدة التي يبتنى عليها غيرها، لابتناء ما عدا أصول الدين عليها.

الدين:

اسم عام يطلق في اللغة على كل ما يُتَعَبَّد اللّهُ به، كما يطلق على عدة معانٍ مختلفة منها: الطاعة والخضوع والاستسلام، والاستعلاء والمُلْك والسلطان، والجزاء والحساب، والعادة والقضاء والمذهب والملّة والشريعة[1].

ويمكن إرجاع هذه المعاني المختلفة لكلمة الدين إلى ثلاثة معانٍ تكاد تكون متلازمة، ويرجع ما يلحظ من تفاوت بين هذه المعاني إلى أن كلمة (دين) ليست كلمة واحدة في الحقيقة، وإنما هي ثلاث كلمات، وبعبارة أدق تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب.

بيان ذلك: أن كلمة (الدين) تؤخذ تارة من فعل متعدٍّ بنفسه (دانه يدينه)، وتارة من فعل متعدٍّ باللام (دان له)، وتارة من فعل متعدٍّ بالباء (دان به).

١ ـ فإذا قلنا (دانه دِيناً) عنينا بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه ودبّره وقهره وحاسبه وقضى في شأنه وجازاه وكافأه. فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك: من السياسة والتدبير والحكم والقهر والمحاسبة والمجازاة.

ومن ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٤] أي: يوم المحاسبة والجزاء، وفي الحديث: «**الكيّس مَن دان نفسَه، وعمِل لما بعدَ الموت، والعاجز مَن أتبَعَ نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني**»[2] أي: حكمها وضبطها. و(الديَّان) الحكَم القاضي.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، ولسان العرب، ودائرة معارف القرن العشرين ج٤ ص١٠٦.

(٢) رواه أحمد والتِّرمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس، وهو صحيح/ الجامع

٢ ـ وإذا قلنا (دان له) أردنا أنه أطاعه وخضع له. فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع.

٣ ـ وإذا قلنا (دان بالشيء) كان معناه أنه اتخذه دِيناً ومذهباً. أي اعتقده أو اعتاده أو تخَلَّق به.

فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظرياً وعملياً. فالمذهب العملي لكل امرىء هو عادته وسيرته، كما يقال: (هذا دِيني ودَيْدَني). والمذهب النظري عنده هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه. ومن ذلك قولهم (ديّنت الرجل) أي: وكلته إلى دينه، ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً في اعتقاده.

ولا يخفى أن هذا الاستعمال تابع أيضاً للاستعمالين قبله، لأن العادة أو العقيدة التي يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتباعها.

وجملة القول في هذه المعاني اللغوية أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظِّم أحدهما الآخر ويخضع له. فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً. وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً وحكماً وإلزاماً. وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أي المظهر الذي يعبّر عنها.

ونستطيع الآن أن نقول: إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد: فإن الاستعمال الأول، الدين هو إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد، وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له.

والذي يعنينا من كل هذه الاستعمالات هما الاستعمالان الأخيران، وعلى الأخص الاستعمال الثالث. فكلمة الدين يراد بها تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها في المبادىء التي تدين بها أمة من الأمم اعتقاداً أو عملاً[1].

كان ذلك معنى كلمة (الدين) وأصلها في اللغة.

وأما في عُرف الناس واصطلاحهم، فقد عرّفه الإسلاميون بتعريفات متقاربة في ألفاظها، متحدة في معناها، وهي:

١ ـ الدين وضع إلهي يُرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات.

---

(١) انظر الدكتور محمد عبدالله دراز/ الدين ص٢٥.

٢ ـ الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول، باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

ويلاحظ أن تعريف الإسلاميين للدين قاصر على الدين المنزَل، وذلك لجعلهم كلمة (وضع إلهي) قيداً في جميع التعاريف. وكأنهم بذلك لا يسمون الأديان الطبيعية (الوضعية) أي التي قام الإنسان بوضعها بنفسه عن طريق عوامل إنسانية كالوثَنية والبُوذية ديناً، مع أن القرآن قد سماها (ديناً) حيث يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] ويقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦]، وذلك يرجع إلى أنهم قصروا التعريف على الدين الصحيح[(١)]، وهو الدين المنزَل. وأما الأديان الوضعية فهي من وجهة نظرهم باطلة كلها بغض النظر عن فحواها وغايتها.

وقد اعتبر كثير من الإسلاميين الدين والإسلام والملة والشريعة والمذهب كلمات مترادفة، فتراهم يقولون: دين الإسلام، وملة الإسلام، وشريعة الإسلام، ومذهب الإسلام[(٢)].

والحق أن الدين أعمّ من كل ذلك فهو أعم من الإسلام، إذ أنّ الإسلام دين، وليس كل دين إسلاماً. وهو أعم من الملّة والشريعة لأنهما اسم للعبادات والمعاملات دون العقائد. وهو أعم من المذهب، لأنه يراد به جملة من آراء اجتهادية استنبطها بعض علماء المسلمين وعمل بها جمهور منهم كالمذاهب المعروفة.

---

(١) صنّف العلماء الإسلاميون الأديان إلى صنفين:

١ ـ أديان صحيحة وهي الأديان الموحى بها من عند الله، والتي تطلب من معتنقيها أن يعبدوا إلهاً واحداً لا إله غيره، وتأمرهم بالتحلي بالأخلاق الفاضلة، وتُلزمهم بجملة من العبادات والطقوس والشعائر، وتنظم معاملاتهم وعلاقاتهم..

٢ ـ أديان باطلة وهي الديانات الطبيعية «الوضعية» أي التي قام بوضعها البشر ـ سواء أكانوا أفراداً أم جماعات ـ لسياسة الناس وتنظيم أمورهم. وسمّى مؤرخو الأديان من المسلمين الأمم التي تدين بالدين الصحيح «أهل الملل» وسموا معتنقي الأديان الباطلة «أهل النِّحَل» ومن هؤلاء الشَّهْرَسْتاني في كتابه «المِلَل والنِّحَل» وابن حزم في كتابه «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل». واعتبر الشهرستاني اليهود والنصارى والمسلمين من أهل المِلَل، أما الصابئة والوثنيون وعَبَدة النجوم والبراهمة فقد اعتبرهم من أهل النحل. انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل ج١ ص٤٤، وابن حَزْم ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص٩٥.

(٢) انظر: التعريفات ص ٩٤ للجُرجَاني.

كان ذلك تعريف الدين بمعناه العام. وأما الدين بمعناه الخاص فيقصد به الإسلام، وهو المقصود في هذا البحث، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويأتي الإسلام في اللغة بمعنى الطاعة والاستسلام والإذعان والانقياد، كما يأتي بمعنى السلام والأمان.

وأما الإسلام في عُرف الناس واصطلاحهم فهو الدين الذي شرعه الله لعباده على لسان خاتم رسله محمد ﷺ، أو هو الدين الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ.

والمسلم هو الذي أذعن وانقاد ـ في الظاهر ـ لما جاء به النبي الكريم.

وأما الذي تنقاد جوارحُه ويصدِّق قلبه بما جاء به الرسول فهو المؤمن.

فالإيمان هو: (الإقرار باللسان والتصديق بالجنَان)، وزاد جمهور المسلمين (العمل بالأركان)، وذهب فريق إلى أن العمل لازم من لوازم الإيمان، وليس دخيلاً فيه.

والأصل في تسمية هذا الدين بالإسلام قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

وبعد أن فرغنا من تعريف (أصول الدين) باعتباره مركباً إضافياً، نعرض تعريفاته باعتباره اسماً لعلم مخصوص من علوم الدين.

عرّف العلماء هذا العلم بتعريفات متعددة تدل على اختلافهم في وجهة النظر.

١ ـ عرّفه عَضُد الدين الإيجي (ت٧٥٦هـ) بقوله:

(هو علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشُّبَه.

والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ـ عليه السلام ـ فإن الخصم وإن خطّأناه، لا نُخرجه من علماء الكلام)[1].

٢ ـ وعرّفه التهانوي (ت١١٥٨هـ) بقوله:

(إنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشُّبَه؛ وفي اختيار (إثبات العقائد) على تحصيلها إشعار بأن ثمرة (الكلام) إثباتها على

---

(١) المواقف ج١ ص٣٤.

الغير، وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتدَّ بها، وإن كانت مما يستقل العقل فيه)[1].

٣ ـ وعرّفه الشيخ محمد عبده (ت١٩٠٥م) بقوله:

(التوحيد: علم يبحث فيه عن وجود الله، وما يجب أن يثبت له، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن يُنفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم)[2].

٤ ـ وعرّفه محمد فريد وجدي (ت١٩٥٢م) بقوله:

(علم أصول الدين: علم يشتمل على بيان الآراء والمعتقدات التي صرّح بها رسول الله ﷺ، وإثباتها بالأدلة العقلية، ونصرتها وتزييف كل ما خالفها)[3].

يستنتج من تعريفات العلماء لعلم أصول الدين الذي اشتهر باسم (علم الكلام) ومن عباراتهم المختلفة في موضوعه، ومسائله، ووظيفته، عدة أمور أهمها:

١ ـ إن علم أصول الدين يعتمد منهج البحث والنظر والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات العقائد الدينية التي تثبت بالوحي.

٢ ـ أن وظيفة علم أصول الدين الرئيسة هي الاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية، ودفع الشبه ورد الخصوم عنها.

٣ ـ أنهم مختلفون في أن هذا العلم يثبت العقائد الدينية كما يدافع عنها، أم أن وظيفته هي تقريرها ودفع الشبه عما ثبت بالوحي منها فقط.

ومنشأ الخلاف هو: هل العقائد الإيمانية ثابتة بالشرع أم بالعقل؟ بالأول: قال السلَف[4]

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٢٠.

(٢) رسالة التوحيد ص٧.

(٣) دائرة معارف القرن ١٤هـ ـ ٢٠م، ج٦ ص٦٢٠.

(٤) السلَف: هم الصحابة والتابعون، والسَّلَفيون: جماعة إسلامية أرادوا أن تعود دراسة العقائد إلى ما كانت عليه في عهد الصحابة والتابعين. ولذلك كانوا يرددون أن لا سبيل إلى معرفة العقائد الإيمانية وسائر الأحكام الشرعية إلا من الكتاب والسنّة، ويقصرون سلطان العقل على التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول، وعدم المنافرة بينهما، فالعقل يكون شاهداً لا حاكماً، ومقرراً لا ناقضاً. وقد ظهرت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري، وكانوا من الحنابلة ثم تجدد ظهورُهم في القرن السابع الهجري على يد شيخ الإسلام «ابن تَيْمِيَّة» الذي شدَّد في الدعوة إلى آرائهم، ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري على يد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». وما زال الوهابيون ينادون بها، ويتحمسون لها.

وأهل السنّة[1]، وجعلوا مهمة العقل: الفهم عن الشرع، والتماس البراهين لها، ودفع الشُّبَه عنها. وبالثاني: قال العقلانيون وعلى رأسهم المعتَزِلة[2] والشيعة[3]، وجعلوا مهمة النصوص الشرعية تقرير العقائد الدينية بأدلتها العقلية.



(١) أهل السنّة والجماعة: هم جمهور المسلمين، وكانت طريقتهم في إثبات العقائد وتقريرها سلفية حتى جاء أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ) وأخذ ينتصر لآراء أهل السنّة بالبراهين العقلية، ويجادل مخالفيهم المعتزلة اعتماداً على العقل والنقل، فانتشر مذهبه وساد، وصارت له الغلبَة حتى يومنا هذا. ومن أشهر رجالاته: الغزَالي، والباقِلاني، والفَخْر الرَّازي، وإمام الحَرَمين.

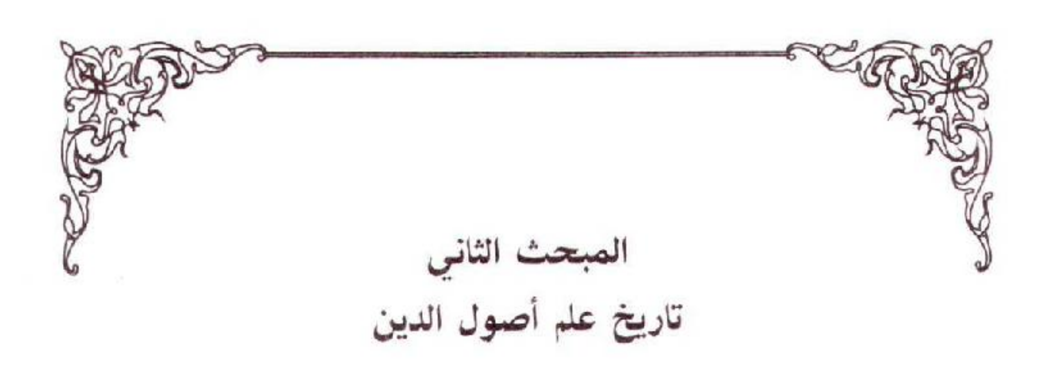
(٢) المعتزلة: فرقة إسلامية كانت طريقتهم في معرفة العقائد وإثباتها والدفاع عنها عقلية خالصة، وكانت ثقتهم بالعقل ومدركاته لا يحدّها إلا احترامهم لأوامر الشرع، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل فما قبله أقروه، وما لم يقبله أوّلوه. وقد اضطرهم هذا إلى تأويل بعض النصوص الدينية التي قد تبدو مخالفة لمسألة عقلية، وكان ظهور هذه الفرقة في بداية القرن الثاني للهجرة، ومن أوائل رجالاتها: واصِل بن عَطَاء (٨٠ ـ ١٣١هـ) وعَمْرو بن عُبَيْد المتوفى ١٤٢.

(٣) شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، إلا أن اسم الشيعة قد غلب على كل مَن تولى علياً وأهل بيته ـ ﷺ ـ حتى صار اسماً خاصاً لهم.

وقد حدد ابن حَزْم معنى التشيُّع بقوله: «مَن وافق الشيعة في أن علياً ـ ﷺ ـ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً». الفِصَل ج٢ ص١١٣ وعرفهم الشَّهْرستاني في المِلَل والنِّحَل ج١ ص١٩٥ بقوله: «هم الذين شايعوا علياً ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده».

وقد اختلف المؤرخون قديماً وحديثاً في تحديد الوقت الذي ظهر فيه التشيُّع في الإسلام، فذهب فريق إلى أن التشيُّع ظهر في حياة الرسول ﷺ، ومن هؤلاء النوبَخْتي والعامِلي.

وذهب فريق آخر إلى أن التشيُّع ظهر بعد وفاة الرسول، ونتيجة الخلاف فيمن يخلفه، ومن هؤلاء ابن خلدون وأحمد أمين، وذهب بعض المستشرقين إلى أن التشيُّع ظهر في عهد عثمان مرافقاً لحركة الفتنة، ومن هؤلاء ولهوزن. وأرى أن التشيُّع كفرقة دينية لها شخصيتها المستقلة وعقائدها المميزة وكحركة سياسية لها أهدافها وفلسفتها الخاصة قد بدأ بحركة التوَّابين التي ظهرت سنة ٦٢هـ بعد استشهاد الإمام الحسين ـ ﷺ ـ.



المبحث الثاني
تاريخ علم أصول الدين

تمهيد:

تبيّن لنا أن علم أصول الدين[1] من العلوم الدينية المصطبغة بصبغة عقلية، وأن موضوعه هو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية، وأن غايته هي تقرير العقائد الإيمانية والدفاع عنها، وأن ما عداه، من علوم الدين يبتنى عليه ويتفرع عنه، فهو أصل لجميع علوم الدين.

ومما لا شكّ فيه أن (هذا النوع من العلم كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام، ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك، لكنهم كانوا قلّما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفَيْ نقيض) وإنما كان منهجهم في تقرير مسائل هذا العلم قائماً على تفسير النصوص وتأويلها، وإقناع الناس بالمعجزات أو إلهائهم بالخيالات[2].

جاء القرآن الكريم فنهج في بيان الدين عامة والعقائد خاصة منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، فلم يقتصر على ذكر العقائد الإيمانية. ولم يطلب من الناس التسليم بها لمجرد حكايتها وإنما أقام البرهان عليها، وحكى عقائد المخالفين

---

(١) المراد من كلمة علم الواردة في هذا الكتاب معناها الاصطلاحي في النصوص القديمة وهو «المعرفة بصفة عامة» وليس المعنى المعاصر لها.

(٢) انظر: محمد عبده/ رسالة التوحيد ص٨.

وحمل عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما جاء به ودعا إليه.

قال الأستاذ العقاد في كتابه (التفكير فريضة إسلامية)(١):

(من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين، لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتاً تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأيدها إلى المناقشات والمذاهب التي تختلف فيها الآراء..

وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف، ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرَضاً غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار..

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضةً مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه).

تأمل في الآيات التي يوجه الله فيها نظر الإنسان إلى كل ما في الكون من مظاهر الوجود ويرشده إلى السبيل المؤدي إلى الإيمان به تعالى في مثل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

وفي القرآن أكثر من ثمانين آية من هذا النوع، وكلها تنبّه على مظاهر الخلق ومعاجز الحياة، وعلى نظام العالم وتضامن أجزائه، خصوصاً تضامن عالم الكواكب مع عالم الأرض، وتقلُّب الإنسان في أحوال الخلق، ثم تدعو إلى التفكير في ذلك كله باعتباره أدلةً يمكن الاهتداء بها إلى الله، والتصديق بأنبيائه.

من هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

---

(١) انظر: عباس العقاد/ التفكير فريضة إسلامية ص٧، ٨.

ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٢ ـ ٤].

وفي الوقت الذي استوفى الله فيه أصول العقيدة الإسلامية، وأقام البرهان عليها في كتابه المجيد، فإنه حكى عقائد المخالفين، وحمل عليها بالحُجَّة.

من ذلك رده على منكري النبوات بقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥].

ورده على منكري البعث بقوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

ورده على عَبَدَة الكواكب بقوله:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩].

ورده على عَبَدَة الملائكة ودعوى نبوتهم لله بقوله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

ورده على اليهود بقوله:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٧].

ورده على النصارى بقوله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٣].

ولكن القرآن الكريم وهو يبرهن على العقيدة الحَقّة، ويحكي عقائد المخالفين، ويحمل عليها بالحجة، ويخاطب العقل، ويستنهض الفكر، لم يكن يمد في حبل الجدل، ويشجع عليه، بل على العكس كان يزهّد فيه، وينفر منه، لأن من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء، ولهذا أمر الله نبيه الكريم بالتلطّف والرفق في دعوة المخالفين وجدالهم حرصاً على الألفة، ورغبة في إقناعهم عن طريق التفكير السديد والموعظة الحسنة. قال ـ ﷻ ـ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل: ١٢٥] وكان يؤكد له أن عقيدته حقة ومنهجه مستقيم، ويوصيه بعدم إطالة الجدال الذي لا طائل وراءه مع المخالفين[١]، في مثل قوله: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾ [الحج: ٦٧ ـ ٦٩].

وبعد أن تعرّفنا على منهج القرآن الكريم في بيان العقائد الإيمانية وتقريرها والدفاع عنها، نبدأ بذكر نُبْذة تاريخية عن حالة العقائد الدينية في عهد النبي ﷺ

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ج٥ ص٦٢٦.

والخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين ثم في عهد العباسيين، مع الإشارة إلى الأدوار التي مرّ بها حتى العصر الحديث.

١ ـ حالة العقائد الإسلامية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين:

أ ـ في عهد الرسول:

جاء الإسلام يقرر أن الدين الحق واحد، هو وحي الله إلى جميع أنبيائه، وأن أصوله ثابتة لا تتبدل ولا يختلف فيها الرسل. بخلاف الشرائع العملية فهي متفاوتة بينهم، وهي حق وخير ما لم تُنسخ.

قال الزَّمَخْشَري في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . . .﴾ [الأنعام: ٩٠].

(المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة، وهي هدى ما لم تُنسخ، فإذا نُسخت لم تبقَ هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً)[١].

وقد تألف الدين الإسلامي من عنصرين متمايزين في الواقع:

أصول، وفروع. وبتعبير آخر: عقيدة وشريعة.

أما **العقيدة**: فقد استوفى الله أصولها كلها في كتابه المجيد وبيّنها الرسول الكريم بقوله وفعله أتم بيان. وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحاور أهل الكتاب، ويجادل المشركين، ويجيب على أسئلتهم، إذا لم تظهر عليها سِمَة الجدل والعِناد، وكانت تتناول أدق مسائل العقيدة: في معرفة الله، والقدَر والروح، والبعث والجنة والنار، والنبوة، وحقيقة الإيمان، وعلاقة الإسلام بالأديان الأخرى[٢].

حكى ابن هشام أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله وسألوه: هذا الله خلق الخلق، فمَن خلق الله؟ فغضب الرسول حتى امتقع لونه ثم نزل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[٣].

---

(١) الزَّمَخْشَري، الكشاف ج٢ ص٣٤.

(٢) يحيى هاشم حسن فرغل، نشأة الآراء والمذاهب والفِرَق الكلامية ص٢٦٧.

(٣) انظر: ابن هِشام، السيرة النبوية ج٢ ص٢٢٠.

وعندما تلا الرسول قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨] سأله فريق من المشركين: أكلّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع مَن عبده؟ كيف ذلك فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم..؟ فأجاب الرسول: «**كل مَن أحبّ أن يعبد من دون الله فهو مع مَن عبده**» ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١][1].

وقال ابن مسعود: إني لمع رسول الله في حرث بالمدينة وهو متكيء على عَسِيب، فمرّ بنا ناس من اليهود، فقالوا: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام فأمسك بيده على جبهته فعرفت أنه ينزل عليه. فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥][2].

ولكن الرسول الكريم لم يكن يلجأ إلى الحوار أو الجدل إلا في مقام دعوة الخصوم إلى الدين الجديد، وصَرْفهم عن أباطيلهم، إذا ما تبيّن له استعدادهم لذلك، وكان ينهى المسلمين عن ممارسته بقصد تحصيل شيء من أصول الدين، ويأمرهم بالوقوف فيها عند ما جاء به.

وأما **الشريعة**: فقد اشتمل الكتاب المجيد على مبادئها وأصولها العامة وأكثر أحكامها الجزئية، وبيّن الرسول الكريم تلكم المبادىء والأصول ونمّاها بما سنّهُ من قواعد عامة، ومن أحكام جزئية، كما أنه ترك الباب مفتوحاً لإنمائها وذلك بتقريره لمبدأ الاجتهاد والنظر[3].

فَهِمَ صحابة الرسول تلكم المعاني، فكانوا يكرهون البحث والجدل في أصول العقيدة، ويرون أنه لا سبيل إلى تقرير شيء منها إلا بالوحي. بينما كانوا لا يتخرجون

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٨ وج٤ ص١٣١ والواحدي، أسباب نزول القرآن ص٣١٤.

(٢) انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن ص٢٩٩.

(٣) انظر: مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٧٠، والدكتور عِرفان عبدالحميد، دراسات في الفِرق والعقائد ص١٢٤.

من النظر والاجتهاد في الشرائع العملية[1].

وبالجملة فقد مضى زمن النبي والمسلمون على عقيدة واحدة هي ما جاء في كتاب الله، لأنهم (أدركوا زمان الوحي وشرف صُحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام)[2].

ب ـ في عهد الخلفاء الراشدين (١١ ـ ٤٠هـ):

بقي حال العقائد في هذا العهد على ما كان عليه في عهد النبي ﷺ فلم يقع فيه خلاف يُذكر في مسائل العقيدة. وإنما وقع خلاف في جملة من المسائل العملية كان غرضهم منها ـ كما يقول الشَهْرَسْتاني ـ (إقامة مراسم الشرع، وإدامة مناهج الدين)[3] إلا أن بعض تلكم الخلافات العملية ارتفع شأنها وتعاظم خطرها حتى صارت ذات صلة بمسائل العقائد، وأساساً لقيام كثير من الفرق الإسلامية فيما بعد. وكان أخطر خلاف حدثَ عقب وفاة النبي ﷺ مباشرة هو اختلافهم في الخِلافة. وموضوعه: مَن أولى الناس بخلافة النبي في حكم أمته..؟ رجل من الأنصار الذين آووا ونصروا.. أم رجل من المهاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام وأوذوا وصبروا.. أم رجل من عترة النبي وآل بيته ـ عليهم السلام ـ. ثم استقر الرأي على استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، وبذلك سكن الخلاف، ليعود قوياً متشعباً، ويصبح سبباً لافتراق المسلمين فيما بعد[4].

واختلف المسلمون في عهد أبي بكر في قتال مانعي الزكاة، فقال جماعة: لا نقاتلهم، حتى قال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتلهم وقد قال عليه السلام: «**أمِرْتُ أن أقاتل الناس**

---

(١) كان معاصرو الرسول من الصحابة يجتهدون في حال بُعدهم عن الرسول فقط، وكان اجتهادهم على ثلاثة أنواع:

١ ـ اجتهادهم لفهم مراد الرسول.

٢ ـ واجتهاد لمعرفة الحكم الشرعي في واقعة لم يصلهم فيها نص ديني.

٣ ـ واجتهاد في القضاء بين الناس.

انظر: لنا، العقل عند الشيعة ص٢٠.

(٢) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ج٢ ص٣٢.

(٣) الشَهْرَسْتاني، المِلَل والنِّحَل ج١ ص٢٠ وانظر: الإسْفَرَاييني، التبصير في الدين ص٢٦.

(٤) انظر: الشيخ محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ج١ ص١٢ وأبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين ج١ ص٢ والإسفراييني، التبصير في الدين ص٢٦.

حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»، وقال جماعة: بل نقاتلهم، حتى قال أبو بكر ﷺ: أليس قد قال: «**إلاّ بحقها**» ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو منعوني عِقالاً مما أدوه إلى النبي لقاتلتهم عليه. ومضى بنفسه إلى قتالهم، ووافقه الصحابة[١]. والظاهر أن هذا الخلاف كان أصلاً لما حدث ـ بعد ذلك ـ من الخلاف في الإيمان وتضمنه للعمل أو عدم تضمنه له[٢].

واختلفوا في تنصيص أبي بكر على عمر بالخلافة فقد رضيه جمهورهم، وتبرم منه فريق منهم، حتى قال قائلهم: وَلّيْتَ علينا فَظًّا غليظاً. ولكنهم رجعوا عن رأيهم بقول أبي بكر: لو سألني ربي يوم القيامة لقلت: وليت عليهم خيرهم لهم[٣].

واختلف المسلمون في عهد عمر ﷺ في شأن أرض سواد العراق وفارس. فقال قوم: تقسَّم، وقال عمر: بل تبقى ملكية عامة للمسلمين جميعاً، لأنه يخشى إذا قسم كل أرض مفتوحة أن تجيء ذراري لا تملك شيئاً من الأرض، ولأنه يحتاج إلى ما يسد الثغور ويحمي البلاد. فنزلوا عند رأيه ووافقوا عليه أجمعين[٤].

واختلفوا فيما اتخذه عمر في أمر الخلافة من الشورى بين ستة من الصحابة... حتى اتفقوا على بيعة عثمان ﷺ.

ثم اختلفوا في بعض أعمال عثمان حيث أنكر قوم عليه أفعالاً عدة، منها: رده الحكم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله منها وكان يسمى طريد رسول الله. ومنها: إيواؤه عبدالله بن سعد بن أبي السرح، بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، وتوليته إياه مصر بأعمالها.

كما اختلفوا في الثورة عليه، وفي مقتله، فقال قوم: قُتل ظلماً وعدواناً. وقال

---

(١) انظر: الشَهْرَسْتاني، المِلَل والنِّحَل ج١ ص٢٣ ومصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٨٤.

(٢) اختلف المسلمون في اعتبار العمل في الإيمان، فاعتبره جمهور المسلمين، وهذا معنى ما جاء في بعض الروايات: «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان» والأركان هي الأمور التي بني عليها الإسلام كالصلاة والصوم وما إلى ذلك من الواجبات. وذهب البعض إلى اعتبار العمل لازماً من لوازم الإيمان وليس جزء منه.

وقالوا: الإيمان اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان. وعلى هذا فمَن لم يعمل فهو فاسق عند الجمهور، وكافر عند الأزارقة من الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة وكثير من الخوارج والزيدية القائلين بالمنزلة بين المنزلتين.

(٣) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل ج١ ص٢٤.

(٤) انظر: أبو زُهْرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ج٢ ص١٤.

آخرون بخلاف ذلك[1].

وبعد أن بويع علي بن أبي طالب اختلف الناس في خروج طَلْحة والزُّبَيْر وحربهما إياه وفي إنكار معاوية لإمامته وقتاله إياه، وفي التحكيم، وفي مخالفة الخوارج له وخروجهم عن طاعته ومناصبتهم العداء له[2]. . ، وفي عهده ظهر خلاف الغُلاة من شيعته وهم الذين تجاوزوا الحد في تقديسه حتى اعتقدوا أنه إله الخلق. . مما حمله على قتلهم وتحريق بعضهم بالنار. .[3].

كانت تلك جلّ الخلافات التي حدثت بين المسلمين في هذا العهد. وهي كما ترى مسائل عملية، إلا أن بعضها كالخلافة. . . صار أساساً لخلافات عقائدية، وسبباً في نشوء كثير من الفرق الدينية فيما بعد.

---

(١) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل ج١ ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) الخوارج: جمع الخارجة وهم الذين نزعوا أيديهم عن طاعة الحاكم الشرعي. ولكن ينصرف الذهن عادة عند إطلاق الخوارج إلى الذين خرجوا على الإمام علي ﷺ بُعَيْد قبوله التحكيم. والغريب في الأمر أنهم هم الذين حملوا الإمام علي على قبول التحكيم الذي دعا إليه معاوية إثر معركة صِفِّين التي كاد معاوية وجنده يفرون من ويلاتها، ولكنهم وبعد فشل التحكيم اعتبروا قبوله جريمة كبيرة، وطلبوا إلى علي أن يتوب عما ارتكب، لأنه كفر بتحكيمه كما كفروا وتابوا. وأيدهم في هذا الزعم بعض الأعراب وكان أكثرهم من بني تميم ورفعوا شعار (لا حكم إلا لله)، وأخذوا يقاتلون علياً بعد أن كانوا يجادلونه، ويقطعون عليه القول. وقد افترقوا بعد ذلك إلى عدة فرق أهمها: الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق، من بني حنيفة. والصفرية، أتباع «زياد بن الأصفر». والعجاردة، أتباع «عبدالكريم بن عَجْرد». والإباضية، أتباع «عبدالله بن إباض». ولهؤلاء وجود اليوم في عُمَان على الخليج العربي وفي صحراء الجزائر.

(٣) الغلو في اللغة هو التجاوز عن الحد والخروج عن القصد. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، نهى سبحانه عن تجاوز الحد في المسيح ﷺ، وحذّر من الخروج عن القصد في القول، وجعل ما ادعته النصارى فيه غلواً لتعدّيه الحد. والغُلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة، ووضعوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد، وهم ضُلاّل كفّار، حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة ـ عليهم السلام ـ عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام/ شرح عقائد الصدوق للشيخ المفيد ص٢٥٧. وانظر: فِرق الشيعة للنَّوْبَخْتي ص٤٠ ـ ٦٠، وتضم فِرق الغُلاة جملة من الآراء والأفكار القديمة التي اصطدم بها الإسلام في البلاد المفتوحة، وكانت تهدف إلى مقاومته وهدمه من الداخل، فتظاهر أهلها بالدخول فيه، ورفعوا شعار التشيُّع لآل البيت مما دفع الأئمة عليهم السلام إلى البراءة منهم ومن آرائهم. انظر: الغلو والفرق الغالية ص٨٥ للدكتور عبدالله سلوم، والمقالات والفرق ص٥٥ لأبي خلف الأشعري، وأصل الشيعة وأصولها ص٩٩ لآل كاشف الغطاء.

وأما العقيدة فلم يحدثنا التاريخ عن وقوع خلاف بينهم في شيء منها. وكان منهجهم في تقرير العقائد الدينية قائماً على النقل في غالب أمره، ولم يلجؤوا إلى البحث والنظر وممارسة الحوار والجدل إلا في مقام دعوة الخصوم وصرفهم عن عقائدهم الفاسدة.

من ذلك قول أبي بكر في تقرير مخالفة الله للحوادث:

(العجز عن درك الإدراك إدراك) وقد شرح الإسْفرَاييني قوله هذا بأنه (إذا صحّ عندك أن الصانع لا يمكن معرفته بالتصوير والتركيب والقياس على الخلق صح عندك أنه خلاف المخلوقات)(١).

وتعرّض عمر لاعتراض في القدر من قسّ إذ كان قائماً يخطب الناس بالجابِيَة، فقال في خطبته: (إنّ الله يُضِلّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء) فقال القس: ما يقول أميركم هذا؟ قالوا: إن الله يُضِلّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء. فقال القس: برقشت(٢)، والله أعدل من أن يُضِل أحداً، فبلغ عمر ذلك، فبعث إليه فقال له: بل أضلك الله، ولولا عهدك لضربت عنقك(٣).

ويروى أن أبا موسى الأشعري ناظر القائلين: كيف يقدِّر عليَّ شيئاً ثم يعذبني عليه؟ قائلاً لهم: قدّر حيث علم، وعذّب حيث لم يظلم.

وكان الإمام علي أكثر الصحابة لجوءاً إلى المناظرة والجدل، وذلك يرجع إلى أنه كان من أكثرهم مشاركة في توجيه الأحداث ومتابعتها، كما كان من أبرز الذين امتد بهم العمر إلى مرحلة دخول المجتمع الإسلامي في طور جديد خطير، فضلاً عن أنه الشخصية الكبرى التي اتخذتها أحداث الفتنة الإسلامية محوراً لها.

ولذلك أُثِر عنه طائفة كبيرة من الآراء في أدق مسائل العقيدة: في ذات الله وصفاته، وفي القدر، وخلق القرآن(٤)..

وجملة القول: إن المسلمين في هذا العهد لم يتركوا النظر في مسائل العقيدة في معرض الإرشاد، وإنما تركوا التوغل والتكلُّف في النظر والحوار، وإنهم ما كانوا

---

(١) الإسفراييني، التبصير في الدين ص٩٧.

(٢) برقش الكلام وبرقش فيه أي خلطه.

(٣) انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج١١ ص٢٩٠ والآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ...﴾ [فاطر: ٨].

(٤) فرغل: نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص٥٠.

يلجؤون إلى شيء منه إلا في معرض إثبات عقائد الدين ودفع الخصوم المتربصين.

٢ ـ حالة العقائد الإسلامية في عهد الأمويين (٤١ ـ ١٣٢هـ)[١]:

حدث تطور كبير لحالة العقائد الدينية في هذا العهد، فبرزت مشكلات عقائدية كثيرة أدت إلى تفرق المسلمين، واحتدام الحوار والجدل بينهم، واعتماد فريق منهم منهج النظر الفكري والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات عقائدهم بخاصة وأصول الدين بعامة. وكان أبرز تلكم المشكلات وأكثرها حواراً وجدلاً مسألة (القضاء والقدر) التي أثارها مَعْبَد الجُهَني[٢] وتولاها من بعده غَيْلان الدِّمَشْقي[٣]، ومسألتَيْ (خلق القرآن) و(الصفات الإلهية) اللتين أثارهما الجَعْد بن دِرْهَم[٤] وتولاهما من بعده الجَهْم بن صَفْوان[٥]، ومسألة (الكبائر وحكم مرتكبيها) التي أثارها الخوارج.

جاء في كتاب التبصير في الدين[٦]:

وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القَدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجُهَني وغَيْلان الدمشقي وجَعْد بن دِرهم، وكان ينكر عليهم مَن كان قد بقي من الصحابة كعبدالله بن عمر (ت٧٣هـ) وعبدالله بن عباس (ت٦٨هـ) وعبدالله بن أبي أوْفَى (ت٨٧هـ) وجابر (ت٥٠هـ) وأنَس (ت٩٣هـ) وأبي هريرة (ت٥٨هـ) وعُقْبة بن عامر (ت٥٨هـ) وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بألاّ

---

(١) عهد الأمويين يشمل عهد متأخري الصحابة الذي ينتهي ما بين ٩٠ و١٠٠هـ وعهد التابعين.

(٢) مَعْبَد الجُهَني، تابعي كان أول القائلين بالقدر، قتله عبدالملك سنة ٨٠هـ. وكان الحسن البصري ينهى الناس عن مجالسته ويقول: هو ضالّ مُضِلّ.

(٣) غَيْلان بن مسلم القِبْطي الدمشقي، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، يعتبر في رأي أكثر الباحثين المبشر الحقيقي بمذهب القدر، وقد صلبه هِشام بن عبدالملك على باب دمشق.

(٤) جعد بن درهم، كان من موالي بني الحكَم، ومن المرجح أنه من أصل فارسي، وكان مؤدباً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وقد أظهر الجعد مقالته في زمان هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) فأخذه هشام وأرسله إلى والي العراق (خالد بن عبدالله القَسْري) فقتله سنة ١٢٠هـ.

(٥) جَهْم بن صَفْوان الراسبي، وكنيته أبو محرز، تتلمذ على الجعد بن درهم وكان كاتباً للحارث بن سريج، الذي خرج على الدولة الأموية في آخر أيامها فقتله سَلْم بن الأحوز المازني سنة ١٢٨هـ بأمر من والي خراسان نصر بن سَيّار. ويعتبر جهم رأس فرقة كان لها أثر كبير في الفكر الإسلامي.

(٦) الإسفراييني، التبصير في الدين ص٢٧ ـ ٢٩.

يسلّموا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا، ولا يصلّوا عليهم إذا ماتوا.

وجاء في كتاب مفتاح السعادة[1]:

إن رجلاً قال لابن عمر (ت٧٣هـ): ظهر في زماننا رجال يزنون، ويشربون الخمر، ويقتلون النفس التي حرّم الله، ثم يحتجُّون علينا ويقولون: كان ذلك في علم الله. فغضب ابن عمر وقال: (سبحان الله، كان ذلك في علم الله، ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي).

وجاء في الرسالة الحمَوية[2]:

(أول ما ظهرت هذه المقالة (نفي الصفات الإلهية) من جَعد بن درهم، وأخذها عنه الجَهْم بن صَفوان وأظهرها، فنُسبت مقالة الجَهْمِيّة إليه).

وجملة القول أنه في هذا العهد ظهر الخلاف بين الفرق التي أشرنا إلى مناشيء وجودها في العهد السالف واحتدم النزاع بينها. واعتمد هذا النزاع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة نقلية وعقلية، ثم تولدت مسائل اعتقادية كانت موضع تجادل وتنازع. وافترق المسلمون فيها فرقاً، فظهر (علم الكلام) على أيدي هذه الفرق خصوصاً المعتَزِلة[3].

جاء في كتاب مفتاح السعادة[4]:

(فاعلم أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة والقدَرية[5] في حدود المائة من الهجرة، لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء، وكانت وفاته في سنة ١٣١هـ وولادته في سنة ٨٠هـ فيصير زمن طلبه العلم وقدرته على الاجتهاد في حدود المائة تقريباً) وكان واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١هـ) هو أول مَن أظهر الاعتزال وأشاعه[6].

---

(١) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ج٢ ص٣٢.

(٢) ابن تيمية، رسالة الفتوى الحموية الكبرى ص١٣.

(٣) مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٨٧.

(٤) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ج٢ ص٣٣.

(٥) القدرية: هم الذين ينفون القدر عن الله ويثبتونه للإنسان، أي يقولون بحرية الإنسان واختياره. ومن أشهرهم: معبد الجهني وغيلان الدمشقي، وقد تبنّى رأيهم ـ بعد ذلك ـ المعتزلة، ومن أوائلهم: واصل بن عطاء وعَمْرو بن عُبَيْد (ت١٤٢هـ).

(٦) قيل أن واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحَنَفية (ت٩٨هـ) وأبو هاشم أخذ عن أبيه محمد بن الحنفية (ت٨١هـ) ومحمد أخذ عن أبيه علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ).

ومما مرّ يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أ ـ أنّ النظر العقلي في العقائد الدينية بدأ على أيدي الجُهنية والجَهْمية والقدَرية والمعتزلة، وكان ذلك في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة.

ب ـ أنّ أهم مسألتين سببتا الخلاف والنظر هما: مسألة (الصفات الإلّهية)، ومسألة (القضاء والقدر).

جـ ـ إنّ الذين أثاروا هذه المسائل وبحثوا فيها كانوا من الموالي، وهم المسلمون الجدد الذين تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا الإسلام، إثر موجة الفتوحات الكبرى التي حملت الإسلام إلى الأراضي المفتوحة.

د ـ إنّ المذاهب السياسية والفرق الدينية التي نبتت في العهد السالف قد نمت وتميزت شخصيتها الفكريّة والعقائديّة في هذا العهد. وأهمها:

الشيعة والخوارج، وفيه أيضاً ظهرت فرق دينية جديدة كان أهمها: القدَرية والجَبْرية[1]، والمُرجئة[2]، والمعتزلة.

هـ ـ أنّ التدوين والتأليف في مسائل الكلام قد بدأ في هذا العهد، إلا أنه لم يصل إلينا منه شيء.

٣ ـ حالة العقائد الإسلامية منذ عهد العباسيين (١٣٢هـ) وحتى عصر النهضة الحديثة:

يعتبر العهد العباسي العهد الذهبي بالنسبة لتدوين العلوم والمعارف الإسلامية، ففيه ظهر التدوين وأُلّفت الرسائل والكتب في علم الكلام. ألّف فيه أهل الفرق منهم: واصِل بن عطاء وله كتاب (أصناف المرجئة) وكتاب (المنزلة بين المنزلتين) وكتاب (الخطب في التوحيد والعدل). ومنهم: عَمْرو بن عُبَيْد (ت١٤٢هـ) وقد ذكروا له كتاباً في الرد على القدرية. ومنهم: هِشام بن الحكَم (ت١٩٩هـ) ـ متكلم شيعي ـ وله

---

(١) الجَبْرية هم الذين ادّعوا أن ليس للإنسان قدرة ولا إرادة ولا اختيار، وإنما هو مجبور في أفعاله، والله هو الذي يخلق فيه الأفعال كما يخلقها في الحيوان والجماد، ونسبتها إلى الإنسان من قبيل المجاز، والثواب والعقاب جبر، والتكليف أيضاً جبر. ومن أوائل القائلين بذلك: الجعد بن درهم والجهم بن صفوان.

(٢) المرجئة: هم الذين أرجؤوا الحكم على مرتكب الكبيرة، وفوّضوا أمره إلى الله، مقابل الخوارج الذين حكموا بكفره، والمعتزلة الذين قالوا: هو غير مؤمن وغير كافر، وإنما هو بمنزلة بين المنزلتين.

كتاب (الإمامة) وكتاب (الرد على الزنادقة) وكتاب (الرد على أصحاب الإثنين) وكتاب (الرد على أصحاب الطبائع) وكتاب (التوحيد) وكتاب (الرد على مَن قال بإمامة المفضول) وغير ذلك، وقد ذكرها ابن النديم في (الفِهْرست)[1] كما ذكر متكلمي الجبرية وأسماء ما صنّفوه من كتب ومتكلمي الخوارج وكتبهم. وما أَلَّفه أهل السنّة في العقائد منها كتاب (الفقه الأكبر) و(العالم والمتعلم) وهما منسوبان لأبي حنيفة (ت١٥٠هـ) وكتاب (الفقه الأكبر) وهو منسوب للشافعي (ت٢٠٤هـ).

راج منهج النظر العقلي في تقرير العقائد الدينية والدفاع عنها الذي حمل لواءه المعتزلة وتجاوب معهم الشيعة، ولذا كانت وجهات النظر بينهما متفقة في كثير من مسائل هذا العلم، كنفي رؤية الله، وحدوث القرآن، ونفي الجبر عن أفعال العباد، وقاعدة اللطف، ووجوب الأصلح، ونفي قِدَم الصفات الإلهية وأنها عين الذات، ومسألة الحسن والقبح العقليين، والعدل، وكان من الطبيعي أن يتفق الفريقان في كثير من المسائل الفكرية والعقائدية، إلا أن المعتزلة كانوا أكثر تجرداً وأكثر اعتزازاً بأحكام العقل، فلم يحاولوا التوفيق بين العقل والنقل في حال التعارض، وإنما قرروا تأويل النقل والأخذ بحكم العقل بخلاف الشيعة الذين كانوا يحاولون التوفيق بينهما إن أمكن، وإلا أوَّلوا النقل، ولهذا اختلف الفريقان في كثير من القضايا الفكرية والمسائل العقائدية وخصوصاً فيما يتعلق بالإمامة كالعصمة والغيبة.

أصبح الاعتزال هو المذهب السائد من بين المذاهب الكلامية لالتزامه بالمنهج العقلي واعتماده على المنطق والجدل، وحظي بتأييد السلطة السياسية ومساندتها له، مما أدى إلى ضعف المذاهب الأخرى ولا سيما الشيعة لاضطهاد السلطة لهم، والسلَفيون لاعتمادهم المنهج النقلي.

دامت السيادة والقيادة للاعتزال أكثر من قرن من الزمان، ولكنه أخذ بعد ذلك في التقهقر والانحسار، وذلك يرجع إلى أسباب عدة أهمها:

١ ـ غلو المعتزلة وإسرافهم في الاستدلال العقلي.

٢ ـ اتخاذهم القوة وسيلة لفرض آرائهم الدينية ووجهات نظرهم الفكرية.

٣ ـ لجوؤهم إلى اضطهاد مخالفيهم في المعتقد وخصوصاً أهل السنّة.

هذه الأسباب وغيرها شدت من أزر المعارضة وجعلها تتحفز للقضاء عليهم... وقد كان. فما إن انتهت الخِلافة للمتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧) حتى أصدر أمره

---

(١) الفِهْرست ص٢٥٢، وانظر: مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٨٨.

(بترك النظر والمباحثة في الدين، وترك ما كان عليه الناس أيام المأمون والمعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحَدِّثين - أصحاب النص والمنهج النقلي - بالتحديث وإظهار السنّة)[1].

استمرت موجة العداء الفكري للمعتزلة بعد المتوكل، وانتهى هذا الانقلاب السياسي ضدهم بانقلاب آخر فكري، وذلك بخروج أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤) من صفوفهم ومبالغته في الرد عليهم بعد أن لبث فيهم طويلاً[2].

بدأ الأشعري، بكتبه في الرد على مخالفي أهل السنّة وخصوصاً المعتزلة وبطريقته في نصرة العقائد الدينية على مذهب السلف بالأدلة العقلية عهداً جديداً تزلزل فيه سلطان الاعتزال. وفي ذلك يقول صاحب مفتاح السعادة: (ودفع الكتب التي ألّفها على مذاهب أهل السنّة، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رؤوسهم فجحرهم الأشعري، حتى دخلوا في أقماع السمسم)[3].

وجملة القول أن السيادة الفكرية ظلت للمنهج العقلي المتمثل في الاعتزال من مطلع القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ولئن حدّت السلطة السياسية من غلوه وانحرافه فقد كان لأبي الحسن الأشعري الذي سلك مسلكاً وسطاً بين موقف السَّلَف وتطرف المعتزلة، وأخذ يقرر العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. . ، أكبر الأثر في تزعزع كيان المعتزلة ودحرهم. وقد انتصر لمذهبه من بعده وسلك طريقته جملة من أكابر العلماء منهم:

القاضي الباقِلاّني (ت٤٠٣هـ) والإسْفَراييني (ت٤١٨هـ) وأبو منصور البغدادي (ت٤٢٩هـ) وإمام الحَرَمين الجُوَيْني (ت٤٧٨هـ) والغَزَالي (ت٥٠٥هـ) والشَّهْرَسْتاني (ت٥٤٨هـ) وفخر الدين الرَّازي (ت٦٠٦هـ) وسمُّوا رأيه بمذهب أهل السنّة والجماعة، وقد قام هؤلاء بتوسيع تعاليمه وآرائه حتى انتهت جهودهم بتكوين المدرسة الكلامية التي تحمل اسم (الأشاعرة والأشْعرية) وقد تمكنت هذه المدرسة بالاشتراك مع شقيقتها المدرسة (الماتُريدية)[4] من بسط نفوذهما على العالم الإسلامي منذ بداية

(١) المسعودي، مروج الذهب ج٢ ص٢٦٩.

(٢) انظر: الدكتور عرفان عبدالحميد، دراسات في العقائد والفرق ص١٣٢.

(٣) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ج٢ ص٢٣ وانظر: مصطفى عبدالرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٨٩.

(٤) نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت٣٣٣هـ) وهم طائفة الفقهاء الأحناف مقلّدو الإمام أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) وصاحبيه: أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرَمي، ومحمد بن الحسن الشَّيْباني.

القرن الرابع الهجري. وقد كان بين المدرستين (الأشعرية والماتُريدية) نزاع وخلاف في بعض المسائل العقائدية انتهى بمرور الزمن إلى تسوية ووفاق.

أما المعتزلة كمدرسة فكرية فقد انقرضت، ولكن تعاليمها عاشت في الفرق الكلامية التي خلفتها في الفكر الإسلامي وخصوصاً الشيعة الذين كانوا ينهجون المنهج العقلي أيضاً كالمعتزلة، رغم ما كان بين المدرستين من نزاع وخلاف أكثره يتعلق بالإمامة.

يقول كولد زيهر: (استقر الاعتزال في مؤلفات الشيعة حتى يومنا هذا، ولذا فإن من الخطأ الجسيم ـ سواء من ناحية التاريخ الديني أو التاريخ الأدبي ـ أن نزعم بأنه لم يبقَ للاعتزال أثر قائم محسوس بعد الفوز الحاسم الذي نالته العقائد الأشعرية. وعند الشيعة مؤلفات اعتقادية كثيرة يرجعون إليها وينسجون على منوالها وهي حجة قائمة تدحض هذا الزعم وتفنّده. ويمكن أن نعتبر كتب العقائد الشيعية كأنها من مؤلفات المعتزلة[1]).

ومع ما كان للمدرسة الأشعرية من مكانة في العالم الإسلامي، فقد استمرت موجة العداء الفكري للنظر العقلي في العقائد في صفوف أهل الحديث وخاصة الحنابلة منهم ممن اشتدوا في الأخذ بالنص ولهذا سمُّوا أحياناً النَّصيُّون أو الحَرْفِيُّون والنقليُّون.

وقد بدأت هذه الحرب على علم الكلام السنّي في ثوبه الأشعري بشيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ) الذي ألّف كتاباً في (ذمّ الكلام وأهله)، ثم تتابعت حملات الحنابلة على علم الكلام من بعده ممثلة في كتابات ابن قُدامة المَقْدِسي (ت٦٢٠هـ) وابنِ الصَّلاح الشَّهْرزُوري (ت٦٤٣هـ) وابن تيمِيّة الحَرّاني (ت٧٢٨هـ)[2] وتلميذه ابن قَيِّم الجَوْزية (ت٧٥١هـ)[3].

---

(١) العقيدة والشريعة ص٩٩، ترجمة للدكتور محمد يوسف موسى وآخرين.

(٢) تصدى ابن تيمية للانتصار لمذهب السلف، وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم وعلى الشيعة والصوفية. فافترق الناس فيه فريقين: فريق يقتدي به ويقول بأقواله ويعمل برأيه ويرى أنه شيخ الإسلام وأجلّ حفّاظ أهل الملة الإسلامية. وفريق يبدّعه ويضلّله ويزري عليه بإثبات الصفات وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع. وقد تبنّى أفكار ابن تيمية ونادى بها وتحمّس لها الشيخ محمد بن عبدالوهاب مؤسس الحركة الوهابية في القرن الثاني عشر الهجري. ولهم الغلبة اليوم في المملكة العربية السعودية وأتباع في مختلف الأمصار الإسلامية.

(٣) انظر: الدكتور عرفان عبدالحميد، دراسات في العقائد والفرق ص١٣٩.

عمل هؤلاء على إحياء مذهب السلف على طريقة الحنابلة الذي يقوم على أخذ العقائد من الكتاب والسنّة فقط. فقاوموا بعنف المنهج العقلي الذي كان ينادي به المعتزلة، والذي عاش في مدرسة الشيعة.

كما قاوموا منهج الأشاعرة الذي يقوم على تقرير العقائد الإيمانية بالبراهين العقلية واشتدت مقاومتهم لمنهج المتأخرين من الأشاعرة الذين توغلوا في مطالعة كتب الفلسفة حتى التبس عليهم شأن العلمين (الكلام والفلسفة) فحسبوه واحداً واختلطت مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث صار لا يتميز أحد الفنّين عن الآخر كما فعل البَيْضَاوي (ت٦٦١هـ) في كتابه (الطوالع) وعَضُد الدين الإيْجِي (ت٧٠٥هـ) في كتابه (المواقف)[١].

ثم ضعفت الهمم عن الدراسات القوية لعلم الكلام حتى صار من الممكن القول بأن المسلمين لم يأتوا بعد هذا الوقت بجديد ولا بمبتكر في عالم (الفكر الأصيل) ولم يبقَ بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضّلها القصور[٢].

أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين أتباع المدارس التوفيقية المتوسطة من أشاعرة وماتُريدية وبين أتباع مذهب النص، من أتباع الإمام تقي الدين ابن تَيْمِيّة الحَرَّاني وتلميذه ابن قَيّم الجوزية الذين أطلقوا على أنفسهم لقب (السَّلَفية) وأتباع المذهب العقلي الذي تمثله مدرسة الشيعة الإثني عشرية اليوم[٣].

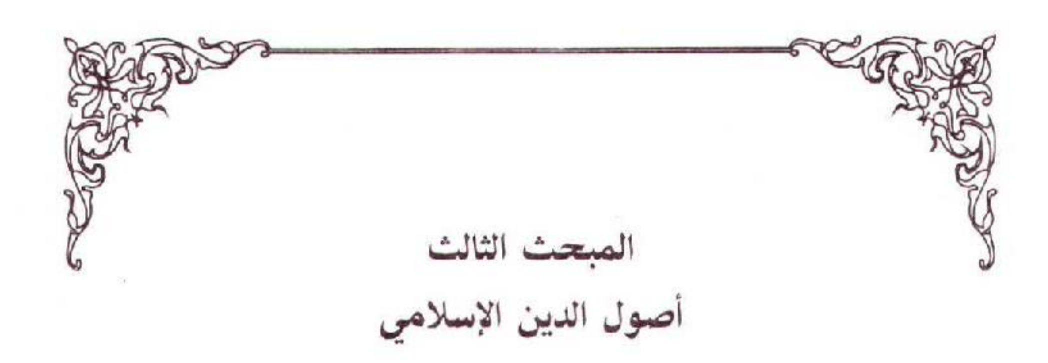


---

(١) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٩٤ للشيخ مصطفى عبدالرازق وعلم الكلام وبعض مشكلاته للتفتازاني حيث يقول في مقدمته ص(ب): «الحق أن متكلمي الإسلام وخصوصاً المتأخرين منهم لم يقفوا عند حد تقرير العقائد وإنما تجاوزوا ذلك إلى الخوض في مسائل هي أقرب ما تكون إلى الفلسفة الخالصة، وفي مسائل طبيعية اعتبروها مقدمات للعلم كالبحث في الجواهر والأعراض والجزء الذي لا يتجزأ والذرة وطبائع الموجودات بوجه عام».

(٢) محمد عبده، رسالة التوحيد ص٢٢.

(٣) دراسات في العقائد والفرق، للدكتور عرفان عبدالحميد ص١٤٩.



المبحث الثالث

أصول الدين الإسلامي

المراد بأصول الدين القواعد التي يرتكز عليها الدين، والأسس التي يقوم عليها الإيمان بحيث إذا فُقدت أو فُقد إحداها لا يكون إيمان.

وقد اختلف المسلمون فيما يعتبر من الأصول من العقائد الدينية وما لا يعتبر منها، ولذا سأذكرها عند أهم الفرق الإسلامية، ثم نبيّن ما اتفقوا على اعتباره منها وما انفردت به كل فرقة.

١ ـ أهل السنّة

اتفق جمهور أهل السنّة على أن أصول الدين (أركان الإيمان) ستة وهي:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ الإيمان بالملائكة.

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية.

٤ ـ الإيمان بالرسل.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٦ ـ الإيمان بالقدر خيره وشره.

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى:

وهو أن يعتقد الإنسان بوجوده، ووحدانيته، وأنه لا مثيل له، ولا شبيه، وأنه متفرد بكل صفات الكمال من عدل وحكمة وعلم... منزَّه عن كل صفات النقص من ظلم وسفه ونقص...

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

الملائكة أجسام نورانية، لهم قوة خارقة لا تدانيها قوة البشر، ولهم وظائف يؤدونها بصدق وإخلاص، وهم معصومون عن الخطأ عمداً وسهواً: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ووجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي من الكتاب والسنة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وليس الإيمان بالملائكة مستحيلاً عند العقل، بل هو من الممكنات التي يجوِّز العقل وجودها: (ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بإجماع المسلمين، بل بنص قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] على أن الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ونزول القرآن عليه يستلزم الإيمان بالملائكة، فإنكار وجودهم إنكار للنبوة وللقرآن معاً)[١].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب المنزلة:

ما من شك في أن كل رسول بُعث لأمة كانت لديه تعاليم سماوية تهدف إلى تنظيم علائق أفراد تلك الأمة بالخالق ثم تنظيم حياة الأفراد وعلاقتهم ببعض، وبالأمم والشعوب الأخرى، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أسماء تلك الكتب التي تضمنت التعاليم الإلهية منها صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى.

وقد دعانا الإسلام إلى التصديق بهذه الكتب وبجميع ما أُنزل جملةً، لكنه ـ تعالى ـ ألزمنا العمل بكتابه الكريم لأنه متضمن لجميع التعاليم الإلٓهية، محتوٍ لتلك الكتب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يبعث في كل أمة رسولاً، يعلّمهم الكتاب والحكمة ويدعوهم إلى عبادة الله وحده: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ومن أجل وحدة دعوة الرسل هذه، دعا الإسلام أتباعه إلى التصديق بجميع رسل الله ـ في الجملة ـ وعدم إنكار نبوة أحد منهم ﴿لَا

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص٢٩٢ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

﴿نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] كما أمر الإسلام أتباعه باعتقاد أن هؤلاء الرسل كانوا متصفين بأفضل الصفات البشرية من أمانة وصدق وذكاء، منزّهين عن الرذائل والنقائص من خيانة وكذب وغباء ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

وهو أن يعتقد الإنسان بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة، وذلك بعد أن يبعث الله ـ تعالى ـ الخلائق بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩].

الركن السادس: الإيمان بالقدر:

بعدما اقتضت حكمته ـ تعالى ـ خلق العباد، لم يتركهم هملاً بل أرسل إليهم ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأنزل عليهم كتبه فبيّن لهم عقبى الهداية وعاقبة الغواية ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠] وبعد أن بيّن لهم ذلك.. منحهم إرادة مستقلة تتصرف في حرية تامة، فتأتي ما تشاء وتدع ما تشاء من الأفعال ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] لكنه سبحانه أحصى أعمال خلقه وعرف بعلمه الواسع الذي لا يحيطه شيء ما سيفعلونه من خير أو شر، وما سيكون منهم من هداية أو ضلال، وسجّل ذلك كله في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥].

فالقضاء هو: (علم الله المحيط بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم الحساب والجزاء).

والقدر هو: (وقوع الحوادث في الأزمنة والأشخاص طبقاً لما في علم الله جلّت حكمته).

ومعنى الإيمان بهما هو: الاعتقاد بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر واقع حسب تقدير الله تعالى وعلمه.

ومما يجدر التنبيه عليه أن علم الله بما سيقع من عباده ووقوعه منهم حسب هذا العلم والتقدير، لا يعني أن العباد مجبرون في أفعالهم، ملزمون بالإتيان بها وإلا بطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والوعد والوعيد، بل الإنسان هو الذي يخط أفعاله بنفسه متخذاً الطريق الذي يراه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

أما أصول الإسلام عند أهل السنّة فهي ما وردت في الحديث الشريف: «**بُنِيَ الإسلام على خمس:**

١ ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

٢ ـ إقام الصلاة.

٣ ـ إيتاء الزكاة.

٤ ـ صوم رمضان.

٥ ـ حج البيت لمَن استطاع إليه سبيلاً»[1].

٢ ـ الشيعة الإمامية

اتفق جمهور الشيعة الإمامية الإثنى عشرية على أن أصول الدين خمسة وهي:

١ ـ التوحيد.

٢ ـ العدل.

٣ ـ النبوة.

٤ ـ الإمامة.

٥ ـ المعاد.

الأصل الأول: التوحيد:

وهو الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، وللتوحيد أربعة أقسام:

(١) متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان/ اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيخان ص٣ ـ ٤.

١ ـ توحيده في الذات، وهو الاعتقاد بأن الله سبحانه لا شريك له في وجوب الوجود لذاته.

٢ ـ توحيده في الصفات، وهو الاعتقاد بأنه لا نظير له في صفاته، وأنها عين الذات.

٣ ـ توحيده في الربوبية والفعل، وهو الاعتقاد بأن لا مؤثر في الوجود إلا الله، فهو الخالق والرازق والمحيي والمميت... إلخ.

٤ ـ توحيده في الألوهية والعبادة، وهو أن يعبد وحده ولا يشرك بعبادته أحد ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

الأصل الثاني: العدل:

العدل في اللغة ضد الظلم، ويرادفه في ذلك الحق، والإنصاف، وقد فسّر الظلم في اللغة بعدة معان، منها وضع الشيء في غير محله، ومنها انتقاص الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً.

أما الظلم في الاصطلاح الشرعي فقد فسره الشيخ الطبرسي عند تفسير الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠] بما نصه: (إن الظلم هو الألم الذي لا نفع فيه يوفي عليه، ولا دفع مضرة أعظم منه عاجلاً ولا آجلاً، ولا يكون مستحقاً، ولا واقعاً على وجه الموافقة، وأصله وضع الشيء في غير موضعه، وقيل أصله الانتقاص من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ فالظلم على هذا انتقاص الحق، إلى أن قال: (وإنما لا يختار الله الظلم ولا يجوز عليه الظلم، لأنه عالِم بقبحه مستغنٍ عنه، وعالم بغناه عنه، وإنما يختار القبيح مَن يختاره لجهله بقبحه أو لحاجته إليه لدفع ضرر، أو لجر نفع، أو لجهله باستغنائه عنه، والله تعالى منزَّه عن جميع ذلك وعن سائر صفات النقص والعجز)[1].

الأصل الثالث: النبوة:

النبوة وظيفة إلهية يخص الله بها مَن يشاء من عباده، وهي لطف من الله بعباده. والمقصود باللطف هنا هو ما يكون معه العبد أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية،

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص٤٨.

والرسول يحقق تلك الفائدة، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] فلا بد والحالة هذه من أن يرسل إليهم رسولاً ليبين لهم الأحكام، ويعرِّفهم الحلال من الحرام، ويقيم الحدود، وينتصف للمظلوم من الظالم، ويحكم بين الناس بالعدل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ [النساء: ١٦٥].

والواجب على المسلم هو الإيمان بجميع رسل الله ـ في الجملة ـ والإيمان بنبوة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم خاصة إذ هو المعتبر أصل من أصول الدين الإسلامي.

الأصل الرابع: الإمامة:

وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي، ويعتقد الشيعة أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار مَن يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فكذلك يختار للإمامة مَن يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصِّبه إماماً للناس من بعده، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبي مبلِّغ عن الله، والإمام مبلِّغ عن النبي[1].

الأصل الخامس: المعاد:

ومعناه أن يعيد الله الخلائق بعد الموت إلى الحياة لتجزى كل نفس بما تسعى، ويجب على المسلم أن يعتقد بأن الله يعيد الخلائق بعد الموت بأجسامهم وأرواحهم وعلى صورهم التي كانوا عليها في دار الدنيا للحساب والجزاء. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨][2].

٣ ـ المعتزلة

اتفق المعتزلة على أن أصول الدين خمسة وهي:

---

(١) أصل الشيعة وأصولها ص٩٨ للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.

(٢) انظر هذه الأصول في كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحِلّي. وعقائد الإمامية للزنجاني.

١ ـ التوحيد.

٢ ـ العدل.

٣ ـ المنزلة بين المنزلتين.

٤ ـ الوعد والوعيد.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

الأصل الأول: التوحيد:

وهو إنكار التعدد والاعتقاد بأن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه، والإقرار به، ولذلك اشتدوا في حربهم للثَّنَوية من الفُرس القائلين بمبدأين هما النور والظلمة، كما أنكروا الصفات القديمة الزائدة على الذات فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة[٢].

الأصل الثاني: العدل:

ومعناه أن الله عادل، وأن عدله ـ ما دام قد كلّف الإنسان ـ أن يجعل له قدرة وإرادة بحيث يكون الإنسان هو المحدث لأفعاله المسؤول عنها ولا يكون لله دخل في ذلك، وهذا الأصل موجّه ضد الجَبْرية القائلين بأن الله خالق كل شيء وفاعل كل شيء بما في ذلك أفعال الإنسان. بحيث يكون الإنسان مجبراً كأي شيء في الطبيعة.

الأصل الثالث: المنزلة بين المنزلتين:

ومعناه أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً كما تقول المُرْجِئة، وليس كافراً كما يقول الخوارج، وإنما هو في منزلة بين الكفر والإيمان، وهي منزلة الفسق.

الأصل الرابع: الوعد والوعيد:

ومعناه أن الله سيفعل ما وعد به وتوعد عليه، فقد وعد سبحانه المطيعين بالثواب، وتوعد العُصاة بالعقاب.

---

(١) انظر هذه الأصول في شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار بن أحمد.

(٢) انظر الملل والنحل ج١ ص٤٤ للشهْرَستاني، ومذاهب الإسلاميين ج١ ص٤٧، ٥٨ للدكتور عبدالرحمٰن بدوي.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والمقصود بالأمر بالمعروف: إيقاع المعروف. وبالنهي عن المنكر: زوال المنكر، وهذا الأصل يقضي بمجاهدة كل مَن خالف حكم الله أو أمره ونهيه.

❊ ❊ ❊

أصول الدين التي أجمع عليها المسلمون

تبيّن ـ مما مر ـ أن أصول الدين التي أجمع عليها المسلمون على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، والتي لا يكون إيمان بدونها، ثلاثة:

١ ـ الاعتقاد ـ إجمالاً ـ بوجود الله، وبجميع صفاته الثبوتية الراجعة إلى أنه متصف بجميع صفات الكمال، وبجميع صفاته السَّلْبية الراجعة إلى تنزُّهه عن جميع صفات النقص، ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً.

٢ ـ الاعتقاد بنبوة محمد ﷺ، وأنه صادق فيما بلّغه عن ربه إجمالاً.

٣ ـ الاعتقاد بالبعث والحساب وبالثواب والعقاب.

ويشترط في الإيمان عدم إنكار ما علم من الدين بالضرورة كالإيمان بالملائكة والكتب السماوية، والرسل السابقين، والصلاة والزكاة والحج... وما إلى ذلك من فروض الدين التي ثبتت بالدليل القطعي من الكتاب والسنّة، فإن هذه الأمور يشترط عدم إنكارها في الإيمان والإسلام، لا الاعتقاد بخصوص كل منها، وإنما جعلت هذه الأمور شرطاً في الإيمان والإسلام لثبوتها بالدليل القطعي، ولأن إنكارها يتنافى مع تصديق النبي ﷺ وصحة شريعته الذي هو معتبر في الإيمان.

وجملة القول: أنه يعتبر مؤمناً ومسلماً كل مَن دان بهذه الأصول الثلاثة وصدّق إجمالاً بكل ما جاء به الرسول الكريم ﷺ، ولم ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة. ويعتبر كافراً كل مَن لم يعتقد بأحد هذه الأصول، أو أنكر ضرورياً من ضروريات الدين، وذلك يتصور على وجوه:

١ ـ أن يُنكِر قبول ما علمه بواسطة الضرورة من الدين.

٢ ـ أن يُنكر أنه مما جاء به النبي ﷺ.

٣ ـ أن يُنكر أنه على وفق الحكمة والمصلحة.

❊ ❊ ❊

الأصول المختلف فيها

كانت تلك أصول الدين المجمع عليها، أمّا ما ذُكر من أصول غيرها فلا تخلو إما أن تكون راجعة إلى تلكم الأصول، ولكن بعض الفرق جعلتها أصولاً مستقلة إما لاعتبارات خاصة بها، وإما لورود دليل لديهم ينص على استقلاليتها وعدم اندراجها تحت أصل آخر.

فمثلاً الإيمان بالملائكة، والكتب السماوية، والرسل التي هي أصول مستقلة عند أهل السنّة يمكن اندراجها تحت الإيمان بالرسول ﷺ لأنها مما جاء به، وأخبر عنه فقد عرفت أن الإيمان بها شرط لتحقق الإيمان والإسلام عند جميع الفرق الإسلامية، وأن منكر ذلك وغيره مما علم من الدين بالضرورة[1] يعتبر كافراً بإجماع المسلمين، لأن إنكاره يستلزم إنكار نبوة محمد ﷺ والقرآن الذي أُنزل عليه.

وأما الإيمان بالقدر خيره وشره فهو أصل مذهبي عند أهل السنّة موجّه ضد الجهمية القائلين بالجَبْر المطلق، والمعتزلة القائلين بالتفويض (الإرادة الإنسانية الحرة)، والشيعة القائلين بأمر بين الأمرين.

والعدل الإلهي الذي هو أصل مستقل عند كل من الشيعة والمعتزلة مندرج تحت الأصل الأول (التوحيد) فقد عرفنا أنه يجب على المؤمن الاعتقاد بوجود الله، وبأنه متصف بجميع صفات الكمال التي منها العدل، وبأنه منزّه عن جميع صفات النقص التي منها الظلم.

وأما الوعد والوعيد الذي هو أصل مستقل عند المعتزلة فيمكن إرجاعه إلى العدل الذي هو صفة كمال لله ـ تعالى ـ ذلك لأن الوعد والوعيد (كلام في أنه تعالى إذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، فلا بد من أن يفعل ولا يخلف في وعده ولا في وعيده، ومن العدل أن لا يخلف ولا يكذب)[2].

---

(١) الضروري في اللغة بمعنى البديهي، وأما في الاصطلاح فقد عرّفه بعضهم بما لا يشتبه على أحد من أهل الدين. وبعض: بأنه ما لا تخفى شرعيته على مَن يتديّن بالدين. وثالث: بأنه ما كان ضروري الصدور عن النبي ﷺ والضروري قد يحصل من التواتر المفيد للعلم، وقد يحصل من التسامع والتظافر كما في أخبار وجود البلدان، أو من القرائن المفيدة للقطع، ولا فرق في ضروري الدين بين أن يكون أمراً عقائدياً، أو عملياً كالصلاة، فإن كلا الأمرين يوجب إنكاره الكفر والخروج من الدين.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص١٢٣ للقاضي عبدالجبار.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي اعتبره المعتزلة أصلاً مستقلاً فهو مما علم ضرورة من الدين، وقد عرفنا أن عدم إنكار ذلك شرط في تحقق الإسلام والإيمان عند جميع المذاهب، فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأما السنّة فقول الرسول ﷺ: «**ليس لعين ترى الله يُعْصى أن تطرِف حتى تغير أو تنتقل**».

وأما الإجماع فلا إشكال فيه، لأن المسلمين متفقون على ذلك.

وأما المنزلة بين المنزلتين فهو أصل مذهبي عند المعتزلة ومعناه أن لمرتكب الكبيرة اسماً بين الاسمين وحكماً بين الحكمين. وهو موجه ضد الخوارج الذين قالوا بكفره، والمرجئة الذين قالوا بإيمانه.

والإمامة (كما عليه محققو الشيعة الإمامية ليست من أصول الدين، أي أركان الإيمان، ولا من أصول الإسلام، وإنما هي أصل مذهبي من أصول مذهب التشيُّع، بمعنى أن مَن أنكرها لا يكون شيعياً ـ لا أنه لا يكون مؤمناً ولا مسلماً)[1].

❊ ❊ ❊

الأصل الديني والأصل المذهبي

تبيّن لنا أن من أصول العقيدة ما هو أصل ديني بمعنى أنه معلوم عند أتباع الدين جميعاً كالتوحيد، والنبوة...

ومنها ما هو أصل مذهبي بمعنى أنه معلوم عند جميع أهل مذهب من المذاهب الإسلامية كالإيمان بالقدر عند جمهور أهل السنّة، والمنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة، والإمامة عند جمهور الشيعة الإمامية.

والفرق بين الأصل الديني والأصل المذهبي هو:

أن الأصل الديني: ما يستلزم إنكاره الكفر والخروج من الدين. والأصل المذهبي: ما يستلزم إنكاره الخروج من المذهب، لا الكفر والخروج من الدين، إلا

---

(١) أصول الدين الإسلامي ص٢٥ للشيخ محمد علي ناصر، والإسلام والخلافة لنا ص٤٨، ٥٥.

إذا كان معتقداً بصحة صدوره عن النبي ﷺ، لأن إنكاره له حينئذ يكون إنكاراً لأصلٍ ديني. وهو يستلزم الكفر والخروج من الدين.

وبهذا نأتي على نهاية الفصل الأول: وهو بحوث ممهدة لدراسة أصول الدين الإسلامي، وسنخصص بعد ذلك لكل أصل من تلكم الأصول المجمع عليها فصلاً خاصاً به نتناوله بشيء من التفصيل.. على النحو الآتي:

الفصل الثاني: في الإلهيات.

الفصل الثالث: في النبوة.

الفصل الرابع: في اليوم الآخر.




الفصل الثاني

الإلَهيات

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: وجود الله وصفاته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وجود الله جلّ جلاله.

المطلب الثاني: الصفات الإلهية وهي:

١ ـ الصفة النفسية.

٢ ـ الصفات السلبية.

٣ ـ صفات المعاني.

المبحث الثاني: ما يترتب على الإيمان بالصفات الإلهية، وفيه مطالب:

المطلب الأول: ما يستحيل في حقه تعالى.

المطلب الثاني: ما يجوز في حقه تعالى... الرؤية.

المطلب الثالث: القضاء والقدر.








الإلهيات

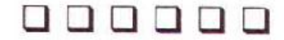
الإيمان بالله سبحانه وتعالى ووحدانيته، الركن الأول من أركان الإسلام وأساس مسائل العقيدة جميعاً.

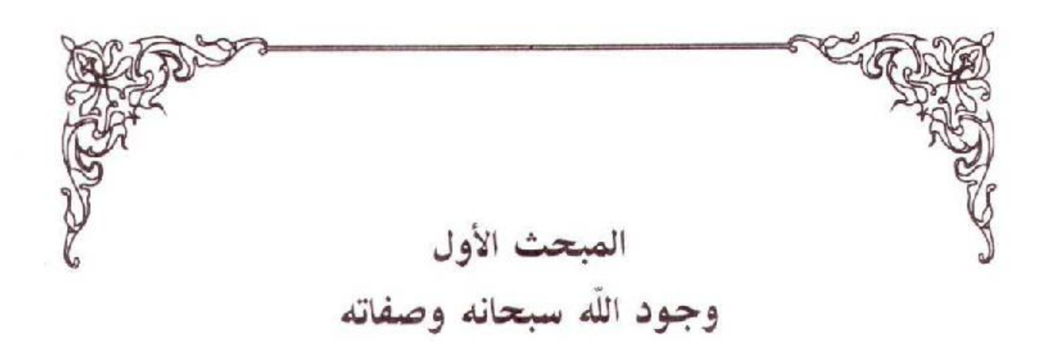
لذلك فإنا سنبحث هنا مسألة وجود الله وصفاته، وما يترتب عليها من أمور الاعتقاد، وسنقتصر في دراستنا هذه على ما يجب أن يعلمه الدارس من حقائق مهمة، متخذين طريقين ينتهيان بالباحث إلى اليقين الذي لا مِرَاء فيه:

أولهما: النقل من القرآن الكريم الذي ثبت وصوله إلينا من الله تعالى عن طريق الوحي إلى الرسول ﷺ. والأدلة القاطعة في ذلك مثْبَتَة في الكلام عن الوحي وإعجاز القرآن في هذا الكتاب.

والنقل من السنة النبوية الثابتة عن الرسول ﷺ الصحيحة، معرضين عن الأحاديث التي فيها جرح أو ضعف.

وثانيهما: النظر العقلي السليم، إذ هو أساس بناء صرح العقيدة الإسلامية. وبذلك تتركز العقيدة الإسلامية في النفس على بناء متين مقام ببراهين يقينية لا تقبل الجدل.





المبحث الأول
وجود الله سبحانه وصفاته

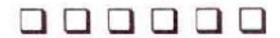
المطلب الأول
وجود الله جلّ جلاله

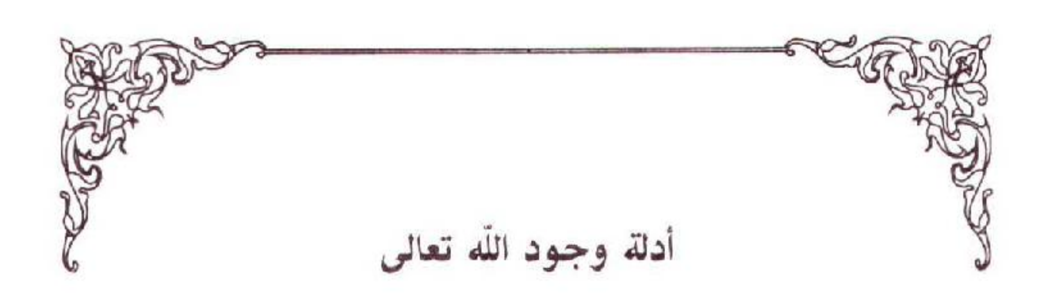
شغلت مسألة وجود الله تعالى الفكر الإنساني قديماً وحديثاً، فتمخّض عن ذلك إيمان جمهور الناس بوجود الله سبحانه، بعد أن حكّموا عقولهم، وجنّبوها الهوى والشطَط، فنظروا في الكون ودقائقه وأسراره.

وأنكره الضالُّون المُضِلُّون، مدّعين حرية العقل، لأن الحواس لم تدركه، والغيب لا يعوَّل عليه في إثبات وجوده...

لذلك انبرى العلماء للمنكرين، فردوا عليهم، وجاؤوا بأدلة وافية نقلية وعقلية صريحة كثيرة، تُثبت للعاقل المتمحّص وجود الله تعالى، وأنه علة الكون.

وهذه الأدلة نذكر أهمها فيما يأتي:





أدلة وجود الله تعالى

استدل العلماء على وجود الله تعالى بأدلة كثيرة نذكر أهمها فيما يأتي:

الدليل الأول: دليل الحدوث

بنى المتكلمون هذا الدليل على المقدمتين الآتيتين:

المقدمة الأولى: العالَمُ حادث[1].

المقدمة الثانية: كل حادث لا بد له من مُحْدِث.

النتيجة: العالم لا بد له من مُحدِث يُحدثه، أي: يرجّح وجوده على عدمه، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولكي تظهر لنا صحة هذه النتيجة، علينا أن نقيم الدليل على صحة كل من المقدمتين السابقتين.

الدليل على أن العالَم حادث:

يمكن صياغة دليل حدوث العالم بالدليلين الآتيين:

أولهما: العالم متغير.

وكل متغير حادث.

---

(١) العالَم: هو كل ما عدا الله سبحانه وتعالى.
وسمي حادثاً، لأنه حدث وظهر بعد أن لم يكن، لعلة أوجدته.
فالحادث هو: ما كان معدوماً ثم وجد./ المسامرة لابن أبي شريف، شرح المسايَرة للكمال بن الهُمَام، مطبعة الاستقامة بمصر ص١٧.

فالعالم حادث.

ثانيهما: العالم متركّب من جواهر[1] وأعراض[2].

وكل من الجواهر والأعراض متغير.

فالعالم متغير.

والأعراض حادثة بدليل:

أ ـ مشاهدة تغيرها من وجود إلى عدم، ومن عدم إلى وجود، ومن سكون إلى حركة، ومن حركة إلى سكون. والتغير علامة الحدوث.

ب ـ احتياجها إلى مخَصِّص بوقت حدوثها، دون ما قبله وما بعده، فلا بد من مرجح لوقوعها في ذلك الوقت، لأن الترجيح من دون مرجِّحٍ محال.

جـ ـ افتقارها إلى جسم يقوم بها.

والجواهر حادثة أيضاً، وذلك:

لأنها ملازمة للأعراض لا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة والسكون والألوان، والأعراض حادثة كما تقدم، وملازِم الحادث حادث.

فإذا ثبت أنَّ الجواهر والأعراض حادثة، لزِم أن يكونَ العالَمُ المكوَّنُ منهما حادثاً.

وبذلك تسلم لنا المقدمة الأولى وهي (العالم حادث).

الدليل على أنَّ كل حادث لا بد له من مُحْدِث:

هو: أنه لو حدث حادث بلا مُحْدِث، للزم أن يترجح وجوده على عدمه بلا مرجح، وهو مستحيل بالبداهة[3].

ومعنى الرجحان بدون مرجح هو: أن يكون الشيء جارياً على نسقٍ معين، ثم

---

(١) الجوهر: هو ما قام بنفسه.

(٢) العَرَض: هو ما قام بغيره كالألوان والحركة والسكون.
فالحجر جوهر وعَرَض، فمادته جوهر، وألوانه أو حركته أو سكونه عَرَض.

(٣) انظر هذا الدليل في: المواقف للعَضُد وحاشية السيد الشريف الجُرْجاني عليه، إستانبول سنة ١٢٨٦هـ، ص٤٦٦ والمسامرة على المسايرة ص١٧ ـ ٢١ وحاشية قاسم بن قُطْلُوبُغَا على المسايرة ص١٨ ـ ١٩ والعقائد العَضدية وحاشية المَرْجاني، والجَلال الدَّوَّاني عليها، والكلَنْبَوي على الدواني ـ إستانبول سنة ١٣١٦هـ، جـ١ ص٢٢٦ ـ ٢٢٩ وشرح الدَّرْدِير على الخَريدة البهيّة وحاشية الصاوي عليه ص٤٦ ـ ٤٩ و٥٥، والرازي مُفسِّراً للدكتور محسن عبدالحميد ص٢٨٢.

يتغير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير.

وهذا واضح البطلان، لأن جميع العقلاء يعلمون أن لا بد لتحويل الشيء عن حاله السابقة من مُحَوِّل ومؤثِّر، يفرض عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة.

فإنّك لو تركتَ كفَّتَيْ ميزان متساويتين، لا ثقل في إحداهما، وزعمت أنّ إحداهما قد ترجحت، دون مؤثر خارجي، كنفخة هواء أو حجر... ولو زعمت للناس أنّ جهاز المذياع أوصل إليك أخبار العالم، دون أن تدير صمّامه، لضحكوا منك وأشفقوا عليك.

وعلى ذلك نقول: كان العدم هو المنبسط محل العالم قبل وجوده، فالعدم أرجح من الوجود لسبقه، ولكن حين خلق هذا العالم ترجح وجوده على العدم، فالوجود والعدم أمران متساويان، وترجيح أحد الأمرين المتساويين على الآخر بلا مرجح مستحيل وباطل بالبداهة.

فالقول بأن العدم قد تحوَّل إلى وجودِ العالم دون مسبب لهذا الوجود، باطلٌ ومستحيل استحالة دعوى صاحب الميزان والمذياع[1].

وبذلك تسلم لنا المقدمة الثانية وهي: (أن كل حادث لا بد له من مُحْدِث).

❋ ❋ ❋

الدليل الثاني: دليل الوجوب

موجد هذا الكون إما أن يكون: واجباً أو مستحيلاً أو ممكناً. لأن كلَّ أمر لا بد أن يتصف بواحد من الأمور الثلاثة السابقة ولا رابع لها، لأنها أقسام الحكم العقلي[2].

---

(١) كبرى اليقينات الكونية سنة ١٣٩٠هـ ص٨١ و٨٣.

(٢) الحكم: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، بواسطة: الشرع أو العادة أو العقل. فهو ثلاثة أقسام:

١ ـ الحكم الشرعي: «وسيلة إثباته الشرع» كإثبات الوجوب للصلاة.

٢ ـ الحكم العادي: «وسيلة إثباته العادة والتجربة» كإثبات الإحراق للنار.

٣ ـ الحكم العقلي: «وسيلة إثباته العقل» كإثبات الزوجية للعدد (٢) و(٤)... والحكم العقلي هو عمدة دراستنا في العقائد.

الحكم العقلي: =

١ ـ فلا يجوز أن يكونَ موجد العالم مستحيلاً.

لأن المستحيل لا يُتَصَوَّرُ وجوده مطلقاً، فهو عدم محض، فلا يمكن أن يوجد غيره، إذ أن (فاقد الشيء لا يعطيه)، فكيف يكون المستحيل مصدراً للوجود؟

٢ ـ كما لا يجوز أن يكون موجد العالم ممكناً:

لأن الممكن لا يوجد إلا إذا وجد سبب وجوده، وهذا السبب إن كان ممكناً فعندئذ يحتاج إلى سبب آخر... إلخ وهكذا. وهذا يلزم منه الدور أو التسلسل، كلاهما باطل ـ كما سيأتي بيانه بعد قليل ـ، فما أدى إليهما فهو باطل. فلزم إلاّ يكون موجد الكون ممكناً.

٣ ـ ولما ثبت أن موجد العالم ليس بمستحيل ولا بممكن، وجب أن يكون موجد العالم واجب الوجود[(١)]، فلا يحتاج وجوده إلى سبب، بل هو علة العلل وسبب وجود العالم[(٢)].

معنى الدَّوْر ودليل بطلانه:

الدَّوْر: هو أن يكون شيئان كلٌّ منهما علة للآخر[(٣)].

= ينقسم إلى ثلاثة أقسام: (١) واجب (٢) مستحيل (٣) ممكن (جائز).

١ ـ **الواجب**: وهو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء، أو هو ما لا يتصور في العقل عدمه.

كوجوب القدرة لله تعالى، وكوجوب الزوجية للعدد (٤).

٢ ـ **المستحيل**: هو المنفي الذي لا يقبل الثبوت، فلا يمكن وجوده، ولا يتصور حدوثه مطلقاً، أو هو ما لا يتصور في العقل وجوده.

كأثبات شريك لله، وكتقدم الابن على أبيه في الوجود.

٣ ـ **الممكن «الجائز»**: هو الذي يقبل الثبوت تارة والنفي تارة أخرى على التعاقب، أي: يمكن وجوده إذا وجد السبب الذي يرجح وجوده، وهو ما يصح في العقل وجوده وعدمه على السواء، ولا يوجد إلا بمرجح.

كوجود الجنة الآن، وكوجودك الآن في هذه الغرفة، الباجوري على السّنوسية ص١٠ ـ ١٤ والمعتقد المنتقد ص١٣ ـ ١٥.

(١) معنى واجب الوجود: هو أنه لا يجوز عليه العدم، فلا يقبل العدم أزلاً وأبداً. انظر: شرح الخريدة للدردير ص٥٥ والباجوري في شرح الجواهر ج١ ص٤٧.

(٢) انظر: المواقف وشرحه للسيد الشريف ص٤٦٦ وحاشية الدَّوَّاني والكَلَنْبَوي عليه ج١ ص٢٢٧ والرازي مفسراً ص٢٨٢ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٤٧ ـ ٤٨.

(٣) المواقف ص١٧٧.

كقولك: زيد أوجد عَمْراً، وعَمْروٌ أوجدَ زيداً.

فكل من زيد وعمرو، يتوقف وجود أحدهما على الآخر. وهو الدور الباطل[1]، وكل منهما يظل معدوماً حتى يأتي مؤثر خارجي.

وسبب بطلان الدور:

هو أن يسلتزم أن يكونَ كل واحد منهما، سابقاً صاحبه، متأخراً عنه، في وقت واحد. وهذا يعني استلزام تقدم الشيء على نفسه، وهو تناقض[2].

فعمرو يتوقف على زيد، وزيد يتوقف على عَمْرو. وهذا يعني أن عَمْراً متوقف على عَمْرو، بعد حذف الحد الأوسط (زيد).

وهذا يستلزم تقدم الشيء على نفسه، أي: يلزم أن يتقدم عمرو على عمرو، لأنه خالق ومخلوق أو سابق ومسبوق، فيلزم أن يكون عمرو موجوداً قبل أن يوجد، وهذا باطل.

ومثال بطلان الدور:

وجود البيض متوقف على وجود الدجاج، ووجود الدجاج متوقف على وجود البيض. فلو فرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلا عن هذا الطريق فإن من البدهي أن كلاً من الأمرين يظلان معدومَين، حتى يأتي مؤثر خارجي، يوجد البيض ويوجد الدجاج، فينتهي الدور عندئذ.

فإذا قيل:

إنّ سببَ حدوثِ العالم هو: التفاعل الذاتي المجرد في الموجودات، بتأثير الضغط والحرارة والبرودة بمرور الزمان.

أجيب:

أن هذا هو الدور الباطل، لأنه يعني: أنّ وجود العالم متوقف على بعضه

---

(١) الدور باطل سواء كان:

من مرتبة واحدة: «ويسمى الدور المصرّح» كما يتوقف أ على ب وبالعكس.

أو من مراتب متعددة: «ويسمى الدور المضمَر» كما يتوقف أ على ب وب على جـ وجـ على أ.

انظر: التعريفات للسيد الشريف الجُرْجَاني طبعة مصر سنة ١٩٣٨ ص٩٤ كلمة (الدور). وبهذا المعنى مقاصد الطالبين وشرحه لسعد الدين التفتازاني طبعة إستانبول سنة ١٣٠٥هـ جـ١ ص١٦٤.

(٢) المواقف ص١٧٧ والمقاصد جـ١ ص١٦٤ والدّرْدِير على الخَريدة ص٦١ والباجوري على الجوهرة جـ١ ص٤٨ والوسيلة في شرح الفضيلة للشيخ عبدالكريم بيارة ـ طبعة بغداد سنة ١٩٧٢ ص٤٦١.

(الضغط والحرارة والبرودة..)، وبعضه متوقف في وجوده على العالم، وهذا يعني: تقدم الشيء على نفسه، وهو باطل كما تقدم[1].

معنى التسلسل ودليل بطلانه:

التسلسل: هو أن يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه، وتستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة فيها، وهلم جرا إلى ما لا نهاية[2].

فالتسلسل يعني: أنّ المخلوقات متوالدة عن بعضها، إلى ما لا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله، وعلةً لما بعده، دون أن تنبع هذه السلسلة من علة واجبة الوجود[3].

دليل بطلان التسلسل:

١ ـ أنه يؤدي إلى وجود آلهة لا نهاية لها، كلٌّ منها متصف بالحدوث والافتقار والعجز، وهو باطل، لأنه منافٍ لمقام الألوهية من القدرة والغنى المطلق، إذ العاجز الفقير لا يَصِحُّ أن يكون خالقاً للعالَم البديع الإتقان[4].

٢ ـ التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة، ذلك لأن هناك مخلوقات انقرضت. فلو صحّ أنّ الموجودات تتسلسل إلى ما لا نهاية ـ بأن تكون كلُّ حلقةٍ فيها معلولاً لما قبلها، وعلةً تامةً لما بعدها ـ لما انقرضت هذه الموجودات، لأن الحلقةَ الأخيرةَ فيها معلولة فقط، وليست بعلة كسابقتها[5].

٣ ـ برهان التطبيق وهو أشهر أدلة المتكلمين وهو:

أنك لو فرضت سلسلتين، وجعلتَ إحداهما من الآن إلى ما لا نهاية.

والأخرى من الطوفان إلى ما لا نهاية.

وطبقت بينهما بأن قابلتَ بين أفرادهما من أوّلهما.

فكلما طرحتَ من الآنيّة (نسبة إلى الآن، أي: الوقت الحاضر) حلقة واحدة،

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص٨٩ ـ ٩٠.

(٢) المواقف ص١٧٩.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ص٨٤.

(٤) الدردير على الخريدة ص٦١.

(٥) كبرى اليقينيات الكونية ص٨٤ وما بعدها. وانظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين للأستاذ الشيخ مصطفى صبري ج٢ ص١٨٢.

طرحت في مقابلتها من الطوفانية (نسبة إلى الطوفان) واحدة وهكذا. . .

فلا يخلو:

إما أن يفرغا معاً، فيكون كل منهما له نهاية، وهو خلاف الفرض.

وإن لم يفرغا ـ كما فرضنا ـ لزم مساواةُ الناقصِ للكاملِ، وهو باطل.

وإن فرغت الطوفانية دون الآنية، كانت الطوفانية متناهية، والآنية أيضاً كذلك، لأنها إنما زادت على الطوفانية بقدر متناهٍ وهو ما من الطوفان إلى الآن، ومن المعلوم أن الزائدَ على شيءٍ مُتنَاهٍ بقدر متناه يكون متناهياً بالضرورة[1].

ومثال بطلان التسلسل:

أ ـ إذا رأيت رقماً حسابياً طويلاً، يتراصف إلى جانبه عدد كبير من الأصفار، فإنَّكَ تسرع لتنظر قبل كل شيء إلى الرقم العددي الأول، وما لم تقع عيناك على ذلك الرقم، فإنك لا تعطي قيمة للأصفار الكثيرة، ما لم تستند إلى رقم ذاتي قبلها، لأن الرقم الذي يملك قيمة ذاتية في داخله، هو الذي يضفي الحياة والقيمة على الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه، فسلسلةُ الأصفار التي لم تنتهِ إلى رقم عددي هي خالية عن أية قيمة، وافتراض التسلسل اللانهائي فيها لا يخلق لها أية قيمة.

ب ـ لو ادعيتُ أمامك حقيقةً علمية، وحين سألتني عن الدليل أَجَبْتُك ببرهان يتوقف على برهان آخر. وحين سألتني عن برهان أجبتك ببرهان يتوقف على برهان آخر. . . وهكذا، فإنك تكذبني في دعواي، بل تكذبُ وجودَها أصلاً.

فكل من هذه البراهين المتسلسلة، التي فرضنا أنه لا نهاية لها، ليست إلا ظلالاً تنتظر أصلها الأول. فإن لم يوجد ذلك الأصل، فهذه الظلال نفسها غير موجودة، ومن ثم فإن الحقيقة المدعاة أيضاً تكون غير موجودة.

وإذا بطل الدور والتسلسل، بطل ما أدّى إليهما، وهو كونُ موجد العالم ممكناً، وعندئذ وجب أن يكونَ الموجدُ واجبَ الوجود. ولا يخرج عن هذين الدليلين الدليل الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب، وهو أقوى الأدلة وأبسطها لديهم، المسمى ببرهان الخلْق، أو الدليل الكوني[2].

---

(1) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٤٨ وانظر: المواقف ص١٧٩ وما بعدها. والمقاصد ج١ ص١٦٥ وما بعدها. والوسيلة ص٤٦١ ـ ٤٦٥.

(2) وملخص هذا الدليل: هو أنّ الموجودات لا بد لها من موجد، لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره، ويرى غيره هذا يتوقف على موجود آخر، دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته. =

الدليل الثالث: البرهان العلمي
دليل العناية والاختراع

وهذا الدليل هو أجلى الأدلة على وجود الله تعالى وأوضحها. وهو الذي ذكره ابن رشد في مناهج الأدلة باسم العناية والاختراع، وذكر أنه يمكن أن يتخذه:

أ ـ الجمهور طريقاً لإثبات وجود الله تعالى، فيقتصرون منه على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على الحس.

ب ـ والعلماء، فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان.

وهذا الدليل هو الذي نبّه عليه القرآن الكريم، واعتمده الصحابة ﷺ. وبيانه فيما يأتي:

الأول: دليل العناية:

وهذا يظهر في العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله. ويبنى على أصلين:

أ ـ إن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان.

ب ـ إن هذه الموافقة هي (ضرورة) من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق.

والموافقة تحصل باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الزمان والمكان الذي هو فيه أيضاً، والحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والنار والهواء...

وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان. أي: كونها موافقة لحياته ووجوده.

= انظر الكلام عن هذا الدليل في (الله) للعقاد ص١٩٢ ـ ١٩٣ وعَرض لأحد طرقه وهو: دليل الحركة (برهان المحرّك الذي لا يتحرك) وفحواه: أن المتحرك لا بد له من محرك، وأن هذا المحرك لا بد أن يستمد الحركة من غيره، وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرك واحد، لا تجوز عليه الحركة، لأنه قائم بغير حدود من المكان أو الزمان. وهذا هو الله.

وانظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية د. عرفان ص١٧٤ وما بعدها، وعرض لطريقتين من طرقه الخمسة المشهورة التي لخّصها القديس توما الأكويني وهما: برهان الحركة، وبرهان الإمكان والوجوب.

ومن آيات القرآن الكريم التي بيّنت هذا الدليل:

أ ـ قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١].

ب ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦].

جـ ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

الثاني: دليل الاختراع:

وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات. كاختراع الحياة في البحار، والإدراكات الحسية، والعقل.

ويدخل فيه: وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات. وهذا الدليل يبنى على أصلين موجودين بالقوة في جميع فِطَرِ الناس هما:

أ ـ أن هذه الموجودات مخترَعة، فإنّا نرى أجساماً جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أن ههنا موجِداً للحياة ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالى.

وأمّا السماوات، فنعلم من قِبَلِ حركتها التي لا تفتر، أنها مأمورة بالعناية بما ههنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

ب ـ أن كل مخترَع فله مخترِع، فعلى مَن أراد معرفة الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن مَن لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق: ٥ ـ ٦].

وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧].

وأما الآيات القرآنية التي تجمع بين هذين الدليلين فمنها:

أ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

فقوله: خلقكم والذين من قبلكم: تنبيه على دلالة الاختراع.

وقوله: الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً: تنبيه على دلالة العناية.

ب ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١][1].

والدليل العلمي هو الذي أكد عليه العلماء في العصر الحاضر خاصة، بعد أن اتسع نطاقُ العلم، وظهرت المخترعاتُ الحديثة التي كانت سبباً في استكشاف آفاق الفضاء، والوقوف على أسرار الطبيعة، ومعرفة خفاياها، مما دعا رجال العلم في مختلف ميادينه، أن يتحدثوا بقدرة الله تعالى وإبداعه وعظمته وحيرة العقل الإنساني أمام تلك الأسرار في كل مخلوق.

وما نذكره هنا من نظرات في بعض ميادين العلم، ووقوف العلماء على بعض أسرار الكون، ما هي إلا مفتاح للذهن، يدفعه للتفكير في أمر هذا الكون المترامي الأطراف، ولا ريب فإن كل جزئية فيه ناطقة بربوبية (خالقية) الله تعالى ووحدانيته:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ ... تدل على أنَّهُ واحدُ

ومن هذه الأمثلة:

١ ـ النجوم عبارة عن كتل ملتهبة بعيدة عن الأرض.

فأقرب نجم إلينا يساوي أربع سنوات وربع من السنين الضوئية[2].

وألمع نجم نراه في السماء هو نجم الشِّعْرَى اليمانية، والذي عبده فريق من

---

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة لأبي رشد تحقيق د. محمود قاسم طبعة ٣ سنة ١٩٦٩ ص١٥١ ـ ١٥٥ ونقله الدكتور عرفان عبدالحميد في دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، مطبعة الإرشاد، بغداد سنة ١٩٦٧ ص١٦٥ ـ ١٦٩.

(٢) السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة واحدة وذلك نحو ستة ملايين مليون ميل علماً بأن الضوء يسير مقدار (١٨٦) ألف ميل بالثانية الواحدة.

العرب قبل الإسلام، يبعد عنا ثماني سنوات ونصف من السنين الضوئية[1].

وأعلن الفلكيون مؤخراً عن رصدهم نجماً يبعد عنا إثني عشر ونصف بليون (والبليون يساوي مليون مليون) سنة ضوئية[2].

ودرجات حرارة سطوحها متفاوتة، لذا اختلفت ألوانها من أحمر داكن إلى أحمر فاتح إلى برتقالي إلى أصفر إلى أبيض إلى أزرق، فالنجوم الزرقاء تصل درجة حرارة سطحها عشرات الألوف من الدرجات.

ودرجة حرارة سطح نجم الشِّعْرَى اليمانية تبلغ أحد عشر ألف درجة مئوية.

أما حجومها، فمنها ما يقدّر بحجم الشمس، ومنها ما ينقص عنها أو يزيد عليها بعشرات أو مئات بل آلاف وملايين المرات.

٢ ـ المجرات: يقول الأستاذ (جامو) أن (هبل) مدير مرصد مونت ولسن، نظر بمرصده إلى مسافة تقرب من (٥٠٠) مليون سنة ضوئية، وأحصى من المجرات الخارجية نحو ١٠٠ مليون مجرة، وأنه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أعظم لم يشاهدها هبل. ويقول: إن مجرتنا يبلغ قطرها مئة ألف سنة ضوئية، وسمكها عشرة آلاف سنة ضوئية، وهي تجري بسرعة عظيمة جداً.

٣ ـ يتمدد الفضاء بشكل عظيم. وقدروه ـ كما يقول السير جيمس جينز ـ بنحو مائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة، لكل بُعْدٍ قدرُهُ مليون سنة ضوئية[3].

٤ ـ جميع الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية، تجري بفلك معين، لا يحيد عن مداره، فإن حاد قليلاً اختلّ التوازن، فارتطم الكوكب بالآخر وزالت الحياة.

ومجموعتنا الشمسية واحدة من مجاميع شمسية لا تُحصر، منتشرة في الكون.

٥ ـ وشمسنا هذه يبلغ حجمها نحو مليون وثلثمائة قدر حجم الأرض: وهي كتلة من صخور، ومعادن سائلة، وغازات محترقة، تبلغ درجة حرارة سطحها ستة آلاف درجة مئوية، ودرجة حرارة مركزها تبلغ عشرين مليون درجة مئوية.

وطاقتها الحرارية ـ ومثلها النجوم المشعة ـ ناتجة عن تفاعلات نووية حرارية

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ـ للأستاذ حنفي أحمد ـ دار المعارف بمصر، ص٥٦ و٥٩ و٦٢.

(٢) النشرة الفلكية الإخبارية من مديرية الرعاية العلمية ـ بغداد.

(٣) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٥٦ ـ ٦٩.

تحدث في مراكزها، حين تتحطم الذرة في باطن الشمس، تحت وطأة الحرارة العالية جداً[1].

ويبلغ لسان اللهيب ١٤٠٠٠كم في الأحوال العادية، أما في الانفجارات المستمرة فيبلغ بُعْدُ قذائفها آلاف الأميال.

٦ ـ يجري القمر في فلكه بمقدار ٢٣٠٠ ميل بالساعة، ويلف حول نفسه مرةً في كل دورة في فلكه شهرياً، ولذلك يواجه الأرضَ بجانب واحد دائماً، فنرى أوجه الضياء المختلفة، من هلال إلى بدر وبالعكس[2].

والقمر تابع للأرض، يبعد عنها ٢٨٦ ألف ميل، فلو بَعُدَ عنها ٥٠ ألف ميل، لغطى الماء في المدّ الأرض كلها، ويكون عمقه بمعدل ميل ونصف، والمد في الهواء يُحدث الأعاصير كل يوم... إلخ. لأن جاذبية القمر ـ في الوضع الحالي ـ تجذب مياه المحيط إلى ستين قدماً في بعض الأماكن، وتحني قشرة الأرض مرتين نحو الخارج يومياً، مسافة عدة بوصات[3].

٧ ـ تدور الأرض حول الشمس بسرعة ١٨,٥ ميل في الثانية تقريباً، في فلك طوله ٦٠٠ مليون ميل.

وتدور الأرض حول نفسها بسرعة قدرها (١٠٠٠) ميل بالساعة (أي مرة كل ٢٤ ساعة).

فلو فرضنا أنها تدور حول نفسها بمعدل (١٠٠) ميل بالساعة، فعندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات، فتحرق الشمس النباتات نهاراً وتتجمد ليلاً.

ولو فرضنا أنها تدور حول الشمس بسرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً، لكان قربنا وبُعدنا عن الشمس يجعل حياتنا مستحيلة[4].

٨ ـ ولو كانت قشرة الأرض أسمك عشرة أقدام، لنفد الأوكسجين، وانعدمت الحياة.

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٦٥ و٧٣ و٧٥ و٨٥ والعلم يدعو للإيمان كريسي موريسون طبعة ٤ ص٥٥. ومع الله في السماء ص١٤٦.

(٢) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٦٧ ـ ٦٨.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص٥٧ ـ ٥٨.

(٤) التفسير العلمي للآيات الكونية ص٦٧ والعلم يدعو للإيمان ص٥٥.

ولو كانت البحار أعمق بضعة أقدام مما هي عليه الآن، لانجذب الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون فاستحالت الحياة.

ولو كان جو الأرض أرق مما هو عليه، لتهاوت النيازك فأحرقت الأرض[١]، لأن النيازك والشهب تتهاوى في كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، وهي تسير بسرعة ستة أميال إلى أربعين ميلاً في الثانية، فلو لم يكن ذلك مانعاً لأحرقت الأرض ومَن فيها، إذ أن الإنسان إنِ اصطدم بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزّقه إرْباً من مجرد حرارة مروره[٢].

٩ - والماء الذي يكوّن ٤/٥ الكرة الأرضية، يتكون من غاز: ذرتين هيدروجين وذرة أوكسجين H_2O، والهواء يتكون من عناصر، بنسب معينة عظيمة الأهمية للحياة، إذا اختلت لم تستقم الحياة.

١٠ - وملح الطعام الذي تستحيل حياة الإنسان بدونه، يتكون من أخطر عنصرين، هما: الصوديوم الذي يدخل في تركيب المتفجرات، والكلور الغاز الخانق القاتل $NaCl$.

١١ - إذا نظرت في المجهر إلى قطرة من المياه الآسنة، تجد عالماً من الأحياء فيه العجائب[٣].

١٢ - الزنبور حين يصيد الجُنْدُب، يخدِّره، فيحمله ليتغذى به صغاره حين يولدون[٤].

١٣ - عش بعض العناكب يكون على شكل منطاد تحت الماء، ينفخ بفقاعات الماء التي تحملها في شعر تحت جسمها، وعندئذ تلد صغارها، لا يؤثر عليها هبوب الرياح[٥].

١٤ - يطير الخفاش - وهو الضعيف البصر - ليلاً، ولا يصطدم بحاجز، لأنه يرسل اهتزازات ترجع إليه إذا اصطدمت بجسم أمامه، فيحس به دون أن يراه، وهذا شبيه بالرادار[٦].

---

(١) الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان، القاهرة طبعة ٤ سنة ١٩٧٣ ص٥٩.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص٦٥.

(٣) هذه من الأمور الأولية التي يدرسها الطلاب في علم الكيمياء.

(٤) الله - سعيد حوى، طبعة ٣ سنة ١٩٧٢ ص٧٦.

(٥) العلم يدعو للإيمان ص١١٩.

(٦) الله - سعيد حوى ص٩٨.

١٥ ـ لو أن ذبابتين توالدتا، ولم يأتِ الموت عليهما وعلى أولادهما، فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية، ارتفاعها ٥سم. وهذا جنس واحد، فكيف بالمخلوقات جميعاً، إذا لم يأتِ عليها الموت[١]؟

١٦ ـ والإنسان ذلك اللغز المحيّر للعقل، يتكون من عناصر تساوي: برميلاً صغيراً من الماء، مع عناصر معدنية تكون مسماراً صغيراً، ورأس عود ثقاب من الكبريت، وكمية من الكلس يمكن أن يُطلى بها جدار، وعناصر أخرى قليلة جداً لا تساوي قيمتها نصف دينار، والسر لا يكمن في نوعية المواد، وإنما يكمن في تركيبها، وتكوين ذرات الخلية، ثم التركيبات الحيوية المتولدة في الجسم[٢].

فالإنسان يتم سماعه بدخول الصوت إلى الصيوان، ثم إلى داخل الأذن، ويمر بجزء فيه ٤٠٠٠ خلية (قوس)، تشبه سُلّماً موسيقياً، تنقل إلى المخ بشكل ما[٣]، أما كيف يحصل فهم المسموع؟ وكيف يتم تمييز الأصوات العديدة جداً عن بعضها البعض؟ وأين تقع خزائن الذاكرة للمسموعات. . .؟ فهذه لم يتوصل إليها[٤].

وهكذا في بقية الحواس الأخرى.

في جسم الإنسان ألف مليون مليون خلية، ويستهلك الجسم من خلاياه حوالي ١٢٥ مليون خلية في الثانية الواحدة. وعدد خلايا الجملة العصبية المركزية (المخ والمخيخ والجذع الدماغي) يقدر بحوالي ١٤ مليار (المليار يساوي ألف مليون) خلية عصبية، تسيطر على نشاط البدن وفعاليته، ويكمن فيها النشاط الفكري والشخصية الإنسانية[٥].

بصمة الأصبع لأي شخص امرأة أو طفل أو رجل، لا تشبه بصمة أي شخص آخر. ولذا تتخذ التحقيقات الجنائية بصمات الأصابع دليلاً على كشف هوية المجرمين.

أما العمليات المحيرة الدقيقة التي تجري في البصر، وسائر الحواس، والتخلق الإنساني، وتكون الخلايا، ووزارات الجسم وغيرها، فإنه ليعجز عن وصفها القلم،

---

(١) المصدر السابق ص٩٢.

(٢) الطب محراب الإيمان ص٥٩.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص١١٩.

(٤) الطب محراب الإيمان للدكتور خالص كنجو، مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧١ ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٥) الطب محراب الإيمان ص٩٤ وما بعدها وص٤٠ ـ ٤٢.

وكلها ألغاز محيِّرة وأسرار مدهشة، بقي الكثير منها طي الكتمان، حتى يحين الوقت لكشف شيء منه.

وإذا أردت أن تحيط بطرفٍ منها، فعليك بالكتاب الجليل (الطب محراب الإيمان) للطبيب خالص كنجو، الذي أعده لنيل رسالة الدكتوراه في الطب، بإشراف الدكتور محمد فايز المط، الأستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق. فإنه خير كتاب متيسر في هذا الباب.

وبعد هذا نقول: هذه أمثلة يسيرة[١] مما ذكره العلماء من نظرات في أرجاء هذا الكون الفسيح، الذي يقف أمامها الإنسان مشدوهاً حائراً، يتساءل فيه: مَن دبّره؟ ومَن كوّنه؟ ومَن سيّره على هذا الشكل البديع المتناسق، الذي يكشف العلم يوماً بعد آخر عجائب هذا النظام الذي يجري عليه هذا الكون؟ أهذا من صنع الإنسان الذي يعجز عن أن يدفع عنه المكروه، ويعجز عن أن يغير ما في الطبيعة من ظروف قاهرة كالمطر والفيضان والرياح... إلخ.

إن العاقل لَيدرك أن تآلف هذه الجزئيات على هذا النحو، الذي تتجلى فيه صورة الحياة، واستمرار هذا التآلف والحياة مدى الأزمان، لا يتخلف ولا يتريث، لم يكن من صنع الطبيعة الصماء العمياء.

إن التفسير الحقيقي لهذا النظام، هو أن نؤمن بقدرة خارقة، وقوة جبارة، وعظمة إلهية، بسطت يديها، فسيرت الكون على النحو العجيب الذي نراه.

ودليل العناية والاختراع هو الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب باسم الدليل الغائي أو برهان الغاية، الذي يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق. وهذه المخلوقات تدل على قصد في تكوينها، وحكمة في تسييرها وتدبيرها، فالنظام والقصد والانسجام والحكمة الظاهرة في الطبيعة ومظاهرها المختلفة المتنوعة، طريق ظاهرة لإثبات وجود الله تعالى[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر أمثلة أخرى في: الكتب التي أشرنا إليها، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم ـ لجماعة من العلماء، ومع الله في السماء للدكتور أحمد زكي، والإنسان ذلك المجهول للدكتور ألكسيس كارل، وكتب عبدالرزاق نوفل، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر، والطريق إلى النجوم لفان درويت وللي ترجمة الدكتور عمر فروخ، والنجوم في مسالكها للدكتور جينز.

(٢) الله ـ العقاد ١٩٦ ـ ١٩٧ ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية د. عرفان ص١٧٩.

الدليل الرابع: الدليل الوجودي

ويسمى برهان الاستعلاء والاستكمال، أو برهان المثل الأعلى.

وقد صاغه القديس أنْسْلِم في صورته الأولى، وقد صدر عن مبدأ معترَف به من المؤمنين والملحدين جميعاً، وهو: أن فكرة الإله موجودة في العقول، فالملحدون لا يجحدون تصورهم للألوهية، وإنما يجحدون وجود الإله.

ونقح هذا الدليل اللاحقون بانسلم، حتى بلغ كماله في فلسفة ديكارت، وأوشك أن ينسب إليه، وفحواه في صورته الجامعة:

أن العقل الإنساني كلما تصور شيئاً عظيماً، تصور ما هو أعظم منه، لأن الوقوف عند مرتبة قاصرة يحتاج إلى سبب، والعقل الإنساني لا يعرف سبب القصور، فما من شيء كامل إلا والعقل الإنساني متطلع إلى أكمل منه، ثم أكمل منه، إلى نهاية النهايات، وهي غاية الكمال المطلق التي لا مزيد عليها ولا نقص فيها. وهذا الموجود الكامل موجود لا محالة، لأن وجوده في التصور أقل من وجوده في الحقيقة، فهو في الحقيقة موجود، لأن الكمال المطلق ينتفي عنه بسبب عدم وجوده، ولا يبقى له شيء من الكمال، بل نقص مطلق، هو عدم الوجود. فمجرد تصور هذا الكمال مثبت لوجوده[1].

* * *

الدليل الخامس: الدليل الأخلاقي

وقد صاغ هذا الدليل الفيلسوف الألماني كنت. وصورته هي:

أن علامة الوازع الأخلاقي، أو علامة الواجب، أو علامة الضمير، لا توجد في النفس الإنسانية بغير وجود إله، إذ كيف يدين الإنسان نفسه بالحق، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجود؟ وكيف تقر في طبع الإنسان، أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبّب إليه، وإن لم يطلع على دخيلة سره أحد؟

---

(١) الله ـ العقاد ص٢٠٠ وانظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية وقد عرض لرأي أنسلم وديكارت وسبينوزا وآراء غيرهم فيه ص١٧٠ ـ ١٧٤.

فإن قيل: إن العادة الاجتماعية هي التي رسخت في النفس، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة، أجيب:

بأنّ معرفة السبب لا تقضي بإبطال الغاية أو بفقدان الحكمة، فنحن نعلم أنّ القطار يتحرك بغليان المرجل فيه. وأن المهندس قد مد قضبانه لأنه يكافأ على مدها بأجر يحتاج إليه. وأن نُظّار المحطات يسيِّرون حركة القطار، لأنهم مجزيون على ذلك، أو معاقبون على إهماله.

ولكن ذلك كله لا يبطل الغاية، ولا يقضي بمسير القطار لغير حكمة، وقيام العمل كله بغير تدبير[1].

* * *

المصادفة

قالوا: إن المصادفة هي التي أوجدت، ودبرت ما في الكون على هذا الشكل.

والجواب: لا بد من التفريق بين أمرين:

أولهما: خلق الشيء: وفكرة المصادفة تستبعد منه، لأنه يؤدي إلى الدور الباطل كما تقدم.

ثانيهما: ترتيب الشيء وتركيبه: وهي محل النظر والبحث.

صيغة قانون المصادفة الحرفية هي:

(أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص، بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المزدحمة).

لكن تطبيق هذا القانون، إنما يتم على المادة غير الحية، فدراسة الاحتمال على ضغط غاز في وعاء أو خليط من غازات قد يصح، ولكن على الخلية والأحياء الأخرى فإنه يقف، لأن الترابط في الخلية مع ظاهرة الحياة مُعْجِز ومحيِّر، إلى حد يجعل هذا القانون غير ساري المفعول في هذا المجال[2].

ولكي نفهم هذا القانون وعدم سريانه لا بد من أمثلة منها:

---

(١) انظر (الله) للعقاد ص٢٠٠ ـ ٢٠١ وانظر تفصيل هذا القول في دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص١٨٣ ـ ١٨٦.

(٢) الطب محراب الإيمان ص١٤.

١ ـ يقول الأستاذ كريسي موريسون: ضع عشرة بنسات مرقمة من ١ ـ ١٠ في كيس وابدأ بسحبها، ترى أن:

فرصة سحب رقم ١ هي بنسبة ١ إلى ١٠، لأن كل رقم قد يكون له الحظ بالسحب.

وفرصة سحب رقم ١ و٢ متتابعين هي بنسبة ١ إلى ١٠٠.

وفرصة سحب رقم ١ و٢ و٣ متتابعات هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠.

وفرصة سحب رقم ١ و٢ و٣ و٤ متتالية هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠٠.

وهكذا... حتى تصبح فرصة سحب الأرقام من ١ إلى ١٠ متوالية، هي بنسبة ١ إلى ١٠ مليارات[١].

٢ ـ لو فرضنا أنك تملك عدداً هائلاً من الحروف، إذا حاولتَ آلاف المرات سحب حرف بعد حرف من هذه المجاميع الكبيرة، وسطّرتها واحداً بعد الآخر، فهل يظهر لك، مهما كررت عملية السحب ديوان المتنبي أو إلياذة هوميروس أو القرآن الكريم...؟

٣ ـ يقول الأستاذ فرانك ألن: البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية. تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت.

ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠,٠٠٠ ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصراً، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة، لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين، يمكن حسابه، لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُخلط خلطاً مستمراً، لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة، لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جيداً، فوجد:

أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد، إلا بنسبة ١ إلى $(١٠)^{١٦٠}$ (أي بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة) وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص٥١، والمصدر السابق ص١٥.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة مدة $(١٠)^{٢٤٣}$ (أي عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين).

وقد حسب العالم الإنجليزي ج.ب ليثز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة البروتينات فوجد أن عددها $(١٠)^{٤٨}$.

وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً. ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميوية عديمة الحياة. ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب، الذي لا ندري من كنهه شيئاً، إنه العقل اللانهائي وهو الله وحده[(١)].

٤ ـ يقول العالم جون كليفلاند كوثران: وقد أثبت اكتشاف تركيب الذرة، أن التفاعلات الكيمياوية التي نشاهدها، والخواص التي نلاحظها، ترجع إلى وجود قوانين خاصة، وليست محض مصادفة عمياء...

ومع ما يبدو من التعقيد في تركيب كل ذرة من ذرات العناصر العديدة، فإنها

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة الدكتور الدمرداش ط٣ سنة ١٩٦٨ ص٩ ـ ١٠.

وقال الأستاذ ليثز في خطاب الرئاسة السنوي بقسم الفزيولوجي في جامعة أكسفورد ١٩٣٦ ما فحواه: إن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات، وإن كل حلقة منها هي تركيبة من ذرات، قوامها حمض من الأحماض النوشادرية، وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين، ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب، ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف. فهل تستطيع أن تتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألوفة؟

يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال، أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة، لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات، فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لإضعاف ذلك التكرار، ثم لا نشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير، فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة في التوثيق والتركيب.

يقول الأستاذ ليثز لتقريب هذا الخيال:

إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلاثمائة ألف سنة، فإذا أردنا أن نشبّه إصابة الخلية في تركيبها بمَثَل مفهوم، فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض، فتصيب هدفاً في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط، وليست بضع مئات./ الله للعقاد ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

تتكون جميعاً من نفس الأنواع الثلاثة من الجزيئات الكهربية، وهي البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة والنيترونات، والتي يعتبر كل منها ناشئاً عن اتحاد بروتون واحد مع إلكترون واحد. وجميع البروتونات والنيترونات التي بالذرة تقع في نواة مركزية، أمّا الإلكترونات فإنها تدور حول محاورها، في مدارات مختلفة حول النواة، وعلى أبعاد شاسعة منها، مكوِّنة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة. وعلى ذلك فإن معظم حجم الذرة، يعتبر فراغاً، كما هي الحال في المجموعة الشمسية.

والفرق بين ذرة عنصر معين وعنصر آخر، يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيترونات التي بالنواة، وإلى عدد وطريقة تنظيم الإلكترونات التي في خارج النواة[١].

ويقول العلماء بأن الإلكترون يدور حول البروتون بسرعة ١ من ١٠٠ من سرعة الضوء، ولكن لا يمكن بالضبط معرفة أين يوجد الإلكترون في لحظة معينة؟

ومن ناحية الوزن:

فوزن البروتون: هو جزء من مليون مليار مليار من الغرام تقريباً.

ووزن النيترون: يقترب بالوزن من البروتون.

أما وزن الإلكترون: فإن البروتون يساوي ١٨٣٧ مرة وزن الإلكترون.

أما من ناحية الأبعاد:

فالذرة تشبه شكلاً كروياً يساوي قطرها جزءاً من مئة مليون من السنتمتر. وقطر النواة أصغر من الذرة بعشرة آلاف مرة.

فهناك فراغ هائل بين البروتونات والإلكترونات، يدعو إلى الدهشة والحيرة، ولو أن عشرة ملايين ذرة اجتمع بعضها بجانب بعض، فإنها تبلغ طولاً قدره مليمتر واحد.

والغرام الواحد من الهيدروجين فيه ٦٠٠ ألف مليار مليار ذرة[٢].

٥ ـ يقول الدكتور واين أولت: هل تم اختراع جهاز الراديو نتيجة للمصادفة أم عن طريق التصميم والاختراع؟

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الطب محراب الإيمان ص٣٥ وما بعدها، وانظر هناك الكلام عن الذرة وبنائها ووزنها وأبعادها وأسرارها المدهشة.

ثم هل تمّ تكوين جهاز الرادار الموجود بجسم الوطواط، والذي لا يحتاج من الحيوان إلى انتباه ولا يتطلب منه إصلاحاً، والذي يستطيع أن يورثه لذريته عبر الأجيال؟ نقول: هل تم كل ذلك عن طريق المصادفة، أم عن طريق التصميم والإبداع؟ إن الخبرة العلمية للإنسان تقوم على التصميم وعلى إدراك الأسباب، وعلى ذلك فإن المشتغل بالعلوم: هو أول مَن يجب عليه التسليم منطقياً بوجود عقل مبدع، لا حدود لعلمه أو قدرته، موجود في كل مكان، يحيط مخلوقاته برعايته[1]. ولذلك:

قال الرياضي الكبير جوزيف برترند: إن المصادفة ليس لها وجدان ولا ذاكرة[2].

وقال بول كلارنس أبرسولد أن هذا النظام الرائع المعقول، الذي يسود هذا الكون، يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان[3].

وقال أحد كبار علماء الطبيعة: إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق، والقول بأنها حدثت (اتفاقاً) إنما يعتبر تحدياً وتصادماً مع الرياضيات[4].

وقال شادفاش: أن من الممكن أن نسأل أيّ رجل مؤمناً بالله كان أو منكراً له، نسأله أن يثبت، كيف يمكن أن يكون هذا التوازن في صالحه، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة[5]؟

وقد اعتبر أفلاطون من أوائل الفلاسفة القائلين بوجود الله تعالى، وبأنه الخالق للعالم، والمدبر لأمره. وبرهن على ذلك بعدة براهين أهمها: برهان النظام، حيث قال:

إن العالم آية في الجمال والنظام. ولا يمكن أبداً أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقية (مصادفة)، بل هو صنع عاقل كامل، توخى الخير، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة[6].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص١٣٢.
(٢) الطب محراب الإيمان ص١٤.
(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص٣٨.
(٤) الإسلام يتحدى ص٦٠.
(٥) المصدر السابق ص٥٦.
(٦) قصة الإيمان ـ نديم الجسر ص٤٠.
وانظر: الأديان ـ د. رشدي عليان وسعدون الساموك ص٧٧.
ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص١٨٠ نقلاً عن قصة الإيمان.

وقد تناقلت وكالات الأنباء ومنها وكالة تاس السوفيتية سنة ١٩٥٩ ما يأتي:

أعلن الكسندر أوبارين رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا، بعد أن ظل يبحث (٣٧) عاماً في أصل الحياة، وعما إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيمياوي قائلاً: (إن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو أن تتوالد من التفاعل الكيمياوي والتوالد الذاتي، وأن العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة)[١].

وبعد هذا كله نقول:

بعد أن انتفت المصادفة في خلق هذا الكون وترتيب مخلوقاته، وبعد إقامة الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ومدبر أمره، ثبت بالدليل العقلي والعلمي الذي لا يقبل الريب، أن الله تعالى واجب الوجود وأنه علة الكون ومبدأ المخلوقات.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* * *

لا محل للإلحاد في الذهن المتفتح

قال الدكتور جون كليفلاند كوثران:

قال لورد كيلفي ـ وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم ـ هذه العبارة القيّمة: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله)، ولا بد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة[٢].

ويقول الفيلسوف الإنجليزي بيكون:

---

(١) كبرى اليقينيات ص١٣١.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص٢١ وقريب من هذا ما قاله العالم الطبيعي (أوليفر وندل) ص٥٢.

(إن قليلاً من الفلسفة يقرّبُ الإنسان من الإلحاد، أما التعمُّق في الفلسفة فيرده إلى الدين)[1].

وقال الدكتور وتز عميد كلية الطب بباريس وعضو أكاديمية العلوم وكيميائي: (إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت، وجّهتُ وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها).

وقال باسكال:

(صنفان فقط من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء: الذين يعرفون الله، والذين يَجِدُّون في البحث عنه، لأنهم لا يعرفونه).

وقال أنشتاين:

(إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية).

وقال أيضاً:

(إن الإيمان بلا علم، لَيَمشي مشية الأعرج. وإن العلم بلا إيمان، ليتلمس تلمُّس الأعمى).

وقال أدمون هربرت، وهو جيولوجي ذائع الصيت، ومدرس بجامعة السوربون:

(العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر، ولا إلى المادية، ولا يفضي إلى التشكيك)[2].

هذا هو الصواب، لأن الحق لا ينطلي على العلماء المتنورين، الذين يدركون الأدلة التي ذكرناها آنفاً، والتي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى.

أما الذين ينكرون وجود الله، بحجة أنهم لم يدركوه، بحواسهم، فهؤلاء يتصورون بأن الحواس هي طريق المعرفة.

إن واقعهم يكذبهم فهم:

يؤمنون بالجاذبية والمغناطيسية والكهربائية، وبوجود الإلكترون والبروتون والنيترون وبالعقل، ولم يروا شيئاً منها، بل رأوا آثارها فقط.

فمَن أنكر وجود الله تعالى بحجة أنه لم يره، وآمن بما ذكرتُ، فما هو إلا

---

(١) المصدر السابق ص٣٥.

(٢) الطب محراب الإيمان ص٢٥٧. وروح الدين الإسلامي لطبارة ص٦١.

مخادع لنفسه، لأن العقل هو الذي أدرك هذه الأمور وغيرها وليست الحواس، لأنها خادعة أحياناً، وما الحواس إلا آلات أعطت العقل أدوات الحكم ليُصدر حكمه.

***

خداع الحواس

لا يمكن الاعتماد على الحواس، لأنها تخدع صاحبها في كثير من الأحيان. وأمثلة ذلك كثيرة منها:

خداع البصر:

١ - العصا المستقيمة المغمورة في الماء تبدو للناظر مكسورة.

٢ - لا ترى العين الزجاجة الصافية، مع أنها موجودة منظورة.

٣ - لا ترى العين سطور الكتابة، التي قربت إليها تقريباً شديداً.

٤ - يقول علماء النفس: إنك لو أدمتَ النظر إلى نقطة في حائط، وبعدها نظرتَ إلى حائط آخر، ترى النقطة نفسها فيه، مع أنها لا وجود لها في الحائط الثاني.

٥ - يرى المريض أشباحاً لا يراها غيره.

خداع الأذن:

١ - لا تسمع الأذن الأصوات الخافتة، كما لا تسمع الأصوات الشديدة، كصوت الأجرام السماوية، ومثلها تفجر القنابل الذرية التي لا تسمع الأذن منها إلا الصيحة الأولى، أما الانفجارات التي تليها، فلا تسمعها الأذن، مع أن آلات التسجيل تسجل أرقاماً عالية جداً، وذلك لأن أوتار كورتي في الأذن، تسمع ذبذبة معينة محدودة، لا تسمع ما دونها، ولا ما فوقها.

٢ - يسمع المريض أصواتاً لا يسمعها غيره.

خداع اللمس:

لو وضعت في ثلاث أوانٍ ماءً حاراً ودافئاً وبارداً، ونقلت يدك من الحار إلى الدافىء، تجده بارداً. وإذا نقلتها من الدافىء إلى البارد، تحسه بارداً جداً، وهذا من خداع اللمس.

خداع الذوق:

١ ـ هناك مواد عديمة الذوق، فلا تعمل فيها الحاسة.

٢ ـ إذا تذوقت مادة شديدة الحلاوة، ثم انتقلت بعدها إلى مادة أقل حلاوة من الأولى، تجدها خالية من الحلاوة.

٣ ـ المريض يحس الماء العذب مرّاً.

٤ ـ لا تستطيع حاستا اللمس والذوق معرفة الحوامض والمركبات الكيمياوية المحرقة[1].

هذه الأمثلة وغيرها تبيّن لنا أن الحواس كثيراً ما تخدع، فلا يصح الاعتماد عليها في كشف الحقائق، لذلك كان العقل هو الحاكم على الحواس.

وهذه أدوات لا غير.

فكيف يمكن القول: بأن الله سبحانه لم يدرك بالحواس، فلا ينبغي الإيمان به؟ هذا لا يقوله إلا جاهل لا يملك مسحة من العقل.

* * *

سبب الإلحاد

الاعتقاد بوجود الله تعالى، هو اعتقاد الفطرة التي فطر الناس عليها، وهو أساس كل جزئية يشتمل عليها الدين الإسلامي.

أما الإلحاد فهو طارىء على الفطرة، وقد حدّد القرآن الكريم أسبابه، بما يأتي:

١ ـ الكبر:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٢].

ففي الآية بيان: أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى تصور الحياة هي كل شيء، وليس وراءها إلا العدم.

---

(١) نداء الروح ـ فاضل السامرائي، بغداد ـ المطبعة الإسلامية ص٢٣ ـ ٢٧.

٢ ـ الانحراف:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

ففي الآية بيان: أن طريق فرعون طريق خاطيء، دفعه إليه انحرافه عن الطريق السوي، الذي يعرف به الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ الظلم:

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٣].

فكلمة (بظلمهم) تبين أن الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب، هو الظلم، ظلم النفوس للحق، إذ تعرفه وتتنكر له.

وهذا الظلمْ (غير العدل) هو الذي دفع الكفار إلى اتهام المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون وكاذبون وعاطفيون... وهذا ما نراه اليوم من اتهاماتهم بأنهم: غير علميين، غير صادقين، مشوشون، مخدوعون.

٤ ـ الجهل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

ففي الآية بيان أنّ هذا القول كلام جهال غير عالمين، وأنه ليس بجديد، بل هو منطق الكافرين دائماً، لتشابه قلوبهم، وقررت أن الطريق إلى الله هي آياته وآثاره الدالة عليه[١].

والعلم لم يدعُ في يوم ما إلى الكفر والإلحاد، لأنه يتبع المنهج السليم في الوصول إلى حقائق الوجود ومظاهر الكون، ولم يقل في يوم أن هذا النظام الذي يجري عليه العالم قد نشأ صدفة، لأن الصدفة فوضى. والعالِم الذي حلل في المختبر، أو عاش مع المنظار والمرصد، أو تعامل مع الأعداد... لا يعترف إلا

---

(١) الله: سعيد حوى طبعة ٣ ص١١ ـ ١٣.

بالنظام، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، ويقطع متيقناً بأن قوانين الطبيعة كالجاذبية والكهرباء، واللاسلكي . . . وغيرها من ملايين الصور، ما هي إلا آثار تدل على المؤثِّر وهو الله سبحانه وتعالى . . وقد أكد العلماء هذا الجانب بشكل جليّ .

يقول د. ماريت شانلي كونجدن، أحد كبار علماء الطبيعة في العالم: (إن جميع ما في الكون يشهد بوجود الله، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته).

وعندما كان أنشتاين جالساً في مكتبة الجامعة التي يدرس فيها، سأله صحفي: أمن العلم أن تؤمن بالله، وهذه العقيدة فكرة غيبية، غير خاضعة لمختبر العلم؟

فأجابه: أُنظر إلى هذه المكتبة بكتبها الملايين، أليس لكل كتاب مؤلف؟

قال: نعم.

قال: فإن دخل طفل إلى المكتبة، فهل يدرك ما في هذه الكتب من العلوم والمعارف؟

قال: لا.

قال: فهل يعرف مؤلفيها؟

قال: لا.

قال: فهل عدم إدراك الطفل للكتب ومؤلفيها، يقوم دليلاً علمياً على عدم وجودها؟

قال: لا.

قال: فكذلك الكون بما فيه من صور ومشاهد وقوانين. فإن عدم إدراك العقول السطحية الجاهلة التي لا تتأمل خالقه، لا يقوم دليلاً علمياً على نفي وجوده. ثم أخذ يشرح له دقة النظام الذي لاحظه في الوجود، مما لا يدع مجالاً للشك في وجود الله تعالى.

وقد يذهب البعض إلى القول بأن هذه نماذج من أقوال، لم تكن إلا من أنفار، لا يلتفت إليهم، إزاء الأعداد الكبيرة من الملحدين.

لكن الحق: أن السواد الأعظم من العلماء، يذهبون هذا المذهب، وأنهم أكدوا أن العلم هو طريق الإيمان، فقد نشر العالم الدكتور (دينرت) الألماني بحثاً، حلّل فيه آراء أكابر العلماء في القرون الأربعة الأخيرة، ودرس عقيدتهم فتبين له من دراسة (٢٩٠) عالماً أن:

٢٤٢ عالماً أعلنوا في كتبهم ودراساتهم الإيمان بالله.

و٢٨ عالماً لم يصلوا إلى عقيدة ما.

و٢٠ عالماً كانوا ملاحدة لم يبالوا بالناحية الدينية.

فهذا يعني أن ٩٢٪ منهم مؤمنون بالله تعالى.

ولك أن تراجع كتاب (الله بحث في نشأة العقيدة الإلهية) للعقاد، و(عقائد المفكرين في القرن العشرين) للعقاد أيضاً، و(العلم يدعو للإيمان) لكريسي موريسون، و(الله يتجلى في عصر العلم) لمجموعة من العلماء، و(قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر، لوجدت أسماء كثيرة جداً من العلماء الأعلام، يؤكدون عقيدة الإيمان بالله تعالى.

ثم إن كثيراً ممن اتهم بالإلحاد، لم يكن ملحداً حقاً بنظر العلم، وإنما هو ملحد بنظر الكنيسة التي كانت تحكم على مَن يخالفها بالإلحاد، فتولستوي مثلاً كان ملحداً في نظر الكنيسة، ولكنه مؤمن عميق الإيمان بالله تعالى، كما هو واضح في كتابه (اعترافات تولستوي).

والعلماء الذين كفروا بالله تعالى، لم يكن كفرهم نتيجة بحث علمي دقيق، وإنما كان لأمور منها:

أ ـ موقف الكنيسة التعسفي من العلماء وعدم تشجيعها الفكر الحر، إذ حكمت على المخالفين منهم بالكفر والزندقة، ونفذت بكل همجية حكم الإحراق والتمثيل والقتل بالعشرات منهم، وأحرقت كتبهم، وهددت بالقتل كل مَن وجدت بحوزته.

وفي كتاب (قصة النزاع بين الدين والفلسفة) للدكتور توفيق الطويل قوائم بأسماء العلماء الذين أُعدموا بهمجية تفوق الخيال، حتى استقر في ذهن بعض العلماء أن الدعوة إلى الإلحاد أمر ضروري لإنقاذ العلماء من تلك الوحشية.

والحقّ أن إلحاد هؤلاء لم يكن مبدأً، وإنما كان موقفاً اتخذوه أمام الكنيسة، حتى إذا زال ذلك الكابوس تراجعوا إلى القول بالإيمان، بدليل أن عدد المؤمنين بالله من العلماء الآن يتزايد يوماً بعد آخر.

ب ـ موقف الكنيسة الظالم من الكادحين والأرقاء والمظلومين، وكونها بجانب الملوك والمستبدين من الإقطاعيين، وكون البابوات هم أصحاب السلطة الحقيقية وأصحاب المال وأصحاب صكوك الغفران...

هذا الموقف دفع الكثير من المفكرين إلى الدعوة إلى نبذ الكنيسة، وإلى الإلحاد لإنقاذ المغلوب على أمرهم، مما يعانون به من شقاء وعنت.

ج ـ تغلغل اليهودية العالمية عن طريق الماسونية، التي كانت تتبنى الإلحاد لهدم

مقاومة المجتمع المسيحي والسيطرة عليه، وهذا الاتجاه الماسوني الملحد ظهر واضحاً في جماعة (الأنسكلوبيديا) وأتباعهم وتلامذتهم، وقد قامت الثورة الفرنسية على أكتاف هؤلاء.

د ـ الإلحاد في كل زمان ومكان طريق للإباحية والتملص من المثل العالية، لذلك كان ملاذ أصحاب الشهوات والمنحرفين عن الخلق الرفيع.

ومجمل القول:

فالإلحاد لم يكن موقفاً أصيلاً للعلم وإنما أحدثته ظروف خاصة، أمّا المنهج العلمي فهو منطلق الإيمان بالله ﷻ ومعرفته وتقديره حق قدره[1].

المطلب الثاني
الصفات الإلهية

قسم بعض علماء الكلام الصفات الإلهية إلى ما يأتي:

١ ـ **الصفة النفسية**: وهي الوجود.

٢ ـ **الصفات السلبية**: وهي خمس:

القدم، البقاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفس، والوحدانية.

٣ ـ **صفات المعاني**: وهي:

القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

واختلفوا في صفة التكوين، على ما سيأتي بيانه في محله[2].

---

(١) العلم ليس كافراً ـ د. محسن عبدالحميد نشر في مجلة التربية الإسلامية العدد الثالث سنة ١٩٧٣ ص٨ وما بعدها. ونشر أيضاً برسالة مستقلة. وانظر: إحصائية دينرت في كتاب روح الدين الإسلامي ص٦٠ لطبارة، والطب محراب الإيمان ص٢٥٦.

(٢) وهنالك قسم رابع هو: «الصفات المعنوية» وهي:
كونه تعالى: قديراً، مريداً، عالماً، حياً، سميعاً، بصيراً، متكلماً. وفيها خلاف بين العلماء لا نريد الدخول فيه. سوى أن نقول: إنها نتائج لصفات المعاني.
انظر هذا التقسيم في: شرح الخريدة البهيّة للدّرْدير أبي البركات وحاشية الصاوي عليها ـ مطبعة الاستقامة ص٥٨ وما بعدها، وفي شرح الباجوري على جوهرة التوحيد ـ مصر سنة ١٩٦٤ ج١ ص٤٧ وما بعدها، وفي رسالة في التوحيد والفِرَق المعاصرة ـ الشيخ كمال الدين الطائي. بغداد سنة ١٩٧٢ ص٢٤ وما بعدها.




١ ـ الصفة النفسية: (الوجود)

وجود الله ﷻ

عرّفها سعد الدين التَّفْتَازاني بأنها:

صفة ثبوتية، يدل الوصف بها على نفس الذات، دون معنى زائد عليها.

شرح التعريف:

صفة: جنس يدخل فيه سائر الصفات.

ثبوتية: نسبة إلى الثبوت، لكونها ثابتة في الذهن. فتخرج الصفات السلبية كالقدم والبقاء..

بها: أي بالمشتق منها، لا بها بنفسها، لعدم صحة ذلك، فنقول: الله موجود، ولا نقول: الله وجود.

على نفس الذات: أي أنها لا تدل على شيء زائد على الذات، فالذات نفسها لا تتعقل إلا بوجودها، ولذلك سميت نفسية. فتخرج صفات المعاني والمعنوية.

دون معنى زائد عليها: تفسير للقول (على نفس الذات)[١].

ووجود الله تعالى وجود كامل ذاتي، أي: أنه موجود لذاته، لا لعلة مؤثرة فيه. لأن من خصائص الذاتي: أنه لا يقبل العدم.

---

(١) شرح الدَّرْدِير على الخريدة وحاشية الصاوي عليه ص٥٨ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٤٩.

أما وجود غيره (كل ما سوى الله تعالى) فهو وجود ناقص تبعي، أي: أنه مستمد من غيره، ومتوقف على مَن أوجده. لأن من خصائص التبعي: أنه لا بد أن يقوم بين عدمين سابق ولاحق[1].

ومسألة وجود الله تعالى سبق الكلام عنها مفصلاً في المطلب الأول (وجود الله جلّ جلاله).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص١١٣.



٢ ـ الصفات السلبية

وهي خمس:

القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، القيام بالنفس، الوحدانية[١]. وليس المراد بكونها سلبية، أنها مسلوبة عن الله ومنفية عنه، وإلاّ لزم أن يثبت له الحدوث وطرو العدم ومماثلة الحوادث، بل المراد بكونها سلبية: أنّ كل واحدة سَلَبت (نفَت) أمراً لا يليق به جلّ وعز[٢].

فالقدم سلب لأوليّة الوجود، والبقاء سلب لآخريّة الوجود. . . وهكذا. والحق أن الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة، إذ من جملتها: أنه لا ولد له، ولا زوجة، ولا بسيطاً، ولا مركباً، ولا في مكان، ولا زمان، ولا جهة، وغير ذلك، وإنما اقتصر على هذه الخمسة، لأنها أمهاتها[٣].

وهذه الصفات لم يختلف بها العلماء، بل يتفق الجميع على القول بها.

١ ـ القِدَم:

القِدَم في حقه تعالى بمعنى الأزلية، التي هي كون وجوده غير مستفتح، فليس معناه تطاول الزمن، فإن ذلك وصف الحادثات[٤].

أو بعبارة أخرى:

---

(١) حصرها بهذا الصدد: الباجوري في شرح الجوهرة ج١ ص٥٠ والدّردير في شرح الخريدة، والصاوي عليه ص٥٨. والطائي في رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص٢٥.

(٢) الصاوي على الدردير ص٧٦.

(٣) المصدر السابق ص٦٠ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٠.

(٤) المسامرة على المسايرة ص٢٢.

معنى القدم: هو أنّ وجود الله غير مسبوق بالعدم، فالله ليس له بداية[1].

وضدّ القِدم: الحدوث.

الدليل العقلي على قدمه تعالى:

إن الله تعالى لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، إذ لا وسط بينهما. ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدِث يُحْدثه، ومحدِثه يحتاج إلى مُحدِث... وهكذا. فيلزم الدور أو التسلسل، وكلّ منهما محال، فوجب أن يكون قديماً[2].

الدليل النقلي على قدمه تعالى:

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ في الآية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

تصور صفة القدم:

من السهل على الإنسان أن يفهم صفة الرحمة والعدل والجلال... في ذات الله تعالى، لأنه يفهم آثارها، ويستطيع أن يدرك معانيها في الحياة بحواسه، إلا أنه يستحيل عليه أن يدرك صفة القدم أو صفة البقاء، لأنه لا يحتفظ بصورة لها في الحياة، لأنها خاصة بذات الله تعالى. لكن لا تعني الاستحالة الخيالية إنكار هاتين الصفتين، لأن العقل يجزم بثبوتهما ـ كما بيّنا ذلك في الدليل العقلي ـ.

فرُبّ أمرٍ يدرك العقل إمكانه أو وجوده، وهو في الوقت نفسه يعجز عن تصوره وإدراك كنهه، وقديماً قال الفلاسفة وعامة العقلاء: (عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع)[3].

٢ ـ البقاء:

ومعناه: أن الله تعالى أبدي، ليس لوجوده آخر، فيستحيل أن يلحقه العدم والفناء[4].

وضد البقاء: الفناء.

---

(١) المصدر السابق وشرح ابن قُطْلُوبُغَا على المسايَرة (بهامش المسامَرة) ص٢٢.

(٢) شرح المواقف ص٤٧٠ والمسامرة ص٢٢ وشرح الخريدة للدردير ص٦٠ ـ ٦١ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٠ والاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، بيروت سنة ١٩٦٩ ص٩٢.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ص١١٨ ـ ١١٩.

(٤) المسامَرة ص٢٤.

الدليل العقلي على بقائه تعالى:

١ ـ لو لم يكن الله تعالى باقياً، لكان فانياً،

ولو كان فانياً لكان حادثاً،

ولو كان حادثاً لاحتاج إلى مُحْدِث، ومحدثه يحتاج إلى محدث . . . وهكذا، فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبت بقاؤه تعالى.

٢ ـ لو جاز عليه تعالى العدم لاستحال عليه القدم، وهو باطل لثبوت قدمه تعالى(١).

٣ ـ لو جاز عدمه لاحتاج انعدامه بعد وجوده إلى علة؛ لاستحالة الترجيح بلا مرجح.

٤ ـ وإذا جاز انعدامه، فإما أن ينعدم:

أ ـ بنفسه (بأن يكون انعدامه أثراً لقدرته) وهو باطل، لأنه ثبت أنه علة وجود الموجودات، فلا يقبل الانتفاء بحال، فيلزم بقاؤه كما يلزم قدمه.

ب ـ بمعدم يضاده، وهو باطل أيضاً، لأن الضد إما:

١ ـ قديم: فيلزم انتفاء الباري سبحانه معه من الابتداء أصلاً، لأن التضاد يمنع الاجتماع بين الشيئين اللذين اتصفا به، وقد ثبت وجوده تعالى.

٢ ـ أو حادث: فيلزم اندفاع وجوده بمضاده القديم، لأن القديم أقوى من الحادث(٢).

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿ٱلْآخِرُ﴾ في الآية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

---

(١) الدَّرْدِير على الخريدة والصاوي عليه ص٦١.

(٢) المسامرة ص٢٤ ـ ٢٥ وانظر: الاقتصاد في الاعتقاد ص٩٢ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٥١، والمواقف ص٤٧٠.

٣ ـ المخالفة للحوادث:

معناها: أن الله تعالى ليس مماثلاً لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقاً. فهي عبارة عن:

سلب الجِرْمية، والعَرَضية، والكُلية، والجزئيّة[١]، ولوازمها عنه تعالى.

فلازم الجِرْمية هو التحيُّز، ولازم العَرَضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر[٢].

وضدها: المماثلة للحوادث.

الدليل العقلي على ذلك:

١ ـ أنه تعالى لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً لها، ولو كان مماثلاً للحوادث، لكان حادثاً مثلها، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث. . . وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبتت مخالفته للحوادث.

٢ ـ كل مَن وجب له القدم، استحال عليه العدم، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم، فلا شيء منها بقديم فثبتت المخالفة[٣].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ونفي المماثلة يفيد الأمور الآتية:

١ ـ أنه تعالى ليس بعرض، لما يأتي:

أ ـ لأن العَرَض يحتاج إلى جسم يقوم به، فيستحيل وجود العرض قبل الجسم، وقد ثبت أن الله موجده.

---

(١) أي ليس لله تعالى جِرماً ولا عرَضاً ولا كُلاً ولا جزءاً.

(٢) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٢.

(٣) المصدر السابق.

ب ـ لأن احتياجه إلى شيء يقوم به علامة الحدوث.

٢ ـ وليس بجوهر:

أ ـ لأنه ملازم للعرض، والعرض حادث، فيلزم حدوثه.

ب ـ لأنه يوهم التركيب والتحيُّز.

٣ ـ وليس بجسم:

لأن الجسم مؤلف من جواهر وأعراض، وقد أثبتنا حدوثهما فيما تقدم. وذلك خلافاً:

للمُجَسِّمَة الذين قالوا بأنه تعالى جسم حقيقة، لكنهم اختلفوا: فقال بعضهم: هو مركب من لحم ودم، وبعضهم: أنه نور يتلألأ كالسبيكة البيضاء، وبعضهم: على صورة إنسان شاب أمرد، وبعضهم: على صورة شيخ أشمط[١] الرأس واللحية... تعالى الله عما يقولون.

٤ ـ وليست له صورة أو لون أو رائحة أو عوارض النفس من لذة وألم وفرح. لأن ذلك من خواص الأجسام.

٥ ـ ولا يوصف بالصغر أو بالكبر، (والكبر يراد به الحسي أما المعنوي فيوصف به كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

٦ ـ ولا متمكناً بمكان[٢]:

وما جاء بالحديث القدسي (**ما وسِعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسِعني قلب عبدي المؤمن**) فيراد به: وسع هيبتي ورحمتي.

والحديث القدسي الآخر: (**وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَهُ الذي يُبْصِر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. وإن سألني أعطيته، وإن استعاذ بي لأُعِيذَنَّه**) فيراد به: الكناية عن استيلاء محبة الله على الشخص، حتى أغنته عن شهود سواه.

---

(١) أشمط: أبيض.

(٢) انظر: صفة القيام بالنفس.

وحديث: «**وما يزال عبدي**...» إلخ. رواه البخاري في كتاب الرقاق ـ التواضع. فتح الباري ج١١ ص٣٤٠.

٧ ـ ولا مختصاً بجهة لما يأتي:

أ ـ لأن الجهات الست حادثة بإحداث الإنسان وغيره، فإن معنى الفوق: ما يحاذي رأس الإنسان، أو ظهر مَن يمشي على أربع من جهة العلو، وهي جهة السماء، ومعنى السفل: ما يحاذيه من جهة الأرض.

ثم إن الجهات اعتبارية غير حقيقية فإن النملة إذا مشت على سقف، كان الفوق بالنسبة لها جهة الأرض، لأنها تحاذي ظهرها. ولو كان كل حادث مستديراً كالكرة، لم توجد واحدة من هذه الجهات.

ب ـ إن الله تعالى موجود في الأزل، ولم يكن شيء من المخلوقات، لأن كل ما سواه حادث، كما مرّ دليله.

جـ ـ أن الاختصاص بجهة هو اختصاص بحيِّز، والحيِّز مختص بالجوهر والجسم، وقد مرّ تنزيهه عنهما.

فإن قيل: لمَ ترفع الأيدي إلى السماء؟ أجيب: بأن السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة. فهو تعالى غير مختص بجهة، خلافاً:

للكرّامية: الذين أثبتوا لله جهة الفوق، من غير استقرار على العرش.

والمشبِّهة والمجَسِّمة: الذين قالوا باستقراره على العرش(١).

وهو باطل بإجماع العقلاء.

٨ ـ ولا يجري عليه زمان.

٩ ـ ولا تصح له الحركة والانتقال.

١٠ ـ ولا الاتصال في الذات: بأن يكون مركباً، تتصل أجزاؤها ببعضها. أو بالغير: فهو ليس متصلاً بالعالم، بحيث يكون حالاً، أو سارياً فيه.

١١ ـ ولا الانفصال عن العالم، لأن هذه الأمور من صفات الحوادث، والله ليس بحادث.

---

(١) يثبت كثير من الحنابلة جهة العلو لله تعالى، واستواءه على العرش، مع قولهم بنفي التجسيم. انظر أدلتهم وأقوال العلماء في ذلك في: شرح العقيدة الطحاوية ط٣ ص٢٥١ وما بعدها، ولوامع الأنوار البهية للسَّفَّاريني ـ جدة سنة ١٣٨٠هـ ج١ ص١٩٠ وما بعدها.

١٢ ـ ولا الاتصاف بالألوان والأشكال. وذلك خلافاً للمشَبِّهة، الذين شبّهوا الباري بالمخلوقات.

١٣ ـ ولا الاتحاد ولا الحلول. خلافاً:

للنصارى القائلين باتحاد جسده بجسد المسيح،

ولغُلاة الشيعة القائلين بحلوله بعلي وأولاده،

ولغُلاة الصوفية القائلين بحلوله بالسالكين المنتهين في سلوكهم إلى النهاية[١].

والذي ذكرناه هو ما ذهب إليه جميع فرق الإسلام، من معتزلة وماتُرِيدية وأشاعِرة وشيعة، عدا مَن ذكرناهم من المشَبِّهة والمجَسِّمة وغيرهم.

النصوص الموهِمة للمشابهة:

وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة نصوص، تضيف إلى الباري ﷻ صفات خبرية، توهم التشبيه، كالاستواء والمجيء والنزول... التي ستأتي بعد قليل.

فاختلفوا فيها على أقوال ثلاثة[٢]، مع اتفاقهم على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهي:

الأول: التوقف:

أي: التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه، وهو مذهب السَّلَف، فهؤلاء آمنوا بهذه الصفات الخبرية، وأجروها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، مع تغليبهم أدلة التنزيه، لوضوح دلالتها، وكثرتها، وعلمهم باستحالة التشبيه. لذا قال كثير منهم: (اقرؤوها كما جاءت) أي:

---

(١) انظر: المسامرة ص٢٥ و٣١ وشرح قاسم بن قُطْلُوبُغا على المسايرة ص٢٥ والمواقف وشرحه للجُرجَاني ص٤٧٣ و٤٧٤ و٤٧٨ والدُّرْدِير والصاوي عليه ص٦٣ و٧٣ ومقاصد الطالبين وشرحه ج٢ ص٦٥ وما بعدها وعقائد الإمامية للشيخ المظفر، دار النعمان ـ النجف ص٣٦.

(٢) ذكرها ابن الجَوْزي بقوله «إن إثبات الظاهر لا يخلو من أمرين، فإما أن يكون المراد من الظاهر الحقيقة وذلك تشبيه، لأن الإشارة الحسية إليه جائزة، أو يكون المراد منه غير الحقيقة وذلك تأويل. وفي الحالتين فإن ذلك ليس بمذهب السلف الذي هو التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل أو سقوط في التشبيه»./ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص١٩٦ نقلاً عن دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي.

آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا لتفسيرها[1].

لأن التأويل أمر ظني بالاتفاق يحتمل الخطأ، لا يمكن أن تفسر به صفات الباري ﷻ، احترازاً من الوقوع في الزيغ، فتفوض معانيها إلى الله تعالى.

وفسّر الإمام مالك بن أَنس ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] بقوله: (الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة).

وفي ذلك يقول ابن رُشْد: (إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى، باستعمال هذه الأقاويل، دون تأويلات فيها).

وقد ظلّ هذا الرأي مستمراً إلى أيام أحمد بن حَنبل ويَحيى بن مَعِيْن وإسحاق بن راهَوَيْهِ الذين ناصروه، إلا أنه لم يستمر طويلاً، لأنها تتضمن (الإحالة إلى مجهولات لا نفهم مؤداها ولا غاياتها) بل اعتبرها ابن حَزْم (مدخلاً لطريق ينتهي بالتشبيه)[2].

الثاني: التوغل في التشبيه:

فمنهم مَن شبّه في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه...، فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق.

ومنهم مَن شبّه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك. فآل قولهم إلى التجسيم، وذلك تمسكاً بالتفسير الحرفي للآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه والتجسيم[3].

قال ابن الجَوْزي الحنبلي (وهو من نُفَاة التشبيه): (اعلم أن عموم المحدثين حملوا ظاهر ما تعلق من صفات الباري سبحانه على مقتضى الحس، فشبهوا، لأنهم لم يخالطوا الفقهاء، فيعرفوا حمل المتشابَه على مقتضى الحكم)[4].

وهؤلاء فرق عديدة مثل: أصحاب الحديث الحَشْوية ومنهم: مقاتل بن سليمان سنة ١٥٠هـ المفسر، ومشبهة الشيعة ومنهم: هشام بن الحَكَم ت سنة ١٧٩هـ، وفرقة

---

(١) مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد ص٤٦٣.

(٢) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص١٩١ و١٩٤ وقول ابن رُشد في فصل المقال ط دار المعارف ص٦٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٤) تلبيس إبليس لابن الجَوْزي. المطبعة المنيرية ـ الطبعة الثانية ص١١٣.

الكَرَّامية أتباع ابن كَرَّام السِّجِسْتاني ت سنة ٢٥٥[1].

الثالث: التأويل:

وهو ما ذهب إليه المعتزلة، وأخذ به ـ مع تعديلات طفيفة ـ عامةُ المسلمين من شيعة وأهل سنة: ماتُريدية وأشاعرة، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: (جميع فرق الإسلام مُقِرُّون بأنه: لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار)[2].

وذلك لأنه ثبت عندهم بالدليل العقلي، أن الله تعالى منزّه عن الجسمية والجهة، ولا سبيل للقضاء على التشبيه، إلا إذا أولت الصفات الخبرية الواردة بالنصوص.

وحين رأى العلماء أن فتح باب التأويل له أضراره الجسيمة، وضعوا له القواعد، حتى لا يؤدي إلى التلاعب بالنصوص وفق الهوى، دون الالتفات إلى أصول الشريعة ومقاصدها[3].

قال الشيخ عِزّ الدين بن عبدالسلام: (طريقة التأويل بشرطها، أقربهما إلى الحق) ويعني بشرطها: أن يكون على مقتضى لسان العرب[4].

ومن أمثلة تأويلات هؤلاء للنصوص المتشابهة بما يتفق وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به:

ما يوهم الجهة:

١ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥].

الاستواء هو: الاستيلاء والملك، كقول الشاعر:

قد استوى عَمْرو على العراق ... من غير سيف ودم مُهْراق

٢ ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝﴾ [النحل: ٥٠].

---

(١) المِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتاني (بهامش الفِصَل) طبعة أوفسيت المثنى ج١ ص١٣٧ وما بعدها. وانظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص١٩٨ ـ ٢٠٠.

(٢) أساس التقديس للرازي ص٧٩ ـ القاهرة ١٩٣٥.

(٣) دراسات في الفِرَق (السابق) ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ وانظر مقدمة ابن خلدون ص٤٦٤، والمسايرة ص٣٤ وما بعدها والمواقف ص٤٧٣.

(٤) المسايرة ص٣٧.

فالفوقية تعني: التعالي في العظمة، أي: أن الملائكة يخافون ربهم من أجل تعاليه وارتفاعه في العظمة.

٣ ـ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨].

فالعندية: تعني الاصطفاء والإكرام.

٤ ـ ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

أي: يرتضيه لأن الكلِم عرَض، يمتنع عليه الانتقال.

٥ ـ ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤].

أي: العروج إلى موضع يتقرب إليه بالطاعات فيه.

٦ ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦].

مَن في السماء: أي حكمه وسلطانه، أو ملك موكل بالعذاب.

٧ ـ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨ ـ ٩].

الدنو: قرب الرسول إليه بالطاعة، والتقدير بقاب قوسين تصوير للمعقول بالمحسوس.

٨ ـ قوله ﷺ للجارية الخرساء: «**أين اللّهُ؟**» فأشارت إلى السماء فقرّر.

فأراد بالسؤال بـ(أين): أن يستكشف عن معتقدها، فلما أشارت إلى السماء، علم أنها ليست وثنية، وحمل إشارتها على أنها أرادت كونه تعالى خالق السماء، فحكم بإيمانها.

ما يوهم الجسمية:

١ ـ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢].

أي: وجاء أمر ربك الشامل للعذاب، أو عذاب ربك.

٢ ـ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

أي: إتيان عذابه.

٣ ـ حديث الصحيحين: «**ينزِل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين**

يبقى ثلُثُ الليل الآخِر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، ومَن يسألني فأعطيه، ومَن يستغفرني فأغفر له»[1] أي: ينزل مَلَكُ ربنا فيقول عن الله.

ما يوهم الصورة:

ما رواه أحمد والشيخان: أن النبي ﷺ قال: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فَليجتنبِ الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»[2].

والمراد بالصورة: الصفة، مَن سمع وبصر وحياة وعلم، فهو على صفته بالجملة.

ما يوهم الجوارح:

١ ـ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

الوجه: أي الذات.

٢ ـ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

اليد: أي القدرة.

٣ ـ قوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلَّها، بين إصْبَعَيْنِ من أصابع الرحمٰن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»[3].

فالمراد بالإصبعين: أي صفتين من صفاته، وهما القدرة والإرادة[4].

وبهذا يتضح أن الجمهور من السلف والخلف، اتفقوا على تنزيه الله تعالى من

---

(١) البخاري في كتاب الدعوات ـ باب الدعاء نصف الليل ـ فتح الباري ج١١ ص١٢٩.
وفي كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ فتح الباري ج١٣ ص٤٦٤.
وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ج١ ص٥٢١.

(٢) مسند أحمد ج٢ ص٢٤٤. والبخاري ـ كتاب الاستئذان ـ باب بدء السلام./ فتح الباري ج١١ ص٣.
وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب البر ـ باب النهي عن ضرب الوجه ج٤ ص٢٠١٧.

(٣) أخرجه مسلم ـ كتاب القدر ـ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ج٤ ص٢٠٤٥.

(٤) انظر هذه التأويلات في: المواقف وشرحه ص٤٧٣ والمسايرة ص٣٥ ـ ٣٦ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٨١ ـ ٨٤.

التشبيه، إلا أنهم اختلفوا في طريقة تفسير النصوص المتشابهة تبعاً لعصورهم التي عاشوا بها، وهو خلاف شكلي بحت.

ولم يخالف في ذلك إلا المشبهة، الذين صوّروا الذات الإلهية كالجسم، فأخذوا ينعتونه بصفات الأجسام، وهؤلاء لا يعتد بكلامهم في ميزان النقد العلمي عند مقارنة النصوص، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

٤ ـ القيام بالنفس:

معنى القيام بالنفس شيئان:

أولهما: عدم افتقاره إلى محل.

وللمحل تفسيران:

١ ـ الذات التي يقوم بها، لا بمعنى المكان، لأن ذلك علم من مخالفة الحوادث.

٢ ـ الذات والمكان معاً. قاله الغنيمي.

ثانيهما: عدم افتقاره إلى المخصِّص، أي الموجِد[(١)].

وضدها: الاحتياج إلى غيره.

الدليل العقلي على ذلك:

١ ـ الدليل على عدم افتقاره إلى مخصص:

إنه لو افتقر إلى مخصص، لكان حادثاً،

كيف وقد سبق وجوب وجوده وقدمه وبقائه ذاتاً وصفات؟

٢ ـ الدليل على عدم افتقاره إلى محل:

أ ـ لو افتقر إلى محل، لكان صفة.

ولو كان صفة، لم يتصف بصفات المعاني، وهي واجبة القيام به تعالى، للأدلة الدالة على ذلك، وذلك باطل فثبت عدم افتقاره إلى محل[(٢)].

---

(١) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٣.

(٢) المصدر السابق والدردير في شرح الخريدة ص٦٢.

ب ـ المتمكِّن محتاج إلى مكانه، بحيث يستحيل وجوده بدونه. والمكان مستغنٍ عن المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب، ووجوب المكان، وكلاهما باطل[1].

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

فإن قيل: كيف يُتصور عدم تحيُّزه تعالى في مكان؟

فالجواب هو: أن تصور المكان لأي جسم، يكون نتيجة ملاحظة واستقراء أحوال الأجسام التي نراها حالّة في مكان ما، أما قياس الله تعالى على الأجسام في وجود التحيُّز، فهو قياس باطل، ولا علة جامعة بين الأصل والفرع، وذلك:

لأن العقل البشري محدود وقاصر عن إدراك كثير من الأمور، فهو يحكم بوجود أشياء كثيرة كالروح والعقل في الجسم والكهرباء في الأسلاك المعدّة لجريانها بها... إلخ، وإن لم يعرف حقيقتها أو كنهها ولا يدرك من سرها شيئاً.

فإذا كان العقل البشري قاصراً عن إدراك كثير مما فيه وحوله، فكيف يمكن أن يتصور عدم تحيزه تعالى في مكان؟ مع أنه قطع بوجوده تعالى، وقصر عن إدراك كنهه وتصوره وفهمه؟

فحسبُ الإنسان إذن أن يؤمن بوجوده تعالى وبصفاته، ثم يَحار في فهمه وتصوُّره. وهذه هي حقيقة الإيمان بالغيب التي أمر الله به عباده[2].

٥ ـ الوحدانية:

معناها: عدم التعدد في الذات أو الصفات أو الأفعال.

فالوحدانية في الذات: تنفي (الكَمَّ المتصل) الذي هو التركيب، أي: تركب الذات من أجزاء. وتنفي (الكَمَّ المنفصل) الذي هو التعدد، بحيث يكون هناك إلهان فأكثر.

والوحدانية في الصفات: تنفي (الكم المتصل) الذي هو تعدد صفتين من جنسٍ واحد كقدرتين فأكثر.

---

(١) المواقف وشرحه ص٤٧٢.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص١٢٠ ـ ١٢١.

وتنفي (الكم المنفصل) الذي هو إثبات صفة لغيره تعالى تشبه صفته، كأن يكون لزيد قدرة يوجد بها ويعدم كقدرته تعالى، أو إرادة تخصص الشيء ببعض الممكنات.

والوحدانية في الأفعال: تنفي (الكَمّ المنفصل)[1] فقط، الذي هو إثبات فعل لغيره تعالى على طريق الإيجاد والخلق[2].

وضدها: التعدد في الذات أو الصفات (اتصالاً وانفصالاً) وفي الأفعال (انفصالاً).

* * *

أدلة نفي الكموم الخمسة

الأول: الدليل على نفي الكم المتصل في الذات:

(أي أنه تعالى ليس مركَّباً من أجزاء).

أنه تعالى لو كان مركباً من أجزاء، لكان محتاجاً إلى تلك الأجزاء، وإلى مَن يركِّبها، وعندئذ يكون حادثاً، وهو باطل، لما تقدم من: إثبات أنه تعالى واجب الوجود[3].

الثاني: الدليل على نفي الكم المنفصل في الذات:

(أي أنه تعالى إله واحد لا شريك له، يشاركه التصرف في المخلوقات).

إنه لو لم يكن واحداً لكان متعدداً، بأن يكون هناك إلهان فأكثر، ولو كان هناك إلهان أو أكثر، فإما أن يتفقا، وإما أن يختلفا:

١ ـ فإن اتفقا على إيجاد شيء مثلاً:

---

(١) أما الكم المتصل في الأفعال: فإن صورناه بتعدد الأفعال، فهو ثابت، لا يصح نفيه، لأن أفعاله كثيرة من خلق ورزق وإحياء... وإن صورناه بمشاركة غير الله له في فعل من الأفعال، فهو منفي أيضاً بوحدانية الأفعال. انظر: الباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٤ والصاوي على الدردير ص٦٤.

(٢) انظر: الباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٤ والدَّرْدِير شرح الخريدة ٦٤ ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة للطائي ص٣٩ ـ ٤٢.

(٣) الدردير السابق.

أ ـ فإما أن يوجداه معاً، وعندئذ لزم اجتماع مؤثرين تامّين على أثر واحد، وهو باطل بالبداهة.

ب ـ وإما أن يوجداه مرتَّبين (بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر)، وعندئذ لزم تحصيل الحاصل، وهو باطل بالبداهة.

جـ ـ وإما أن يوجده أحدهما دون الآخر، وعندئذ كان الموجد هو الإله، والثاني باطل.

د ـ وإما أن يوجد كل منهما بعض الشيء دون البعض الآخر، وعندئذ لزم عجزهما، لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سدّ على الآخر طريق تعلق قدرته به، فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز، وكل ذلك باطل، فبطل ما أدى إليه، وهو وجود إلهين متفقين.

وهذا البرهان يسمى: برهان التوارد، لما فيه من تواردهما على شيء.

٢ ـ وإن اختلفا، بأن أراد أحدهما إيجاد العالم، وأراد الآخر إعدامه:

أ ـ فإما أن ينفذ مرادهما معاً، وعندئذ لزم اجتماع النقيضين، وهو باطل بالبداهة.

ب ـ وإما أن ينفذ مراد أحدهما فقط دون الآخر، وعندئذ يلزم عجز مَن لم ينفذ مراده، والآخر مثله، لانعقاد المماثلة بينهما. وعن ابن رُشْد: إن الذي نفذ أمره هو الإله دون الآخر.

جـ ـ وإن لم ينفذ مراد أحدهما، لزم عجز كل منهما، ولزم ارتفاع (زوال) النقِيضَيْن، وهو باطل.

فبطل ما أدى إلى ذلك، وهو وجود إلهين مختلفين. وهذا البرهان يسمى: برهان التمانع، لتمانعهما وتخالفهما.

فإذا بطل وجود إلهين متفقين أو مختلفين، وجب أن يكون الإله واحداً[1].

ويمكن التعيين عن هذا الدليل بما قاله الغَزالي في إحياء علوم الدين: (وبرهانه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وبيانه: لو كانا إثنين ـ يتصف كل منهما بصفات الألوهية، ومنها الإرادة وتمام القدرة ـ وأراد أحدهما أمراً:

(١) انظر: المقاصد وشرحه ج٢ ص٦١ ـ ٦٣ والدُّرْدِير شرح الخريدة ص٦٤ ـ ٦٥ والصاوي عليه والباجوري شرح الجوهرة ج١ ص٥٥ والوسيلة ص٤٨٤.

فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته، كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً، ولم يكن إلهاً قادراً، وإن كان الثاني قادراً على مخالفته ومدافعته، كان هذا الثاني قوياً قاهراً، والأول ضعيفاً قاصراً فلم يكن إلهاً)[1].

الثالث: الدليل على نفي الكم المتصل في الصفات:

هو أنه تعالى لو كان له صفتان من جنس واحد كقدرتين مثلاً:

فإما أن تكون إحداهما كاملة، وعندئذ تكون الثانية عبثاً.

وإما أن تكونا غير كاملتين (ناقصتين)، وعندئذ يكون ناقصاً وكل من العبث والنقص محَال.

وإما أن تكونا كاملتين، فيلزم منه اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وهو باطل، فبطل تعدد صفتين من جنس واحد.

الرابع: الدليل على نفي الكم المنفصل في الصفات:

هو أنه لو كان لغيره تعالى صفة تشابه صفاته، لكان مماثلاً للحوادث.

ولو كان مماثلاً للحوادث، لكان حادثاً مثلها،

ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث...

وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل.

فبطل القول بوجود صفة لغيره تشبه صفاته.

الخامس: الدليل على نفي الكم المنفصل في الأفعال:

هو أنه: لو كان لغيره فعل من الأفعال ـ على سبيل الإيجاد والإعدام ـ لكان له شريك، والشريك مُحال، كما مرّ في نفي الكَمّ المنفصِل في الذات.

والدليل النقلي على وحدانية الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، طبعة مصر سنة ١٩٣٩ ج١ ص١١٣ ـ ١١٤ والمسامرة ص٤٥.

٢٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

* * *

تأثير عقيدة التوحيد في الحياة

لعقيدة التوحيد آثار عظيمة على حياة المسلم. تنقله من الظلمات إلى النور، وتميز حياته عن حياة الملحد والمشرك. تتجلى في ما يأتي:

١ ـ الإيمان بالله تعالى، وبأنه واحد يمكّن المرء من العلم: بأن السماوات والأرض لها رب يكلؤها برعايته، ويرعى مَن فيها بعنايته، فيرزقهم ويربيهم.

ويعلمه بأن ليس في هذا الكون شيء يقوم بنفسه.

أما المشرك والملحد فلا يقول بمثل هذا.

٢ ـ الإيمان بالتوحيد ينشيء في الإنسان العزة والأنفة. فالله هو القويّ، ولا ضار ولا نافع ولا محيي ولا مميت إلا هو، فلا يطأطيء رأسه لأحد، ولا يتضرّع إليه، ولا يرتعب من كبريائه.

أما المشرك والملحد فيرى غيره قادراً على نفعه وضره، فيتضرع إليه، ويرتعب منه.

٣ ـ الإيمان بالتوحيد ينشيء في المرء التواضع. فلا تراه يفخر بماله وعزته وكفاءته، وإنما يقول: هي هبة من الله تعالى.

بخلاف الملحد الذي يبطر إذا حدثت له نعمة عاجلة، ويشمخ بأنفه على غيره.

٤ ـ المؤمن يرى أن النجاة والفلاح لا تكون إلا بتزكية النفس، والعمل الصالح، والبِرّ، والتقى.

أما المشرك فيقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، أو نحن أبناء الله وأحباؤه، فلن يعذبنا بذنوبنا، أو نستشفع بكبرائنا وأتقيائنا، أو بتقديم النذور والقرابين إلى الآلهة.

والملحد يقول: لا نسأل عن أعمالنا، فالشهوات النفسية هي آلهتهم.

٥ ـ المؤمن لا يتسرب إليه اليأس، بل هو مطمئن مملوء سكينة وأملاً، ولو أهين، ولو أوذي.

أما المشرك والملحد فلا يقوى قلبه على الوقوف بالمحن، وقد يفضي اليأس بهم إلى الانتحار.

٦ ـ المؤمن على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات، والتوكل، فإذا كان حاكماً لا يبتغي إلا مرضاة الله ﷻ، ولا يهمه إلا إقامة العدل، لأن وراءه قوة علوية، تكلؤه، وترعاه، وتأخذ بيده.

أما المشرك والملحد فلا ينتظر مثل هذه القوة، فلا يملك عندئذ من العزم والتوكل ما يملكه المؤمن.

٧ ـ المؤمن على قدر كبير من الشجاعة والجرأة، لأن الذي يجبن الإنسان، ويوهن عزمه أمران، هما:

أ ـ حبه للنفس والمال والأهل.

ب ـ اعتقاده بأن هناك أحداً يميت غير الله، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل.

فالمؤمن يؤمن بأن مالك النفس والمال والأهل هو الله تعالى، وأن المميت هو الله وحده بالأجل المحتوم المخصص، فلا يخشى عندئذ رجلاً أو حرباً، فلا يكون أجرأ ولا أشجع من المؤمن الحق. بخلاف الملحد والمشرك الجبان، الذي يخشى زحف الجيوش وقوة العدو.

٨ ـ الإيمان يرفع قدر الإنسان، وينشيء فيه: الترفُّع والقناعة والاستغناء، ويطهّر قلبه من الطمع واللؤم، والعواطف السافلة، والصفات القبيحة الأخرى، فالرزق ليس إلا بيد الله وحده، فلا نجاح ولا خسران إلا بيده تعالى.

أما الملحد والمشرك فهو عبد الطمع والشره، همّه الكسب بالسبل المشروعة وغير المشروعة.

٩ ـ الإيمان يجعل الإنسان متقيداً بقانون الله، ومحافظاً عليه. فهو إن خلا بنفسه ليلاً أو نهاراً، يعلم أن عليه رقيباً، يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، فتراه يسارع إلى الخيرات، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. فوازعه النفسي يحضه على الخير، وينهاه عن كل رذيلة.

أما الملحد والمشرك فلا يرى شيئاً من هذا[1].

---

(١) [illegible] ص ٧١ ـ ٧٧.



٣ ـ صفات المعاني

وهي سبع:

القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام[١].

ومعنى كونها صفات معان: أن كل صفة منها معنًى وجودي قائم بذات الله تعالى.

وسميت ذاتية: لأنها لا تنفك عن الذات.

ووجودية: لأنها متحققة باعتبار نفسها، أي: التي لها وجود في نفسها قديمة كعلمه تعالى، وحادثة كعلمنا[٢].

وهذا القسم هو الذي تنازع فيه المعتزلة والأشاعرة ومَن وافقهم[٣].

* * *

النزاع في صفات المعاني

يتفق المسلمون جميعاً من فلاسفة ومتكلمين، على أن الله تعالى واحد، يتصف

---

(١) أضاف الماتُريدية إلى هذه الصفات السبع صفة (التكوين) المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ويريدون بها: صفة قديمة قائمة بذاته تتعلق بالممكنات، وتؤثر فيها بالإيجاد على وفق الإرادة، كالخلق والإحياء والإماتة والرزق والإشقاء والإسعاد.

أما الأشاعرة فرأوها: صفات حادثة، لأنها إضافات واعتبارات بين القدرة والمقدور.

شرح الدَّرْدِير على الخريدة والصاوي عليه ص٩٦.

(٢) الدردير والصاوي عليه ص٧٦ والوسيلة ص٤٩١.

(٣) شرح المقاصد ج٢ ص٧٢.

بصفات الكمال الثبوتية الواجبة لذاته تعالى، والتي أطلقها الله تعالى على نفسه، إلا أنهم اختلفوا في تفسير صفات المعاني، على قولين:

الأول: وهو قول الجمهور الأشاعرة والماتُريدية وهو:

أن الله سميع بصفة تسمى سمعاً، وبصير بصفة تسمى بصراً، وعليم بعلم، وقدير بقدرة، ومريد بإرادة، وحي بحياة.

وهذه الصفات:

١ ـ أزلية، أي: ليست حادثة، لأن الله تعالى الواجب الوجود لا تقوم الحوادث بذاته.

٢ ـ وقائمة بذاته، أي: ليست قائمة بذاتها، أي: ليست وجوداً خارجياً مستقلاً.

٣ ـ وهي ليست غير الذات، ولا عين الذات، ولكنها زائدة على الذات[١].

أي: أن كلاً من الذات المقدسة وصفاتها لا يتصور انفكاك أحدهما عن الآخر من حيث الوجود، وإن كان مفهوم الذات غير مفهوم الصفة[٢].

وعندئذ لا تؤدي إلى تعدد وكثرة، لأنه لا غَيْرية بين الصفة والذات، ولا انفكاك بينهما ولا انتقال[٣].

ومن أدلتهم:

١ ـ أن الله تعالى أطلق على نفسه هذه الأسماء في كتابه وعلى لسان نبيه، والمفهوم في اللغة من عليم: ذاتٌ له علم، ومن قدير: ذاتٌ له قدرة... إلخ من الأوصاف المشتقة. بل يستحيل عند أهل اللغة: عليم بلا علم، كاستحالة علم بلا معلوم، أو كاستحالة عليم بلا معلوم، فلا يجوز صرفه عن معناه إلا لقاطع عقلي، ولم يوجد فيه ما يصلح شُبْهة، فضلاً عن وجود دليل[٤].

٢ ـ لو كان العلم نفس الذات، والقدرة نفس الذات، كما قالوا، لكان العلم

(١) المسامرة ص٧٠ والمواقف ص٤٧٩.

(٢) المسامرة ص٧٢ والصاوي على الدردير ص٨٩.

(٣) وقد لزم النصارى الكفر، لأنهم قالوا بالغيرية، وجوزوا الانتقال والانفكاك بين الذات والصفة./ شرح رمضان أفندي على العقائد النسفية إستانبول سنة ١٣١٤هـ ص١٢٢ ـ ١٢٣ والصاوي ص٨٩ ودراسات في الفِرق ص٢٤٠.

(٤) المسامرة ص٧١.

نفس القدرة، فكان المفهوم من العلم والقدرة أمراً واحداً، وأنه ضروري البطلان، وكذا الحال في باقي الصفات التي ادعى أنها عين الذات[1].

٣ ـ لو كان علمه ذاته، كما قالوا، لكان العلم ـ مثلاً ـ واجباً معبوداً صانعاً للعالم موصوفاً بالكمال[2].

الثاني: وهو مذهب المعتزلة والفلاسفة والإمامية،

وهو نفي الصفات الزائدة على الذات،

فالله عالم بالذات بلا علم، وقادر بالذات بلا قدرة، وسميع بالذات بلا سمع.. فهم قالوا: إنّ القديم ذات واحدة قديمة، ولا يجوز إثبات ذوات قديمة[3].

واحتجوا على قولهم هذا:

بأن القول بتعدد القدماء ـ الذات والصفات ـ كفرٌ بالإجماع، وبه كفرت

---

(١) المواقف وشرحه ص٤٨٠.

(٢) المقاصد وشرحه ج٢ ص٧٣.

(٣) المواقف وشرحه ص٤٧٩ وشرح ابن قُطلوبُغا على المسايرة ص٧١ والاقتصاد في الاعتقاد ص١٥٠ و١٥٥ وحاشية محمد محيي الدين عبدالحميد على المسايرة ص٧٠ ـ ٧٣ والمقاصد وشرحه ج٢ ص٧٢ وعقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر ص٣٩ والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للحَسَني ط١ ص١٩٢ ناقلاً عن كشف الحق ونهج الصدق للعلامة الحِلّي ص٢١.

ولكن المعتزلة ناقضوا في نفي الصفات في صفتَيْ الكلام والإرادة، فاعتبروهما معنيين وراء الذات ـ أي صفتين زائدتين على ذاته ـ وزعموا أنهما محدثتان قائمتان بذواتهما ـ غير قائمتين بذاته تعالى ـ، فالإرادة يخلقها في غير محل، والكلام يخلقه في جسم جماد، ويكون هو المتكلم به./ انظر المواقف وشرحه ص٤٩٣ و٤٩٦ والاقتصاد في الاعتقاد ص١٥٠ وابن قُطلوبُغا ص٧١ وشرح المقاصد ج١ ص٩٤ و١٠٠.

أما الفلاسفة فلم يتناقضوا إلا في الكلام، فقالوا:

إنه متكلم، بمعنى: إنه يخلق في ذات النبي ﷺ سماعَ أصوات منظومة، إما في النوم أو في اليقظة، ولا وجود لتلك الأصوات في الخارج، كالنائم حين يرى أشخاصاً، أو يسمع أصواتاً لا وجود لها في الخارج، وإنما وجوده في دماغه. ورد:

أ ـ بأنه لو كان متكلماً بكلام غيره، لجاز أن يكون متحركاً ومصوّتاً بحركة غيره وصوته، وذلك مُحَال.

ب ـ وإذا أرجعنا معرفة النبي ﷺ إلى أضغاث الأحلام، فذلك لا يكون عِلْماً، ويكون الشرع كله مردوداً، لانعدام الثقة به./ الاقتصاد في الاعتقاد ص١٥٥ وحاشية محمد محيي الدين ص٧٠ ـ ٧١.

النصارى حين قالوا: الذات الإلهية أقانيم ثلاثة قديمة.

ورد:

بأن الكفر إثبات ذوات قديمة، لا إثبات ذات واحدة وصفات قدماء[1].

ثم إن نفي الصفات يجعل الألوهية فكرة مجردة، لا مضمون فيها، هي أشبه بالعدم.

قال الفَخْر الرّازي: (المشَبِّه يعبد صنماً، والمعطِّل يعبد عدَماً) وقال ابن تَيْمِيّة: (إن إثبات حي عليم قدير حكيم سميع بصير، بلا حياة ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصر، مكابرة للعقل كإثبات مُصَلٍّ بلا صلاة، وصائم بلا صيام، وقائم بلا قيام)[2].

وقد صوّر السيد الشّريف الجُرْجَاني مذهب المعتزلة ومَن وافقهم بقوله: (فإن قلتَ: كيف يُتصور كونُ صفةِ الشيء عينَ حقيقته، مع أن كل واحد من الموصوف والصفة يشهد بمغايرته صاحبه؟ وهل هذا إلا كلام مخيل، لا يمكن أن يصدق به، كما في سائر القضايا المخيلة، التي يمتنع التصديق بها؟ فلا حاجة بنا إلى الاستدلال على بطلانه.

قلتُ: ليس معنى ما ذكروه أن هناك ذاتاً وله صفة، وهما مُتَّحدان حقيقة، كما تخيلته، بل معناه: أن ذاته تعالى يترتب عليه ما يترتب على ذات وصفة معاً. مثلاً: ذاتك ليست كافية في انكشاف الأشياء عليك، بل تحتاج في ذلك إلى صفة العلم، التي تقوم بك، بخلاف ذاته تعالى فإنه لا يحتاج في انكشاف الأشياء وظهورها عليه إلى صفة تقوم به، بل المفهومات بأسرها منكشفة عليه لأجل ذاته، فذاته بهذا الاعتبار حقيقة العلم، وكذا الحال في القدرة، فإن ذاته تعالى مؤثرة بذاتها، لا بصفة زائدة عليها، كما في ذواتنا فهي بهذا الاعتبار حقيقة القدرة، وعلى هذا تكون الذات والصفات متحدة في الحقيقة، متغايرة بالاعتبار والمفهوم. ومرجعه إذا حقق: إلى نفي الصفات مع حصول نتائجها وثمرات من الذات وحدها)[3].

---

(١) المواقف وشرحه ص٤٨٠ والمقاصد وشرحه ج٢ ص٧٥ ـ ٧٧.

(٢) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٣٢ و٢٣٧ وانظر فيه: بيان الفرق وأساسه بين النفي المحض للصفات عند الفلاسفة المؤدي إلى التعطيل الكامل، وبين النفي المعتدل عند المعتزلة، حين أثبتوا أن صفاته عين ذاته، ونفوا زيادتها على ذاته.

(٣) شرح المواقف ص٤٨٠.

وهذا الاختلاف بين الفرق الإسلامية ينتهي جميعاً إلى القول بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به.

إلا أن سياسة المعتزلة أيام المأمون والمعتصِم والواثِق، انتهجت سبيل الشدة تجاه مخالفيهم، فوسعت شقة الخلاف بين الطرفين.

ولكن حين وضحت المعالم، ومحصت الأقوال، وهدأت النفوس، ذكر المتكلمون: بأن هذا النزاع لا يعني تكفير أحد الطرفين.

قال الإمام الدَّوَّاني في حاشيته على العقائد العَضُدية:

(واعلم أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها، ليست من الأصول التي يتعلق بها تكفير أحد الطرفين. وقد سمعت بعض الأصفياء أنه قال:

عندي أن زيادة الصفات وعدم زيادتها وأمثالها، مما لا يدرك إلا بالكشف، ومَن أسنده إلى غير الكشف، فإنما يتراءى منه ما كان غالباً على اعتقاده بحسب النظر الفكري، ولا أرى بأساً في اعتقاد أحد طرفي النفي والإثبات في هذه المسألة)[1].

وحتى أن الإمام محمد عبده نهى عن الخوض فيها، لأن البحث فيها بعيد عن مقصد الشرع، فقال:

(أما كون الصفات زائدة على الذات... فمما لا يجوز الخوض فيه، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الموجودات بكُنْهها الحقيقي، وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم، فلم يهتدِ فيها فريق إلى مقنع)[2].

وإنما مررنا على هذا الاختلاف بسرعة، حتى يتضح للقارىء صحة ما ذكره الإمام الدَّوَّاني، ويتعرف على مناهج المتكلمين في تفسير الصفات.

سبب ظهور المشكلة:

اختلف الباحثون في سبب ظهور مشكلة الصفات الإلهية على قولين:

أولهما: ظهرت بتأثير أجنبي خارجي، لكنهم اختلفوا في هذا المصدر على أقوال:

---

(١) حاشية الدَّوَّاني على العقائد العضدية ج١ ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ط١٧ دار المنار بمصر ص٥٢.

١ ـ علم الكلام المسيحي. وخاصة عن طريق كتابات القديس يوحنا الدمَشْقي، بحجة: التشابه بين الفكرين المسيحي والإسلامي في أكثر من فكرة في معالجة هذه المشكلة، ويؤيد هذا الرأي:

ما قاله الشَّهْرَسْتاني في صدد الردّ على أبي الهُذَيْل العلاّف: (وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوهاً للذات، فهي بعينها أقانيم النصارى).

٢ ـ اليهودية بحجة:

أن قول المعتزلة: (القرآن مخلوق)، مقتبس من قول اليهود (التوراة مخلوقة).

قال ابن الأثير في تاريخه (الكامل): (إن أول مَن نشر مقالة خلق القرآن هو لَبِيْد بن الأعصم، ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه، وصنف في القرآن. فكان أول مَن فعل ذلك في الإسلام، وكان طالوت هذا زنديقاً، فأفشى الزندقة).

وذكر ابن قُتَيْبَة أن (أول مَن قال بخلق القرآن هو المُغِيْرة بن سعيد العِجْلي، وكان من أتباع عبدالله بن سبَأ اليهودي).

٣ ـ الفلاسفة:

وذلك للصلات الفكرية بين الفلاسفة والمتكلمين، وخاصة بين المعتزلة وبين الفلسفة اليونانية.

ثانيهما: ظهرت نتيجة حتمية للتطور الفكري داخل الإسلام نفسه، بحجة:

١ ـ أن المشكلة ظهرت نتيجة النقاش الديني، الذي دار في صفوف الخوارج حول مرتكب الكبيرة، الذي جرّ إلى بحث مشكلة القضاء والقدر، ثم مشكلة الصفات الإلهية.

٢ ـ التمسك بحرفية الصفات الخبرية الواردة بالقرآن الكريم، وحمل تلك الصفات على معانيها الحقيقية دون المجاز، الذي تطور من مشكلة لغوية إلى فلسفية بمعناها المصطلح[(١)].

تاريخ المشكلة:

يقولون أن أول مَن نفى الصفات الإلهية شخصان هما: الجَعْد بن دِرهم، والجَهْم بن صَفْوان، وقد بنى الجهم فكرته على ركنين هما:

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢١٤ ـ ٢١٩ وأشار إلى الكامل لابن الأثير ج٧ ص٤٩ وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ص١٤٨.

أ ـ **لغوي**: قال: المماثلة هي: الاشتراك في الاسم. وكان يقول: لا أصف الباري تعالى بوصف يجوز إطلاقه على غيره كحي وعالم ومريد.. ولذا أثبت الجهم لله تعالى صفة القدرة والخلق والإيجاد، لأنه لا أحد يوصف بهذا من الخلق.

ب ـ **فلسفي**: كان الجهم جَبْرياً، فنفى القدرة الإنسانية والاستطاعة، فالإنسان مجبر في أفعاله جميعاً.

وجاء المعتزلة فنفوا الصفات الإلهية. ويعتبر واصِل بن عَطَاء شيخ المعتزلة أول مَن نفى الصفات منهم، قال: (مَن أثبت معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين)[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) دراسات في الفِرق السابق ص٢١٩ ـ ٢٣١.



صفات المعاني

١ ـ القدرة

هي صفة أزليّة يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه[١].

وضدها: العجز.

الدليل العقلي على ذلك:

أ ـ هو أنه تعالى لو لم يتصف بالقدرة، لكان عاجزاً.

ولو كان عاجزاً، لما وجد شيء من هذه الحوادث المحكمة الصنعة المرتبة المتقنة، وعدم وجود شيء من الحوادث باطل بالمشاهدة.

ب ـ لو كان عاجزاً، لكان ناقصاً، والنقص على الإله محال.

جـ ـ لو كان عاجزاً، لكان ناقصاً،

ولو كان ناقصاً، لاحتاج إلى مَن يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر.. وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل[٢].

د ـ الله صانع قديم، له مصنوع حادث،

وصدور الحادث عن القديم لا يتصور إلا بطريق القدرة،

---

(١) شرح الدَّرْدِير على الخريدة ص٧٨.

(٢) المواقف وشرحه [illegible] محمد محيي الدين [illegible]

فالله تجب له القدرة[1].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

فوائد:

١ ـ لا تتعلق القدرة إلا بالممكن دون الواجب والمستحيل[2].

أي لا تؤثر القدرة إلا في الممكنات فقط، لأن الممكن هو الذي يقبل الوجود والعدم.

أما الواجب: فلا يقبل التأثير، لأنه موجود لا يقبل العدم.

وكذا المستحيل: فلا يقبل التأثير أيضاً، لأنه معدوم، لا يقبل الوجود.

فإن سأل سائل: هل يقدر الله تعالى أن يوجد إلهاً مثله؟ أو نحو ذلك من التأثير في الواجب والمستحيل؟

فجوابه هو: أن هذا وإن ورد بصيغة السؤال، فليس بسؤال حقيقة، وإنما هو تأليف كلام فارغ، ذلك لأنه لو أوجد الله تعالى شريكاً له، لم يكن هذا الشريك واجب الوجود، لأنه مسبوق بالعدم... فهذا السؤال كقول القائل لك:

هل تتكرم عليّ بأن تكون مشاهداً أمامي وغائباً عني في لحظة واحدة؟ فهو سؤال لا معنى ولا فائدة من ورائه، كأي كلام مختلط، لم يقل صاحبه شيئاً يحتاج إلى جواب، إنما هو تصور وهمي يشبه أسئلة الطفل الفارغة التي لا معنى لها.

فالسائل هذا يحتاج إلى تعليم ما هو المستحيل والواجب والممكن، وجوابك له يكون من قبيل تعليم الجاهل لا جواب السائل[3].

قال الباجوري:

---

(١) المقاصد وشرحه ج٢ ص٧٩ ـ ٨٠ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٩.

(٢) المواقف وشرحه ص٤٨٤ والمقاصد وشرحه ج٢ ص٨٥ والمسامرة ص٦٢ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٨.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ١٣٧ ـ ١٤٠.

ولذلك شنّع السَّنُوسي في شرح الصغرى على ابن حَزْم، في قوله: الله قادر أن يتخذ ولداً، وإلا كان عاجزاً[1].

ومعنى التعلُّق:

هو اقتضاء الصفة أمراً زائداً على قيامها بالذات، فالقدرة تقتضي مقدوراً، والإرادة مراداً، والسمع والبصر يقتضيان مسموعاً ومبصراً، والعلم يقتضي معلوماً، والكلام مدلولاً، أما الحياة فلا تقتضي شيئاً زائداً على الذات[2].

٢ ـ للقدرة تعلقان:

أولهما: تعلق صلوحي قديم.

أي أن قدرة الله تعالى صالحة في الأزل لأن توجد وتعدم الممكنات فيما لا يزال، فهي صالحة أزلاً لإيجاد المخلوق وإعدامه.

ثانيهما: تعلق تنجيزي حادث:

أي أنه تعالى يوجد الممكن ويعدمه فيما لا يزال بقدرته[3].

٣ ـ القدرة صفة من شأنها تنفيذ ما خصصته الإرادة، كإخراج الممكن من العدم إلى الوجود فعلاً، إذا توجهت إلى إيجاده، أو صَرفه من الوجود إلى العدم، إذا توجهت الإرادة إلى إعدامه[4].

٢ ـ الإرادة

صفة أزلية، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، من وجود أو عدم، ومقدار وزمان، ومكان وجهة[5].

وضدها: الإكراه.

---

(١) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٥٨.

(٢) شرح الدردير على الخريدة ص٨٥.

(٣) الباجوري على الجوهرة ص٥٨ والباجوري على السنوسية مصر ط١ سنة ١٣٦٩هـ ص٢١ ورسالة في التوحيد للطائي ص٤١.

(٤) رسالة في التوحيد للطائي ص٤٧.

(٥) الدردير على الخريدة ص٧٨.

الدليل العقلي على ذلك:

١ - الله صانع للعالم بالاختيار، ومن كان كذلك تجب له الإرادة، فالله تجب له الإرادة[١].

٢ - لو لم يكن الله تعالى مريداً، لكان مُكرَهاً،

ولو كان مكرهاً، لكان عاجزاً،

ولو كان عاجزاً، لما وجد شيء من هذه المخلوقات،

وعدم وجود شيء من هذه المخلوقات باطل بالمشاهدة، فثبتت إرادته تعالى.

٣ - لو لم يكن الله تعالى مريداً، لكان مكرهاً، والإكراه في حقه تعالى نقص، وهو باطل.

٤ - لو كان تعالى مكرهاً لما اتصف بالقدرة، لأن تعلق القدرة موقوف على تعلق الإرادة (أي القصد إلى الفعل) فلا تتعلق القدرة إلا بما تعلقت به الإرادة.

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فوائد:

١ - يعبّر البعض أحياناً عن الإرادة بالمشيئة[٢].

٢ - الإرادة كالقدرة في التعلُّق، فهي لا تتعلق إلا بالممكن، دون الواجب والمستحيل[٣].

٣ - تعلق الإرادة تنجيزي قديم.

فالإرادة في الأزل متعلقة بتخصيص الحوادث بأوقاتها[٤]، وبالصفات التي يعلم

---

(١) شرح الباجوري على الجوهرة ج١ ص٦٠ وشرح المقاصد ج٢ ص٩٤.

(٢) الباجوري شرح الجوهرة ج١ ص٥٩.

(٣) الباجوري شرح الجوهرة ج١ ص٦٠.

(٤) المسايرة ص٦٤.

أنه يوجد عليها في الخارج[1].

فالله تعالى أراد أزلاً: أن تكون موجوداً، وأن يبعث محمداً رسولاً.

٤ ـ الإرادة لا تستلزم الرضا.

ذكر شارح العقيدة الطَّحَاوية أنّ:

الذي عليه أهل السنّة والجماعة: أن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يُحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه دِيناً.

وخالف في ذلك القَدَرية والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمانَ من الكافر، ولكنَّ الكافرَ شاء الكفر، فردوا إلى هذا، لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر وعذَّبه عليه، ولكن صاروا كالمستجير من الرَّمْضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمانَ منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى. وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى عَمْرو بن الهَيْثم قال: خرجنا في سفينة، وصحِبنا فيها قَدَري ومجوسي. فقال القَدَري للمجوسي: أَسْلِم. قال المجوسي: حتى يريد الله. فقال القدري: إنّ الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسي: أراد الله، وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان. هذا شيطان قوي. وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما.

ووقف أعرابي على حلْقة فيها عَمْرو بن عُبَيْد، فقال: يا هؤلاء، إن ناقتي سُرقت، فادعوا الله أن يردها عليَّ. فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم تُرد أن تُسرق ناقته فسرقتْ، فارْدُدْها عليه. فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك. قال: ولِمَ؟ قال: أخافُ كما أراد أن لا تُسرق فسُرقت، أن يريد ردَّها فلا تُرد.

ومنشأ الضلال كان من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا. فسوّى بينهما الجَبْرية والقَدَرية، ثم اختلفوا:

فقالت الجَبْرية: الكون كله بقضائه وقدَره، فيكون محبوباً مَرْضياً.

---

(١) الباجوري شرح الجوهرة ج١ ص٥٩.

والتنجيز بالنسبة للإرادة هو محْضُ تعلقها بممكن من الممكِنات، سواء ظهر هذا الممكن إلى طور الوجود أم لم يظهر بعد، وقد تتعلق إرادة الإنسان بعمل من الأعمال، ثم يطويه عن التنفيذ إلى ما بعد سنوات كثيرة، فتسمى إرادته هذه تنجيزية، أي: ليست مجرد قابلية محضة، بل هي توجه فعلي إلى مراد معين/ كبرى اليقينيات الكونية ص١٢٦.

وقالت القدرية: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضيّة له، فليست مقدَّرة ولا مقْضِيَّة، فهي خارجة عن مشيئته وخلْقه.

إلا أن أهل السنّة والجماعة فرّقوا بين المشيئة والمحبة. واستدلوا على المشيئة والإرادة بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الدهر: ٣٠، والتكوير: ٢٩].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

واستدلوا على المحبة والرضا بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

٣ ـ قوله تعالى عَقِيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

٤ ـ قوله ﷺ: «**إن الله كرِّه لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(*).

٥ ـ قوله ﷺ: «**إن الله يُحِبُّ أن يُؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(**).

فإن قيل:

كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوِّنه؟ وكيف يجمع إرادته له وبُغْضه وكراهته؟ أجيب:

بأنّ المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى

(*) متفق عليه، رواه البخاري في الاستقراض، ومسلم في الأقضية.

(**) رواه أحمد وغيره بسند صحيح.

ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضُه وإرادتُه، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناوِلُ له أنّ فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه.

بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية.

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحبُّ إليه من فوقه[1].

٣، ٤ ـ السمع والبصر

السمع: صفة أزلية شأنها إدراك كل مسموع، وإن خفي[2].

فهي صفة تنكشف بها المسموعات من غير آلة. فلا يَعْزُب عن سمعه وإن خفي، ولا يحجب سمعَه بُعْدٌ، ويسمع من غير أصمخة وآذان.

وضدها: الصمَم.

البصر: صفة أزلية شأنها إدراك كل مبصر، وإن لطف[3].

فهي صفة تنكشف بها المرئيات من غير آلة، فلا يغيب عن بصره مرئي وإن دَقّ، ولا يدفع رؤيته ظلام، ويرى من غير حَدَقة وأجفان.

وضدها: العمَى.

فهاتان الصفتان ليستا محدودتين، خلافاً لسمع الإنسان وبصره.

الدليل العقلي على ذلك:

أ ـ السمع والبصر صفتا كمال، وقد اتصف بهما المخلوق، فهو تعالى الأحق بالاتصاف بهما. وإلاّ لزم أن يكون للمخلوق من صفات الكمال ما ليس للخالق.

ب ـ هو أن الله تعالى لو لم يتصف بالسمع والبصر، لزم أن يتصف بضدهما،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٥ وما بعدها.
وانظر: شرح المقاصد ج٢ ص٩٧.

(٢) المسامرة ص٦٨ وانظر الباجوري على الجوهرة ج١ ص٦٦.

(٣) المسامرة السابق. وانظر الباجوري السابق ص٦٧.

وإذا ثبت اتصافه بضدهما، كان ذلك نقصاً، والنقص عليه محال.

فثبت اتصافه بالسمع والبصر.

جـ ـ لو ثبت اتصافه بالصمم والعَمَى، لكان ذلك نقصاً،

ولو كان ناقصاً، لاحتاج إلى مَن يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر.. وهكذا فيلزم الدَّوْر أو التسلسل. وكلاهما باطل[1].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥، ولقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فوائد:

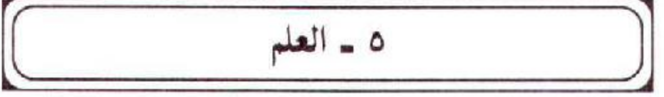
١ ـ انكشاف جميع الموجودات بالسمع والبصر، يغاير الانكشاف بالعلم، كما أن الانكشاف بأحداهما، يغاير الانكشاف بالأخرى[2].

٢ ـ ذهب الباجوري والسَّنُوسي إلى: أن السمع والبصر يتعلقان بكل الموجودات تعلقاً زائداً على العلم، فسمعه تعالى يتعلق بما هو قابل للسمع بالنسبة لنا، وبما هو غير قابل له من سائر الموجودات. وبصره تعالى كذلك.

أما الإمام سَعْد الدين التَّفْتَازاني فقد قال:

إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات، وصفة البصر تتعلق بالمبصرات، فلا تتعلقان عندئذ بكل الموجودات.

أما المعدومات فلا تتعلقان بها بالاتفاق، إذ لا يعقل ذلك، وإلا كانت من قبيل الموجودات[3].



٥ ـ العلم

صفة أزلية تنكشف المعلومات عند تعلقها بها[4].

وضدها: الجهل وما في معناه، كالظن والشك والوهم والذهول والغفلة

---

(١) المسامرة السابق ص٦٩.

(٢) الدردير على الخريدة ص٨٣.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية ١٢٨ و١٤٠.

والنسيان والسهو[1].

الدليل العقلي على ذلك:

أ ـ الله فاعل فعلاً متقناً محكماً، وهذا ظاهر لمَن نظر في الآفاق والأنفس والأحياء، ومَن كان فعله متقناً كان عالِماً.

لأن مَن رأى خطاً حسناً يتضمن ألفاظاً عذبة رشيقة تدل على معانٍ دقيقة، علم بالضرورة أن كاتبه عالم[2].

ب ـ لو لم يكن الله عالماً، لكان جاهلاً،

ولو كان جاهلاً، لما وجد هذا العالم على هذا النظام الدقيق، الذي يدل على أن خالقه عالم بما تقتضيه مصلحته علماً كاملاً.

فثبت أن يكون عالماً[3].

جـ ـ لو كان جاهلاً، لكان ناقصاً، والنقص على الإله محال.

د ـ لو كان ناقصاً لاحتاج إلى مَن يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر... وهكذا، فيلزم الدَّوْر أو التسلسل، وكلاهما باطل. فثبت علمه تعالى[4].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩ و١١٦].

وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

فوائد:

١ ـ يتعلق العلم بجميع المفهومات وجودية كانت أو عدمية، أي: بالممكنات

---

(١) رسالة في التوحيد للطائي ص٤٨.

(٢) المواقف وشرحه ص٤٨٧ والمقاصد وشرحه ج٢ ص٨٧.

(٣) المواقف السابق.

(٤) انظر: الباجوري شرح الجوهرة ج١ ص٦٢ وابن قُطْلُوبُغا على المسايرة ص٦٠ و٦٢.

والواجبات والمستحيلات، فهو يعلم كل الأشياء وجزئياتها تفصيلاً وإجمالا[1].

٢ ـ تعلق العلم تنجيزي قديم:

فهو تعالى عالم بالأشياء أزلاً على ما هي عليه. وكونها وجدت في الماضي، أو موجودة في الحاضر، أو توجد في المستقبل أطوار في المعلومات، لا توجب تغيراً في تعلق العلم.

وليس لها: تعلق صلوحي، وإلا لزم الجهل، لأن الصالح للعلم ليس بعالم، ولا تنجيزي حادث، لأنه يستلزم سبق الجهل[2].

٣ ـ الممكن يقبل الوجود والعدم على التعاقب، فإذا تغير هل يتغير علم الله به؟ وكيف يتغير علمه وهو قديم؟

الجواب: أن صفة العلم لا تتغير، وإنما يتغير متعلقها (المعلوم).

٤ ـ علم الله القديم لا يمكن قياسه بالعلم الحادث، فهو تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها على الحالة التي ستوجد عليها[3].

٦ ـ الكلام

صفة تدل على جميع المعلومات.

وسيأتي اختلاف المتكلمين في تحديد هذه الصفة.

وضدها: البَكَم.

الدليل العقلي على ذلك:

هو أنه تعالى لو لم يكن متكلماً، للزم أن يتصف بضده،

واتصافه بضده نقص، وهو باطل، لأن النقص لا يرضى به المخلوق، فكيف بالخالق؟ فثبت اتصافه بصفة الكلام[4].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

---

(١) المسامرة ص٦٠ و٦٢ والمواقف وشرحه ص٤٨٨ وشرح المقاصد ج٢ ص٩٠.

(٢) شرح الباجوري على الجوهرة ج١ ص٦١ تبعاً للسَّنُوسي، ورسالة التوحيد للطائي ص٤٨.

(٣) شرح الباجوري السابق.

(٤) رسالة في التوحيد للطائي ص٥٢.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

اختلف المتكلمون في كلامه تعالى على أقوال:

١ ـ أهل السنّة ومنهم الأشاعرة والماتريدية:

قالوا: كلامه تعالى نوعان:

أ ـ **كلام نفسي**: وهو الكلام حقيقة، المعبَّر عنه بالألفاظ، ليس من جنس الأصوات والحروف، بل صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، منافية للسكوت والآفة، كما في الخَرَس والطفولية، وهو بها آمرٌ ناهٍ مخبرٌ، وغير ذلك[١].

وهو قديم (لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى).

وهو قائم بذاته تعالى. وهو:

غير العبارات: إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام، بل قد يدل عليه بالإشارة والكتابة، كما يدل عليه بالعبارة والطلب.

وغير العلم: إذ قد يخبر الرجل عما لا يعلمه، بل يعلم خلافه، أو يشك فيه.

وغير الإرادة: إذ قد يأمر الرجل بما لا يريد، كالمختبر لعبده، هل يعطيه أم لا[٢]؟

والكلام النَّفْسي صورة للعلم الذاتي في النفس، كما أن العلم صورة للمعلوم فيها، ولذا كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه[٣].

وذلك لأن الكلام النفسي ثابت لغة، لأنه شاع إطلاق اسم الكلام والقول على المعنى القائم بالنفس، كما في قول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وفي القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨].

وقولهم: (زوَّرْتُ في نفسي مقالة) و(في نفسي كلامٌ)[٤].

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص٩٩.

(٢) المواقف وشرحه ص٤٩٦ والمسامرة ص٧٧.

(٣) من تعليقات السيد محمد رشيد رضا على رسالة التوحيد لمحمد عبده ص٤٥.

(٤) شرح المقاصد ج٢ ص١٠٢. والباجوري على الجوهرة ج١ ص٦٥.

ب ـ **كلام لفظي**: وهو الحروف والأصوات، وهذا يقولون بحدوثه وعدم قيامه بذاته تعالى، وهو القرآن الكريم وسائر الكتب المنزلة[1].

فالقرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق. لكنه يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق. ويراد به اللفظ الذي نقرؤه، إلا في مقام التعليم، لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق، ولذلك وقع امتحان ابن حنبل والشَّعْبي والبُخَاري وعيسى بن دينار...[2].

٢ ـ المعتزلة والشيعة الإمامية:

كلامه تعالى حروف وأصوات، ولكنها ليست قائمة بذاته، وإنما يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو الملك جبريل أو النبي، وهو حادث[3].

فالمعتزلة يقولون بحدوث الكلام، زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والأصوات، وذلك مستحيل على الله تعالى، فكلام الله تعالى عندهم مخلوق لأن الله خلقه في بعض الأجرام[4].

ورد عليهم الأشاعرة:

بأن هذا القول لا ننكره، بل نقول به، ونسميه كلاماً لفظياً، ونعترف بحدوثه، وعدم قيامه بذاته تعالى، ولكنا نثبت وراءه الكلام النفسي، الذي نعبر عنه بالألفاظ[5].

لكن المعتزلة قالوا: بأن هذا الذي تسمونه (الكلام النفسي) راجع إلى صفة العلم، إن كان المدلول خبراً. وراجع إلى صفة الإرادة، إن كان أمراً أو نهياً[6].

وحين ذهب المعتزلة إلى هذا الرأي قالوا: القرآن كلام الله مخلوق.

والمعتزلة رأوا أن مقالة أهل السنّة، بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، قد يتخذه

---

(١) المواقف وشرحه ص٤٦٩.

(٢) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٨٤.

(٣) المواقف وابن قُطلوبُغا والمسامرة السابقة، وانظر الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة لهاشم الحسني ط١ لسنة ١٩٦٤ ص١٨٩ نقلاً عن كشف الحق للعلامة الحلّي ص١٨ و١٩ وتوحيد الصدوق ص٢٨٨ وأوائل المقالات للشيخ المفيد ص١٩.

(٤) الباجوري على الجوهرة ج١ ص٨٤.

(٥) المواقف وشرحه ص٤٩٦ والمسامرة ص٧٧ وابن قطلوبغا ص٧٩.

(٦) كبرى اليقينيات ص١٣١.

النصارى حجة أو ذريعة للتشكيك، لحمل المسلمين على اعتقاد: أنّ المسيح إله أو قديم.

روي عن (يوحنا الدّمشقي) أنه كان يلقن بعض المسيحيين، ليجادلوا المسلمين، فيقول: (إذا سألك المسلم: ما تقول في المسيح؟ فقل: إنه كلمة الله. ثم ليسأل النصرانيُّ المسلم: بمَ سمي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧] فليسأله عن كلمة الله وروحه، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه: بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح. فإن قلت ذلك فسيفحَم المسلم، لأن مَن يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين)[1].

والمعتزلة حين قالوا بخلق القرآن، لم يكن في الحقيقة رداً على النصارى، وإنما صدر عن مسألة فلسفية تتضح فيما قدمناه من رأيهم في صفة الكلام. ولكن مع هذا رأوا: أن القول بأن القرآن غير مخلوق، قد يؤدي إلى ما يضاهي قول النصارى في المسيح، وإلى القول بتعدُّد القدماء، كما هو معلوم من قولهم بنفي الصفات كما تقدم.

أما الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فإن معنى (كلمته) فيها هو: أنه حصل بكلمة (كن) من غير مادة معتادة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال الإمام الغَزالي: لكل مولود سبب قريب وبعيد، فالأول: المني، والثاني: قول كن. ولما دلّ الدليل على عدم القريب في حق عيسى عليه السلام، أضافَهُ إلى البعيد، وهو كن، إشارةً إلى انتفاء القريب. وأوضحه بقوله سبحانه: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: أوصلها إليها، وحصّلها فيها، فجعله كالمني الذي يلقى في الرحم[2].

---

(١) المذاهب الإسلامية ـ أبو زهرة ص٢٦٠ ونقل النص عن كتاب تراث الإسلام.

(٢) روح المعاني ج٦ ص٢٤ وانظر ج٣ ص١٦٠.

أساس الخلاف بين المعتزلة وأهل السنّة في مسألة الكلام:

قال التَّفْتَازاني في شرح المقاصد مبيِّناً أساس الخلاف بين المعتزلة وأهل السنّة:

(وهو في التحقيق عائد إلى إثبات كلام النفس ونفيه، وأن القرآن هو أو هذا المؤلَّف من الحروف الذي هو كلام حسي، وإلا فلا نزاع لنا في حدوث الكلام الحسي ولا لهم في قِدَم النفسي لو ثبت)[1].

إذن فالخلاف القائم بين أهل السنّة والمعتزلة ينحصر في تسمية الكلام النفسي.

فالمعتزلة يقولون: بأن الكلام النفسي لا يسمى كلاماً، وإنما هو راجع إلى صفة الإرادة إن كان المدلول أمراً أو نهياً، وراجع إلى صفة العلم إن كان خبراً.

أما أهل السنّة فيقولون: نسمِّيه الكلام النفسي، وهو صفة زائدة على الإرادة والعلم، قائمة بذاته تعالى.

٣ ـ مبتدعة الحنابلة:

كلامه تعالى عبارة عن حرف وصوت، يقومان بذاته تعالى، وهو قديم، حتى غلا بعضهم جهلاً، فقال: الجلْد والغلاف قديمان، فضلاً: عن المصْحَف[2].

وهو قول باطل لأن:

حصول كل حرف ووجوده لا يمكن تحققه إلا بعد انقضاء الحرف الذي قبله، فيكون الحرف الأول منقضياً، ويكون الذي بعده أول. وقد علمنا أن ما ينقضي ويتناهى أو يكون له أول، لا يمكن أن يكون قديماً، فيكون حادثاً[3]، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

٤ ـ الكَرَّامية:

وهؤلاء وافقوا الحنابلة في أن كلامه تعالى حروف وأصوات، ولكنهم سمُّوا ذلك قولاً له، وسلّموا أنه حادث، وقالوا: هو قائم بذاته لتجويزهم قيام الحوادث به وهو باطل[4]، لأن ما يقوم به الحادث فهو حادث، وقد ثبت أن الله تعالى قديم فيما تقدم.

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٠٠ وانظر:
المواقف وشرحه ص٤٩٦ والمعتقد الإيماني شرح منظومة الشَّيْبَاني ص١٥ ـ ١٦.

(٢) المواقف وشرحه ص٤٩٥ والمسامرة ص٧٧ وابن قطلوبُغا على المسايرة ص٧٩.

(٣) المواقف وشرحه ص٤٩٦ وابن قطلوبغا السابق.

(٤) المواقف السابق والمسامرة ص٧٧ وابن قطلوبغا على المسايرة ص٧٩.

تعلق صفة الكلام:

تتعلق صفة الكلام بالواجبات والممكنات والمستحيلات، لأن تعلقها تعلق دلالة وبيان أو أمر ونهي، وقد احتوى بيانه تعالى وأمره ونهيه الحديث عن الواجب والممكن والمستحيل، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكريمة[1].

٧ ـ الحياة

صفة أزلية توجب صحة العلم والإرادة وباقي صفات المعاني والمعنوية[2]. وليس معنى الحياة في حقه تعالى، ما يقوله الطبيعي من قوة الحس ولا قوة التغذية ولا القوة التابعة للاعتدال النوعي[3]، كما أن حياة الله بلا روح، بخلاف حياة الحادث فإنها بالروح[4].

وضدها: الموت.

الدليل العقلي على ذلك:

أ ـ لو لم يتصف الله تعالى بالحياة، لما صحّ اتصافه بالقدرة والإرادة والعلم، لأنه لا يتصور قيامها بغير حي، وهو محال[5].

ب ـ الحياة صفة كمال، ونقيضها نقص، والله منزّه عن النقائص[6].

جـ ـ اتصافه تعالى بضد الحياة، لا تجعله واهب الحياة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه[7].

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر: ٦٥].

تعلق صفة الحياة:

صفة الحياة لا تتعلق بموجود أو معدوم، فلا تستلزم أمراً زائداً على القيام بمحلها، كما تقدم في بيان معنى التعلق.

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) الدّردير على الخريدة ص٧٨ والصاوي عليه.

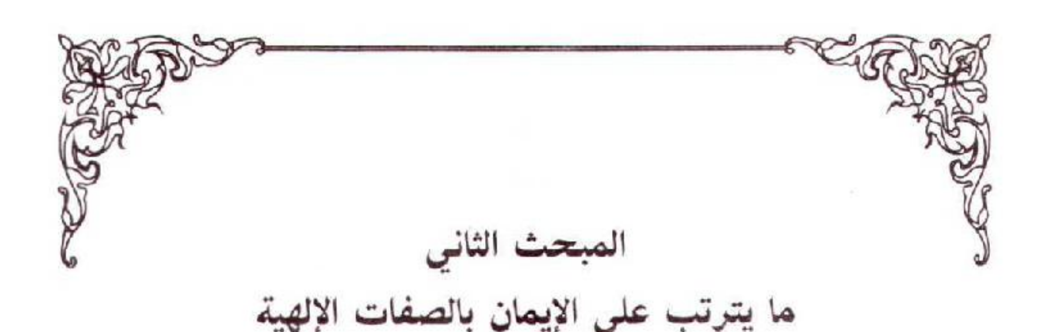
(٣) المسامرة ص٦٢.

(٤) الصاوي على الدردير ص٧٨.

(٥) المواقف ص٤٩٢ والمقاصد وشرحه ج٢ ص٩٧ والباجوري على الجوهرة ج١ ص٦٤.

(٦) ابن قطلوبغا على المسايرة ص٦٢.

(٧) رسالة في التوحيد للطائي ص٤٩.



المبحث الثاني
ما يترتب على الإيمان بالصفات الإلهية

المطلب الأول
ما يستحيل في حقه تعالى

يستحيل على الله تبارك وتعالى أضداد الصفات الواجبة له المتقدمة التي أثبتناها، وهي:

العدَم ضد الوجود، والحدوث ضد القِدم، والفناء ضد البقاء، والمماثلة للحوادث ضد المخالفة للحوادث، والافتقار إلى المحل والمخصِّص ضد القيام بالنفس، والتعدد ضد الوحدانية، والعَجْز ضد القدرة، والكراهية ضد الإرادة، والجهل ضد العلم، والموت ضد الحياة، والصمم ضد السمع، والعمى ضد البصر، والبكم ضد الكلام[١].

الدليل على ذلك:

إن كل قابل الشيء لا يخلو عنه أو ضده:

وهو تعالى قابل لتلك الصفات الواجبة، فلو لم يتصف بها لزم أن يتصف بأضدادها، وهذه الأضداد نقائص، والنقص عليه تعالى محال.

فهذه الأضداد محالة عليه تعالى[٢].

---

(١) الدَّرْدير شرح الخريدة ص٩٢ ـ ٩٣ والباجوري شرح الجوهرة ص٨٦ تبعاً للسَّنوسي، ورسالة في التوحيد للطائي ص٢٧.

(٢) الباجوري على السَّنوسية ص٣٨.

المطلب الثاني
ما يجوز في حقه تعالى

يجوز في حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه، كالخلق والرحمة والعذاب والأمانة والإحياء...

فلا يجب عليه شيء، فهو الفاعل المختار المتصرف في مُلكه كيف يشاء، لا يشاركه في التصرف، ولا يحول دون تصرفه أحد.

وأفعاله جميعاً جارية وفق الحكمة والعدل والصواب، سواء علمت تلك الحكمة أو جهلت[1].

الدليل العقلي على ذلك:

لو وجب عليه تعالى فعل شيء من الممكنات، أو استحال عليه، لصار الممكن واجباً أو مستحيلاً، وهو باطل[2].

الدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤].

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

* * *

رؤية الله تعالى

اختلفت فرق المسلمين في رؤية الله سبحانه وتعالى في اليوم الآخر على قولين:

---

(١) رسالة التوحيد للطائي ص٢٧ وغاية المرام في عقائد أهل الإسلام للحاج حمدي الأعظمي طبعة ٢ ص٣٠.

(٢) الباجوري على السَّنوسِية ص٣٨.

القول الأول:

تجوز الرؤية: وهو قول جمهور المسلمين، بدليل النقل والعقل.

قالوا: يرى من غير تكيُّف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام، ومن غير إحاطة، بل يحار العبد في العظمة والجلال، حتى لا يعرف اسمه، ولا يشعر بمَن حوله من الخلائق، فإن العقل يعجز هناك عن الفهم، ويتلاشى الكل في جنب عظمة الله تعالى[1].

ودليله من المنقول:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

ناضرة: أي جميلة، وناظرة: من النظر أي الرؤية.

ذلك لأن النظر:

يفيد الرؤية إذا تعدى بإلى، كما في هذه الآية.

ويفيد الانتظار إذا تعدى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

ويفيد معنى التفكر والاعتبار إذا تعدى بفي، مثل: نظرت في الكتاب والأمر.

ويفيد معنى الرأفة إذا تعدى باللام، مثل: نظر السلطان لفلان[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والحسنى: الجنة، والزيادة: الرؤية كما ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم[3].

---

(١) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص١٩ وانظر الدردير شرح الخريدة والصاوي عليه ص١٠٠ وفي المسايرة والمسامرة عليه ص٤٣ «أن الرؤية نوع علم خاص يخلقه الله تعالى في الحي، غير مشروط بمقابلة ولا غيرها».

(٢) الدواني على العقائد العضدية ج٢ ص١٧٦ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٤٣ وحادي الأرواح لابن القيم ط٤ سنة ١٩٦٢ ص٢٣٠ وانظر أصول الدين للبغدادي ص١٠٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٣ ـ ١٤٤ ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ج٢ ص٢٤٠ وما وبعدها، والباجوري على الجوهرة ج٢ ص١٧.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] والاستدلال بها على الرؤية من وجوه:

أ ـ أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم، وأعلم الناس بربه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو من أعظم المحال[١] إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية[٢]. فكيف يجوز للمعتزلي ـ المنكر للرؤية كما سيأتي ـ أن يكون أعلم من موسى، فيما يجب لله تعالى ويستحيل عليه، مع أن المقصود من بعثه الأنبياء عليهم السلام الدعوة إلى العقائد الحقة والأعمال الصالحة[٣].

ب ـ قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل إني لا أُرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي.

والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن مَن كان في كمه حجر، فظنه رجل طعاماً، فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: إنه لا يؤكل. أما إذا كان طعاماً، صحّ أن يقال: إنك لن تأكله. وهذا يدل على أن سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ـ أي الدنيا ـ لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف[٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ووجه الاستدلال بها: أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، ويكون بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السِّنَة والنوم المتضمن كمال القيّومية، وبنفي الموت الذي يتضمن كمال الحياة...

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية السابق وحادي الأرواح ص٢٢٣ والمسايرة والمسامرة عليها ص٤٠.

(٢) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٢٠ وانظر المواقف ص٥٠٤.

(٣) المسامرة ص٤١ والدّواني ج٢ ص١٦٨.

(٤) حادي الأرواح ص٢٢٣ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٤٥ وانظر وجوهاً أخرى فيهما غير ما ذكرت.

فالآية تدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه يرى، ولكن لتعاليه عن التناهي والاتصاف بالحدود والجوانب، لا يدرك بالأبصار، ولا يحاط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1] [طه: ١١٠].

٥ ـ حديث أبي هُريرة ﷺ الصحيح: إن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تُضارُّون في القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فهل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»[2].

٦ ـ حديث صُهَيْب الصحيح، قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «**إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً، يريد أن ينجزَكُموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقل موازينَنا، ويُبَيِّضْ وجوهنا، ويُدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟** قال: **فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه**، قال: **فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر بأعينهم**»[3].

وعدّ ابن القيم في حادي الأرواح رواة مَن روى رؤية الباري ﷻ فزادوا على الحد[4] (نحو ثلاثين صحابياً)[5].

---

(١) حادي الأرواح ص٢٢٨ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٤٤ وما بعدها. وانظر وجوهاً أخرى فيهما أيضاً وانظر التذكرة للقرطبي ص٤٩٢ وما بعدها.

(٢) الحديث متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، واللفظ له في كتاب التوحيد ـ باب قوله الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فتح الباري ج١٣ ص٤١٩ وصحيح مسلم في كتاب الإيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية ج١ ص١٦٣.

(٣) شرح الطَّحاوية ص١٤٣ ـ ١٤٨ ولوامع الأنوار البهية ج٢ ص٢٤٠ وما بعدها، والباجوري شرح الجوهرة ج٢ ص١٧.

قال العلماء: كان التشبيه للرؤية وهو فعل الرائي لا المرئي، والمعنى: ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك، وتنتفي معها الريبة، كرؤيتكم القمر، لا ترتابون ولا تمترون./ لوامع الأنوار ج٢ ص٢٤٣.

وحديث صُهَيْب في: مسند أحمد، واللفظ له ج٤ ص٣٣٣ وصحيح مسلم في كتاب الإيمان ـ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه ج١ ص١٦٣ وسنن الترمذي ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ج٧ ص٢٣٠ وسنن ابن ماجة ـ المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجَهْمِية ج١ ص٦٧.

(٤) حادي الأرواح ص٢٣١ وما بعدها ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٤٣.

(٥) شرح الطحاوية السابق ص١٤٨.

والإجماع:

أجمع الصحابة والتابعون على: أن الله يُرى في الآخرة، لابتهالهم إلى الله سبحانه في طلب لذّةِ النظر إلى وجهه الكريم واعتقادهم بذلك، كان ذلك بقرائن من أحوال رسول الله ﷺ، وجملة من ألفاظه الصريحة التي لا تدخل تحت الحَصْر[1].

قال مالك ؓ: لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه، ولو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يعير الكافرون بالحِجاب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[2] [المطففين: ١٥].

وقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا[3].

ودليل المعقول:

أ ـ أن الله تعالى موجود، وكل موجود يصح أن يرى، فالباري ﷻ يصح أن يرى[4].

ب ـ كما جاز أن يعلم الباري ﷻ من غير كيفية وصورة جاز أن يرى من غير كيفية وصورة[5].

القول الثاني:

لا تجوز الرؤية وهو قول الجَهْمية والمعتزلة والخوارج والإمامية والنَّجّارية والزيدية من الشيعة[6].

مستدلين بالنقل والعقل.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص١١٢ وانظر مَن ابتهل بالدعاء في حادي الأرواح ص٢٥٨.

(٢) الباجوري شرح الجوهرة ج٢ ص١٧ ـ ١٨.

(٣) شرح الطحاوية ص١٤٤ وحادي الأرواح ص٢٢٨ وانظر قول الإمام الشافعي في كتابه أحكام القرآن ص٤٠.

(٤) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص١٧.

(٥) المسامرة ص٤٣.

(٦) شرح ابن قُطلوبُغا على المسايرة ص٣٧ وشرح الطحاوية ص١٤٤ وحادي الأرواح ص٢٢٢ والمواقف ص٥٠٢ ومقالات الإسلاميين ج١ ص٢١٨ وعقائد الإمامية للمظفر ص٣٦ والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للحسني ص١٩٥ ناقلاً عن كشف الحق للحِلي ص١١ وتوحيد الصدوق.

فمن المنقول:

قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1].

ورد عليهم: بأن هاتين الآيتين دليل عليهم لا لهم كما تقدم.

وزعم الزَمَخْشري - وهو من المعتزلة - بأن (لن) تفيد التأبيد، تأبيداً لما ذهبوا إليه من استحالة الرؤية.

ورد بما يأتي:

أ - أن (لن) لا تفيد التأبيد، والدليل على ذلك: أن الله تعالى أخبر عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت أبداً، بقوله سبحانه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥] مع أنهم يتمنون الموت في الآخرة، ليتخلصوا من العذاب ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فلو كانت (لن) للتأبيد الشامل للدنيا والآخرة كما يزعم المعتزلة لما جاز أن يتمنّى اليهود الموت في الآخرة.

ب - (لن) للتوكيد، بدلالة قوله: (أبداً)، قال ابن مالك:

ومَن رأى النفي بلَن مؤبَّدا ... فقولَه اردُدْ وسواه فاعضُدا

وإذا أريد بها التأبيد فهو على تأبيد النفي في الدنيا لا بالآخرة، بدلالة (لن) في الآية المتقدمة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾[2].

ومن المعقول:

أنه لو كان تعالى مرئياً، لكان مقابلاً للرائي بالضرورة، فيكون في جهة وحيز.

---

(١) شرح الطحاوية وحادي الأرواح المتقدمة.

(٢) شرح الطحاوية ص١٤٥ - ١٤٦ والدَّوَّاني ص١٨٠ - ١٨١ وأصول الدين ص٩٩.

لم يذكر الزَمَخْشري في تفسيره ولا في كتابه (المفصَّل في النحو) أن (لن) تفيد التأبيد، وإنما ذكر أنها تفيد تأكيد النفي.

ولكن في بعض نسخ كتابه (الأنموذج في النحو): أن (لن) للتأبيد. وفي نسخ أخرى: أنها للتأكيد، كما صرح الأرْدَبيلي في شرحه على الأُنْموذَج ص٢٩٢.

ورد: بأن لزوم الجهة والحَيِّز ممنوع، إذ الرؤية نوع كشف وعلم للمدرك وكقوة يجعلها الله في الرائي، من غير أن ينقص منه قدر من الإدراك، ولا يشترط فيها: مقابلة المرئي بجهة أو في جهة معها مسافة، ومن غير إحاطة بمجموع المرئي[1].

وأخيراً:

فإن هذا الخلاف ليس بالأمر الخطير، ما دام الفريقان ينزهان الله تعالى عن الجهة والتجسيم.

فالفريق الذي ينكر الرؤية، يريد بإنكارها تنزيهَ الله تعالى عن الجهة والتجسيم.

والفريق الذي يثبت الرؤية رأى النصوص والأدلة صريحة بإثباتها فأثبتها، لكنه ينزه الله تعالى عن الجهة والتجسيم فقال: (يرى من غير كيفية ولا إحاطة).

ثم إن الرؤية التي قالوا بها تكون في الآخرة، وأوضاع الآخرة لا تُشبه الحياة الدنيا، كما هو معلوم.

رؤية الله في الدنيا:

واتفقت الأمة على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا.

إلا أنهم اختلفوا في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا، فمنهم مَن أثبتها، ومنهم مَن نفاها، وكل من الفريقين يستدل بالأدلة السمعية.

ولما كان التنازع في هذه المسألة مأثوراً، فقال بكل منهما بعض الصحابة، ولما كان الاحتمال للقولين ممكناً، فلا يدعو عندئذ إلى الجزم بواحد من القولين[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) المسامرة ص٤١ و٤٣ والدواني ج٢ ص١٧٨ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص١٨ والدَّرْدِير شرح الخريدة ص١٠٠ إلا أن شارح الطحاوية - وهو ممن يثبتون صفة العلو لله تعالى - بعد أن جاء بأدلة الرؤية من الكتاب والسنة - قال في ص١٤٩: (وفيه دليل على علو الله على خلقه، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة، ومَن قال يرى لا في جهة، فليراجع عقله، فإما أن يكون مكابراً لعقله وفي عقله شيء. وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل مَن سمعه بفطرته السليمة). وانظر حادي الأرواح ص٢٦٩، وهذا قول الحَشْوية الذين أثبتوا الجهة/ الاقتصاد في الاعتقاد ص١١٤.

(٢) الشفا للقاضي عِياض ص١٩٥ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٥١.

المطلب الثالث
القضاء والقدر

اختلف المتكلمون في تفسير القضاء والقدر على أقوال متعددة، منها: ما قاله الماتريدية:

القضاء: هو إيجاد الله تعالى الأشياء على وجه الإحكام والإتقان.

والقدر: هو علمه تعالى أزلاً صفات المخلوقات، أي: بما تكون عليه من حسن وقبح ونفع وضر..

وعليه: فيكون القضاء حادثاً، فهو صفة فعل.

ويكون القدر قديماً، لأنه راجع إلى صفة العلم.

وهذا القول موافق للغة، وهو أجدر الأقوال بالقبول، لأن أشهر معاني القضاء في اللغة الحُكْم، وهو يرجع إلى الفعل، فناسب تفسيره في الاصطلاح بالفعل.

وأما القدر فلم يرد أن معناه في اللغة الفعل، فناسب أن لا يفسَّر في الاصطلاح بالفعل، بل بالعلم.

وقال الأشاعرة بعكس ذلك، فجعلوا تعريف القضاء للقدر وتعريف القدر للقضاء[1].

فالقضاء والقدر راجعان لما تقدم من العلم والإرادة وتعلق القدرة، لكن لما كان خطر الجهل في هذا الفن عظيماً صرّح المتكلمون بهما[2].

❊ ❊ ❊

الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالجبر

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان. ورد ذلك بالحديث الصحيح حين جاء جبريلُ يسأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان يريد تعليم المسلمين أحكام دينهم. قال جبريل:

---

(١) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص١٦ ورسالة في التوحيد للطائي ص١٢٣، وتعريف الأشاعرة في المواقف ص٥٢٩.

(٢) الباجوري السابق ص١٧.

«فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت» رواه مسلم[1].

والمراد من الإيمان بالقضاء والقدر هو:

١ ـ التصديق بأن الباري ﷻ عالِم بالمخلوقات جميعاً في الأزل، وما يتعلق بها في المستقبل، كعلمه بالأزل بأن المرء يباشر الأسباب بإرادته واختياره المحض، ثم يجازيه على ما فعل.

٢ ـ التصديق بأن المخلوقات جميعاً وُجدت بإرادته ووفق علمه الأزلي. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

وعلى ذلك فلا علاقة بين الإيمان بالقضاء والقدر، وبين الجبر والاختيار، لأن العلم كاشف عما سيقع[2].

ذكر الإمام النَّوَوِي في شرح صحيح مسلم:

(قال الخَطَّابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه:

الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها)[3].

سئل عبد الله بن عمر ﵄ عمن يرتكب الموبقات، ويقولون كان ذلك في علم الله، فغضب، وقال: كان ذلك في علمه، ولم يكن علمه يحملهم عليها[4]، فالله تعالى يعلم بعلمه الأزلي أن الناس سيختارون طرقاً مختلفة، فيسّر لهم ما يختارون، وأقرهم عليه.

فعلمه تعالى لا يعني جَبْرَ الإنسان على فعل ما، فالأستاذ مثلاً يعلم مقدّماً أن التلميذ المهمل سيرسب في الامتحان. فهل يمكن للراسب أن يحتج على الأستاذ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ج١ ص٢٧.

(٢) انظر كبرى اليقينيات الكونية ص١٦٨ ـ ١٦٩ ورسالة في التوحيد ص١٢٣.

(٣) النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٩٩ بهامش إرشاد الساري للقسطلاني ط٧ بولاق سنة ١٣٢٣هـ.

(٤) رسالة في التوحيد ص١٢٤.

فيقول له: إن علمك برسوبي هو الذي رسَّبني؟ لا يقول بهذا أحد.

فعلم الله تعالى صفة كاشفة، ليس لها تأثير كالقدرة، فلا تعني إجبار العبد على شيء ما.

* * *

الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

والإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل على الإنسان أن يجدّ ويسعى.

قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] فلا كسل ولا تواكل.

وأمره أن لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وأمره أن يجاهد في سبيل الله، فقال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١][1].

* * *

ظهور مسألة القضاء والقدر

أثيرت مسألة القضاء والقدر عند علماء المسلمين، لما رأوا أن أدلة الكتاب والسنّة والعقول متعارضة بينها.

فمما يدل على أن الإنسان مجبر على فعله:

أ ـ قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

جـ ـ قوله ﷺ: «**الشقيُّ مَن شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد مَن وُعِظ بغيره**» رواه مسلم.

---

(١) السابق ص١٢٣.

د ـ ومن حجج العقل: أننا لو قلنا بأن العبد مخيّر وهو خالق أفعاله، لكانت قدرة الله تعالى محددة وغير شاملة، وأن العبد شريك لله تعالى في إيجاد العالم.

ومما يدل على أن الإنسان مخيّر ليس مجبوراً:

أ ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

جـ ـ ومن حجج العقل: أننا لو قلنا بأن الإنسان مجبر، فقدرته لا أثر لها، ولكن لو لم تكن له قدرة، لما كان معنى للأوامر والنواهي وللثواب والعقاب[١].

***

مذاهب المسلمين في القضاء والقدر

قَسّم العلماء الأفعال إلى قسمين:

١ ـ **أفعال اضطرارية**: وهي التي لا قدرة للإنسان ولا اختيار له فيها، كحركة ارتعاش اليد وحركة الجهاز العصبي والهضمي.

وقد اتفقت الفرق الإسلامية جميعها على أنها مخلوقة لله وليس للعبد دخل فيها، فلا تكليف فيها ولا ثواب ولا عقاب بها.

٢ ـ **أفعال اختيارية**: وهي التي للإنسان فيها قدرة واختيار كالسَّير والكلام. وهذه هي محل الخلاف بين علماء الفرق الإسلامية الذين ذهبوا فيها مذاهب مختلفة هي[٢]:

أولاً ـ مذهب الجَبْرية: أتباع الجَعْد بن دِرْهم والجَهْم بن صفوان الراسبي. وهؤلاء نفوا القدرة والاختيار والإرادة عن الإنسان، وقالوا: بأن الإنسان مجبَر على جميع أفعاله، فهو كالريشة في مهب الريح.

وأن الله تعالى خلق في الإنسان أفعاله بنوعيها الاضطرارية والاختيارية التي يخيل إلى بعضهم أنها اختيارية، ونسبتها إلى الإنسان على سبيل المجاز، كما تنسب

---

(١) انظر دراسات في العقائد للدكتور عرفان ص٢٤٥ وما بعدها.
وحديث: «الشقي مَن شقي...» في صحيح مسلم ـ كتاب القدر ـ باب كيفية الخلق الآدمي... ج٤ ص٢٠٣٧.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص١٦٩ ورسالة في التوحيد ص١٢٧.

إلى الجمادات والنباتات، فنقول: تغذى النبات، وتحرك الحجر.

وقالوا: الثواب والعقاب جبر، والتكاليف الشرعية أيضاً جبر.

واستدلوا على قولهم بالنصوص السابقة التي تفيد الجبر[1].

ورد:

بأن هذه النصوص يجب تأويلها كي تستقيم مع النصوص التي تعارضها، التي تثبت للعبد عملاً يستحق عليه العقاب والثواب والمدح والذم؛ لأن الله تعالى نفى الظلم عن نفسه، وأنه لا يحاسب إلا على العمل الذي اكتسبه العبد.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل: ١١١].

وقولهم هذا يؤدي إلى أنه لا تكليف بالأوامر والنواهي، ولا معنى لإرسال الرسل، ولا فائدة من ترتيب الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي.

ثانياً ـ مذهب **المعتزلة**: وهم يجمعون على أمور منها:

١ ـ أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم الاختيارية، وليس لله تعالى صنع ولا تقدير فيها لا بإيجاد ولا نفي.

٢ ـ الله عالم أزلاً بأفعال خلقه، فلم يزل عالماً بمن سيؤمن وبمن سيكفر. وهذا يميزهم عن القدرية الخاصة ـ أتباع مَعْبَد الجُهَني وغيلان الدمَشْقي ـ الذين أنكروا علم الله الأزلي، فالله عندهم لا يعلم أفعال الفرد إلا بعد وقوعها.

٣ ـ الإنسان فاعل مختار، يعمل بالقدرة الحادثة التي منحتها إياه العناية الإلهية، فيوجهها حسبما يريد.

٤ ـ أمر الله تعالى وإرادته متلازمان.

فالله تعالى يريد منا أن نوحّده، وأن نؤمن برسله، ونقيم الصلاة... ويأمرنا بذلك، ولا يريد منا المعاصي والكفر ولا يأمر به، وإنما هو من إرادة الإنسان واختياره وفعله.

واحتج المعتزلة بما يأتي:

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٥٥ والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي ص١٢٨ والمِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتاني ج١ ص١٠٨ والفصل في الملل والأهواء والنحل ج٣ ص٢٢ والتبصير في الدين ص٩٦ ونشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ج١ ص٣٢٤ وما بعدها.

لو كان الله تعالى خالقاً أفعال العباد، والعباد لا اختيار لهم:

أ ـ لبطل التكليف الشرعي من الأوامر والنواهي.

ب ـ ولبطل الثواب والعقاب.

جـ ـ ولانتفت فائدة بعثة الأنبياء[1].

ورد هذا القول:

بأن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله، بدليل:

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، وبما استدل به الأشاعرة على قولهم كما سيأتي.

ثالثاً ـ مذهب الأشاعرة: أتباع أبي الحسن الأشعري ويرون:

١ ـ أفعال الفرد الاختيارية مخلوقة لله تعالى، وليس للعبد تأثير في إيجادها، وأن الله تعالى يخلق فيه قدرة على إصدار ذلك الفعل للعبد.

فالفعل إبداع وإحداث لله وكسب للعبد[2].

والكسب هو اقتران قدرة العبد بفعل الله بمعنى:

أن الإنسان إذا أراد أن يفعل فعلاً من الأفعال، فإن الله يخلق له في هذه اللحظة نفسها قدرة على هذا الفعل، وهذه الأخيرة هي التي تكتسبه، لكنها لا تخلقه[3].

ورأيهم هذا توسط بين الجبرية والمعتزلة.

واستدلوا بما يأتي:

أ ـ بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وبقوله: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢، والرعد: ١٦، والزمر: ٦٢، وغافر: ٦٢]، والفعل من جملة الأشياء، فهو مخلوق لله تعالى.

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦١ ـ ٢٦٢ والفرق بين الفرق ص٩٤ والفصل ج٣ ص٣٣ ونهاية الإقدام للشهرستاني ص٧٩ وانظر مذاهب الإسلاميين ـ عبدالرحمن بدوي ج١ ص٤٨ وما بعدها.

(٢) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦٣ وشرح المقاصد ج٢ ص١٢٥ وما بعدها، وإحياء علوم الدين، والمواقف ص٥١٥ وما بعدها.

(٣) مناهج الأدلة ص١١٠.

ب ـ لو كان العبد موجداً لأفعاله بالاختيار والاستقلال، لوجب أن يعلم تفاصيلها، ويستحيل على الإنسان أن يحيط بجميع وجوه الفعل، إذ تصدر منه أفعال في غفلته وذهوله، وهي على الانسجام والانتظام وصفة الإتقان والاحكام، والعبد غير عالم بما يصدر منه.

فوجب أن يكون مصدر ذلك هو الله تعالى[1].

رابعاً ـ مذهب الإمامية: يصوره لنا الشيخ المظفر بقوله:

(إن أفعالنا من جهة، هي أفعالنا حقيقة ونحن أسبابها الطبيعية، وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى وداخلة في سلطانه، لأنه هو مفيض الوجود ومعطيه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأن لنا القدرة والاختيار فيما نفعل، ولم يفوّض إلينا خلق أفعالنا، حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والحكم والأمر، وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد)[2].

وهذا معنى ما روى عن الأئمة: لا جَبْر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين[3].

خامساً ـ مذهب ابن رشد: يرى ابن رشد أن التعارض الوارد بالنصوص لم يأتِ عَبَثاً، بل كان مقصوداً من الشارع، لكي يوحي إلى العلماء القادرين على فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً بالحل الذي يجب أن يذهب بالشبهة، التي ربما فرقت بين أهل الجدل.

ورأى:

أن الجبر لا يمكن أن يكون محضاً، وأن الاختيار لا يجوز أن يكون مطلقاً، بل الحق هو في التوسط بين الرأيين، وذلك: بأن نقرر أن أفعال الإنسان ليست اختيارية تماماً ولا اضطرارية تماماً، وإنما تتوقف على عاملين: إرادة حرة ترتبط في الوقت نفسه بأسباب خارجية تجري دائماً على نمط واحد أودعها الله في الكون[4]. وعليه رأى الأستاذ محمود قاسم أنه:

---

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦٧.

(٢) عقائد الإمامية للمظفر ص٤٤.

(٣) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للحسني ص٢١٢ وانظر أصول الدين الإسلامي لمحمد علي ناصر ـ صيدا ص٤٠ وما بعدها، وعقائد الإمامية الإثني عشرية للسيد إبراهيم الزنجاني ط٢ سنة ١٩٧٣ ص٣٦ ـ ٣٧.

(٤) مناهج الأدلة ص١١٨ ـ ١٢٠ (المقدمة لمحمود قاسم).

حل منطقي للمشكلة التي تنازع حولها المتكلمون[١] وهو ما يميل إليه العلم الحديث، الذي لا ينفي حرية الاختيار، والذي يعترف بوجود القوانين المطردة في الطبيعة[٢].

سؤال وجوابه:

فإذا قيل أن إيجاد الله المخلوقات على القدر المعين الذي سبق العلم به يفيد: أن الإنسان مكره على أفعاله.

فالجواب هو:

أن الأفعال الاضطرارية لا تكليف فيها، كما تقدم.

أما الأفعال الاختيارية فهي مخلوقة، كما مرّ في قول الأشاعرة، ولكن هذا الخلق لا يعني إكراه الإنسان عليها، وذلك:

لأن الإنسان مختار بوصفه كاسباً لفعله الاختياري لا بوصفه خالقاً له.

ذلك لأن كسب الفعل (أي تلبسك به) يتوقف على أمرين:

أ ـ وجود مقومات هذا الفعل في الخارج كلها المادية والمعنوية.

ب ـ اكتسابك له عن طريق انبعاثك نحوه.

فأنت مريد ومختار بوصفك كاسباً ومنبعثاً إليه، لا بوصفك خالقاً وموجداً مقوماته وعناصره.

وإيضاح ذلك يكون بالمثال الحسي الآتي:

اليد وما فيها من شرايين وأعصاب وقدرة من خلق الله ﷻ.

والورق بصورته وخصائصه من خلقه ﷻ.

والقلم بقابليته من خلقه تعالى أيضاً.

وتلاقي هذه العناصر لترسم خَطاً على الورَق من خلق الله أيضاً.

فذا معنى أن الله ﷻ هو الخالق لأفعال الإنسان.

ولا بد لكي توجد الكتابة منك، أن تعزم في نفسك على الكتابة، وأن تنبعث إرادتك على التنفيذ، فحينئذ يأذن الله تعالى للقوة التي أودعها في يدك، وللحبر أن

---

(١) المصدر السابق ص١٠٥.

(٢) المصدر السابق ص١٢٠.

ينساب كما تشاء، وللوَرَق أن يتأثر بذلك على النحو الذي تتحقق فيه الكتابة، وعندئذ تسمى كاتباً، وينسب إليك كسب هذا الفعل. فالقصد والعزيمة والكسب منك، وذلك بسر الإرادة التي ركبها الله فيك.

وخلق الفعل وأسبابه من الله تعالى، وإنما تكون المقاضاة والمحاسبة على القصد والكسب، لا على خلق الأسباب وخلق الفعل لنفسه.

كمَن يدهس بسيارته إنساناً فيقتله، لا يقاضى على الفعل لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات، بل صاحب الفعل المباشر هو السيارة نفسها، ولكنه يقاضى على الكسب.

وإذا قيل:

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

ويقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا يثبت أن إرادة الإنسان أسيرة في يد الله ﷻ.

والجواب:

أن معنى هذه الآيات: أن الله ﷻ لو شاء لأمدهم بلطف من عنده، يجعلهم يختارون الإيمان، ويرفضون أهواءهم، ولكنه لم يشأ، وشاء أن يجعل الإنسان بين جانبين يتجاذبانه، وهما: النفس بشهواتها والعقل بتدبيره.

ليظهر معنى التكليف ومجاهدة النفس في سبيله تعالى، وإلا لما أعدّ الأجر والثواب للطائعين المستقيمين والعقاب للعصاة المارقين عن سبيله.

وهنا جعل الله تعالى الإرادة الإنسانية بين لطف الله وعقابه.

فمَن آمن بالله وبرسالته ﷺ، وصمم على عدم معاندة الحق، وجاهد نفسه ضد الشهوات، فإن الله تعالى يوفقه ويُعينه. قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].

أما مَن عاند الله ورسوله، ولم يُلَبِّ إلا شهواته وأهواءه، وإذا ذُكّر بآيات الله أصَمَّ أذنه عنها، فإن هؤلاء يزج بهم في الغواية والضلال، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ

ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وهذه السنّة الإلهية هي تفسير قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي أن الله لا يعجزه شيء عن أن يقذف أسباب الهداية في قلب أضلّ الكافرين، وأن يقذف أسباب الضلالة في قلب أصلح عباده المؤمنين.

ولكنه سبحانه كتب على نفسه: أن لا يضل إلا مَن صرف نفسه عن أسباب الهداية، وأن يقرب أسباب الهداية لكل عازم على استجابة ما أمر الله به.

وإذا قيل:

إن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الدهر: ٣٠]، يدل على أن الإنسان لا يملك لنفسه أي مشيئة إلا بإذن الله ومشيئته.

فالجواب:

إن الآية توضح أن الإنسان ما كان ليتمتع بإرادة في كيانه يتجه بسرها إلى اختيار ما يشاء من التصرفات والأعمال لو لم يشأ الله ﷻ أن يضع في كيانه هذا السر العظيم[1].

وإذا قيل:

إن إرادة الله تعالى مطلقة وكاملة، فكيف يمكن أن نتصور إرادة للإنسان إلى جانبها، بعد أن قررنا أن الإنسان حر مختار في إرادته؟

والجواب:

أن تصرفات الإنسان الاضطرارية ليس للإنسان فيها كسب أو مشيئة، أما تصرفاته الناتجة عن اختياره وإرادته فهي مركز التكليف فيه. فإرادة الله تعالى تعلقت

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص١٦٦ وما بعدها، وانظر رسالة القضاء والقدر للشيخ محمد متولي شعراوي طبعة دار الشروق بمصر.

بأن تكون مريداً، فسرت إرادة الله ﷻ إلى كل ما تريده وتختاره من الأعمال، فلا تعارض بين إرادة الله تعالى وما تختاره عن طريق إرادتك الخاصة.

فلو فرضنا أن الله غير مريد لعمل قد اخترته بإرادتك، فمعنى ذلك أنه سبحانه غير مريد لإرادتك التي وجهتك إلى ذلك الفعل، وهو مناقض لما ثبت من أن الله ﷻ قد شاء لك أن تكون مريداً.

ومثاله:

عندك خادم تريد أن تعلم صدقه في الخدمة ومعاملته، تعطيه مبلغاً من المال، ليقضي بها الحوائج في السوق، فيتصرف به بكل حريته دون رقيب عليه.

فأنت بهذا قد أردتَ أن يكون حراً فيما يفعل ويترك، لا يستجيب إلا لنداء ضميره، فإرادتك قد تعلقت بأن يكون هذا الخادم مريداً لما يصنع بلا قسر حتى تعلم طويته، فإذا خان الأمانة أو صانها فأنت مريد لهاتين النتيجتين معاً، سواء كنت تحبها وترضاها أم لا.

وعليه فمصير إرادة الإنسان في جنب إرادة الله هي مصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده، فلا يقع في مُلكه تعالى إلا ما يشاء، ولا يناقضه أنه أعطاك إرادة ومشيئة تكسب بها كل ما تحب دون إكراه، لتتجلى طويتك في سلوكك، فتستحق بذلك ثواب الله أو عقابه[1].

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص١٦٢.




الفصل الثالث

النبوة

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: العقل الإنساني وحاجته إلى هدى النبوة.

المطلب الأول: وجود العقل.

المطلب الثاني: حاجة العقل إلى هدي النبوة.

المبحث الثاني: مناقشة منكري النبوات.

المبحث الثالث: النبوة العامة.

المطلب الأول: النبوة ومهمتها.

المطلب الثاني: مستلزمات النبوة: صفات الأنبياء، الوحي، المعجزة.

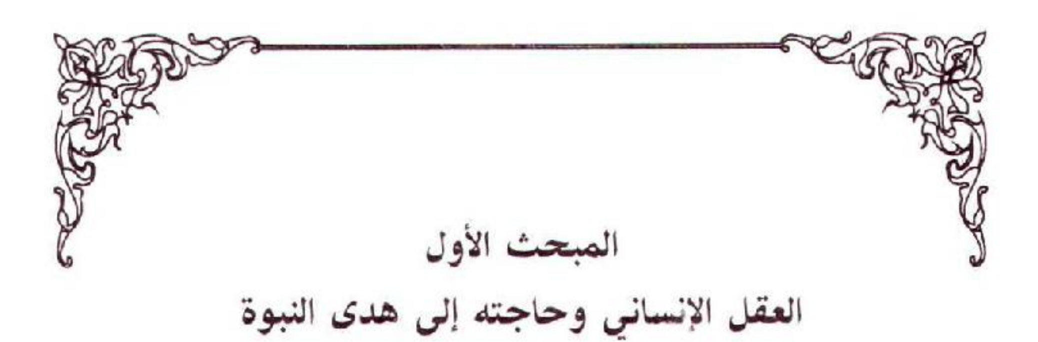
المبحث الرابع: النبوة الخاصة.

المطلب الأول: إثبات نبوة محمد ﷺ.

المطلب الثاني: رسالته خاتمة الشرائع وأصول دعوته.





المبحث الأول

العقل الإنساني وحاجته إلى هدى النبوة

وفيه مطلبان:

الأول: المعرفة العقلية.

الثاني: حاجة العقل إلى هدى النبوة.

المطلب الأول
المعرفة العقلية

وجود العقل:

القول بوجود العقل وبأن إدراكاته موصلة بصحيح النظر إلى العلم والمعرفة هو قول العقلاء عامة، وفلاسفة الإسلام خاصة.

والمعارض في ذلك فريقان:

الفريق الأول: يعترف بوجود العقل ولكنه ينكر معارفه العقلية وحقائقه العلمية ولا يقيم وزناً لإدراكاته. وهم طائفة من فلاسفة اليونان القدامى (السوفسطائيون)[1].

وذهب مذهبهم جماعة من المسلمين حيث ذهب البعض وهم الشيعة

(١) انظر قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص٣٧. وسفسطائي كلمة يونانية تعني «الحكيم»، والسوفسطائيون جماعة من معلمي الحكمة ظهروا في القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان القديمة. وأشهر دعاتها: بروتاكوراس (٤٨٠ق.م) ودانتفون وبروديكوس. انظر مذاهب ومفاهيم في الفلسفة والاجتماع للدكتور عبدالرزاق مسلم الماجد ص٦٦.

الإسماعيلية إلى: أن النظر غير كاف في اكتساب المعارف. وقالوا: لا بد من معونة معلم إلهي. ولذا يوجبون الرجوع إلى هذا المعلم (الإمام) بدون قيد ولا شرط، لأنه ـ على زعمهم ـ وحده الذي سبر باطن النصوص الدينية. وهو وحدَه الذي يميز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وهو معصوم عن الخطأ عمداً وسهواً، والحقيقة وقف عليه وحده[1].

وذهب بعض آخر، وهم المتصوفة إلى: أن الإلهام طريق المعرفة وليس العقل[2].

وقد فنَّد العقلانيون دعوى هذا الفريق، وبيّنوا زيفها، وأبطلوا حججها، وأثبتوا فسادها، وبُعدها عن الحقيقة والواقع.

فهذا أبو حامد الغَزالي يؤلف كتاباً: (القسطاس المستقيم) للرد على دعوى الإسماعيلية، ويبيّن فساد مذهبهم، وبطلان معتقدهم.

وقد حدّد الغزالي في هذا الكتاب قواعد التفكير الصحيح المفضية إلى معرفة الحقيقة، ومهّد للنظر العقلي طريقاً تؤمن لمَن يسلكها الوصول إلى تمييز الحق من الباطل[3]. وإليك جزءاً مما قاله في كتابه (مشكاة الأنوار) في توضيح حقيقة العقل وإمكاناته: العقل يدرك بذاته بكونه عارفاً، ويدرك معرفته لذاته، وينفذ ببصره إلى الأشياء، ويفهم حقائقها، ويستخرج منها أسبابها وأحكامها، أي مصدرها وسبب حدوثها ومكانتها في الموجودات ونسبتها إليها. ونشاطه هذا يمتد إلى كل الموجودات من محسوسات ومعقولات. إنه يدركها، ويتصرف في جميعها، ويطلق عليها أحكاماً يقينية صادقة. ثم إنه يدرك بنوع خاص المعقولات وهي غير متناهية، إذ يدرك الأعداد مهما كبرت وتضاعفت، وعلاوة على ذلك فالعقل منزَّه عما يطرؤ على الحس من غلط..[4].

وقال ابن حزم في الرد على دعوى القائلين بأن الإلهام طريق المعرفة وليس العقل: أن المدّعين للإلهام ولإدراك ما لا يدرك غيرهم بأول عقله لا يتفق إثنان منهم على ما يدّعيه كل واحد منهم إلهاماً أو إدراكاً، فصحّ بلا شك أنهم كذبة.. وأيضاً

---

(١) انظر راحة العقل للكرماني ص١٣٧ و١٩٤. وتوضيح المراد في شرح تجريد الاعتقاد ج٢ ص٦٧٦ والملَل والنِحَل للشَهْرَسْتاني ج٢ ص٢٩ ومقدمة القسطاس المستقيم لڤيكتور شلخت ص١٠.

(٢) انظر الأحكام لابن حَزم ج١ ص١٤.

(٣) مقدمة القسطاس المستقيم لڤيكتور شلخت ص١٤، ١٨.

(٤) المصدر السابق.

فإن الإلهام دعوى مجردة من الدليل، ولو أعطي كل امرىءٍ بدعواه المعَرّاة لما ثبت حق، ولا بطل باطل[١].

الفريق الثاني: ينكر العقل بمفهومه السابق، ويذهب إلى أن: (الحواس الظاهرة والمخيلة هي وسائلنا الوحيدة للمعرفة، وأن ما يسمى بالعقل إن هو إلا جملة أفعال ترجع إليها)[٢].

وأصحاب هذا المذهب يدعون بالحسيين أو التجريبيين أو الماديين، وقد ظهر هذا المذهب في الفلسفة الأوربية أخيراً. وكان من الممهدين له (فرنسيس بيكون) المتوفى ١٦٢٦م ومن أهم رجالاته (جون لوك) (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) و(دفيد هيوم) (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) وقد لقي هذا الاتجاه رواجاً وانتشاراً كبيرين عند قسم كبير من الفلاسفة وأصبح له معلمون وأنصار في كل مكان.

إلا أنه واجه ويواجه معارضة شديدة من العقلانيين، وقد قام قسم منهم بدراسات علمية تجريبية للظواهر النفسية الخارقة أثبتوا فيها مغايرة العقل للمادة وقدرته على الإدراك بدون تدخل الحواس، كان أهمها ظاهرة (التلباثي) أي انتقال الفكر. وعرّفه الدكتور (راين) بأنه: الإحساس بأفكار شخص آخر، وبدون تدخل الحواس[٣]. وظاهرة الاستشفاف أو (الجلاء البصري) وعرّفه الدكتور راين بأنه: الإحساس بالأشياء أو الحوادث بدون تدخل الحواس أيضاً[٤]. كما أثبت هؤلاء الباحثون أن ظاهرتَيْ انتقال الفكر، والجلاء البصري مظهران لظاهرة واحدة سمُّوها (الإدراك خارج الحواس).

وأثبتوا أن هذه الظاهرة، أي ظاهرة الإدراك خارج الحواس، لا تخضع للعلاقة المكانية والزمانية التي تخضع لها جميع الظواهر المادية، وظواهر الطاقة سواء أكانت كهربائية أو حرارية أو ضوئية أو غيرها.

وقد عرضت نتائج هذه الأبحاث على مؤتمرين لعلماء الولايات المتحدة، أولهما: في الرياضيات الإحصائية الذي انعقد عام ١٩٣٧. وثانيهما: لعلماء النفس الذي انعقد عام ١٩٣٨م، وأقرّ المؤتمرون هذه الأبحاث، وسلّموا بالنتائج التي تمخضت عنها[٥].

---

(١) الأحكام ج١ ص١٧.

(٢) العقل والوجود ليوسف كرم ص٨ وانظر دائرة معارف القرن العشرين مادة (عقل).

(٣) (٤) العقل وسطوته ص٢٦ للدكتور ج.ب. راين أستاذ علم النفس في جامعة ديوك الأمريكية، ترجمة الدكتور محمد الحلوجي.

(٥) انظر المصدر السابق ص١٨٥.

واتفقت المذاهب الإسلامية على عدم الاقتصار على المعارف العقلية، وقرروا حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في تحديد الأعمال، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الله، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف، من أحوال الآخرة، وتنبيه العقل إلى ما غفل عنه، أو ضعف عن إدراكه، وذلك المعين هو النبي، ووافقهم في ذلك جل الفلاسفة وجميع المؤمنين بالشرائع السماوية. وخالف في ذلك بعض الفلاسفة كبراهمة الهند، حيث اكتفوا بالمعارف، وقرروا عدم حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة.

المطلب الثاني
حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة

إيمان العقل.. وإيمان الوحي..

إن الاعتقاد بوجود الله تعالى والإيمان بصفاته الكمالية، كما يتم بواسطة مَن اختصهم الله بالبشارة والنذارة، يتم بالعقل الإنساني على نحو الاستقلال. فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات وجود الله تعالى والإيمان بصفاته غير السمعية دون أن تبلغه بذلك دعوة نبي كما حدث لبعض مَن سمت عقولهم، وصفت نفوسهم من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك إلى الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم. وأعتقد أن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية مقرونان بأعمال الإنسان في هذه الحياة الفانية، سواء أكانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات، أو بدنية كأنواع العبادات، ثم خلص من ذلك إلى أن سعادة النفس إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وأن شقاوتها إنما تكون بالجهل بالله تعالى وبالرذائل، فلا مانع حينئذ من أن يدعو هذا الإنسان المدرك لهذه الحقائق إلى الله، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه[(1)].

---

(1) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص٧٢ و٨٩ وفي ٩٠ يقول: «اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة إلا قليلاً لا يقام لهم وزن على: أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء (أي لا تزول زوالاً مطلقاً)، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء. وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم في طريق الاستدلال عليه.

كما فعل أخناتون في مصر الفرعونية، وبرهام في الهند، وكنفيشيوس في الصين، وزرادشت في فارس، وكثير من فلاسفة اليونان مثل أرسطو، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون.

ولكن... لما كان ذلك ليس حالاً لعامة الناس. وإنما قد يتيسر لبعض مَن اختصهم الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم تبلغه دعوة نبي، ولو بلغته لكان أسرع الناس إلى اتباعه، حتى هؤلاء قد يصلون بعقولهم من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي.

ولما كانت حاجات الإنسان غير محدودة ومعيشته غير مختصة بجو من الأجواء، وكان ما وهب من القوى الإدراكية مختلف، باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته، فما يعتبر مصلحة عند طائفة من الناس قد يعتبر مفسدة عند طائفة أخرى، وما يعتبر فضيلة عند جماعة قد يعتبر رذيلة عند جماعة أخرى.

فلو ترك التشريع والتقنين لعقول البشر لاختلط عليهم الأمر في معرفة الخير والشر في معاملة بعضهم بعضاً. ولما أمكن التمييز بين الحسن والقبيح، والفضيلة والرذيلة - فمثلاً - في الوقت الذي يرى فيه الرأسمالي بإخلاص: أن الحضارة البشرية مهددة بالزوال إذا حلّت الاشتراكية محل الحرية الاقتصادية، يرى الاشتراكي بإخلاص لا يقل عن إخلاص زميله: أنه لا يوجد سوى وسيلة واحدة لصيانة الحضارة البشرية، وهي إلغاء النظام الرأسمالي وإحلال النظام الاشتراكي محله[1].

مع أن الجميع متفقون على أن من الأعمال ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والفكر المعتدل منهم مَن يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه نتيجة اختلاف أمزجتهم ومناشئهم. فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة اللهم إلاّ في القليل النادر[2].

ولما كانت مراتب الأخلاق متفاوتة عند البشر نظراً لتفاوت استعداداتهم واختلاف أصنافهم وبيئاتهم، فإن البشر لو تركوا لعقولهم لما استطاعوا تكملة أخلاقهم وتزكية نفوسهم.

---

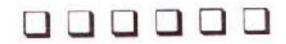
(١)(٢) انظر منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد ص٢٣، ورسالة التوحيد ص٧٦، وأصول الدين الإسلامي للشيخ محمد علي ص١٥٣، والإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٢١ - ١٢٧.

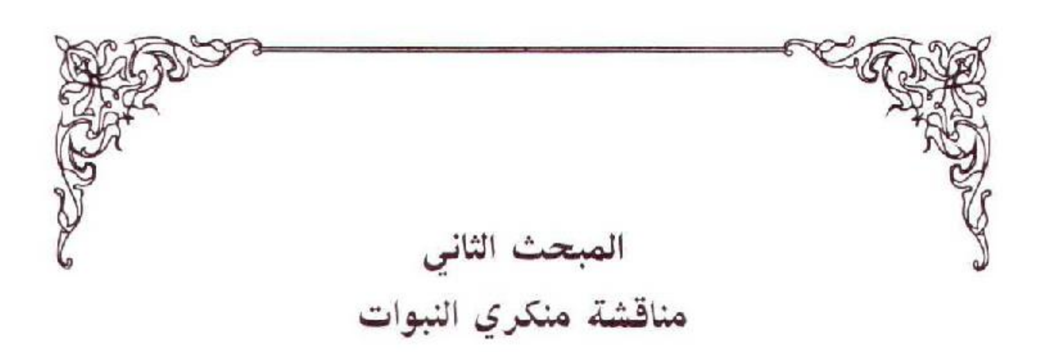
ولما كان من أحوال الآخرة ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وهو تفضيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما.

لذلك كله كان العقل البشري محتاجاً في قيادة القوى الإدراكية البدنية إلى ما هو خير له في الحياتين إلى معين يستعين به في بيان وجه الاعتقاد بالله وصفاته وتحديد أنواع الأعمال وبيان النافع منها والضار وبيان ما ينبغي أن يعرف من الحياة الأخرى.

وبالجملة إن العقل البشري بحاجة إلى مَن يُعِينه في تحصيل وسائل السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا المعين يجب أن يكون من جنس البشر، حتى يفهموا منه أو عنه ما يقول، وما يأتي به من عند ربه، وهذا المعين هو النبي ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].





المبحث الثاني
مناقشة منكري النبوات

النتيجة التي خرجنا بها من مبحثنا السابق هي:

أن الإنسان لا يستطيع أن يكتفي بعقله وضميره في كل شيء مما ينبغي له أن يعرفه مما يتعلق بالله وصفاته، وما لا بد منه من شرائع لتنظيم حياته الأولى، وصلاح أمر المجتمع فيها، وحياته الأخرى وما يكون فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم.

ومن هنا كانت حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في إدراك ما يعجز عن إدراكه من ذلك حاجة ماسة وضرورة ملحّة.

ومع ذلك فقد ذهب قوم من الناس إلى القول بعدم حاجة الإنسان إلى هَدي النبوة ووحي الرسالة.

زاعمين أن الإنسان يستطيع أن يقوم وحدَهُ، وأن يكتفي بعقله في تنظيم حياته وتلبية حاجاته.

والذاهبون إلى ذلك فريقان:

فريق ينكر النبوات والرسالات السماوية، لأنه ينكر الإله تعالى ولا يعترف بوجوده. ومن البديهي أن مَن ينكر المرسِل وينفي وجوده، لا بد وأن ينكر رسوله، ولا يعترف بهديه ورسالته، وقد عرف هؤلاء في التاريخ بالملحدين أو الماديين.

وقد وجد منهم جماعات في كل زمان ومكان. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يؤثروا في الرأي العام الإنساني، ولا أن يحرفوه عن فطرته، فبقي الإنسان مؤمناً بالله، مستنيراً برسالاته في دروب الحياة المظلمة.

ومناقشة هذا الفريق لا تكون في إثبات النبوات ومدى حاجة العقل الإنساني إلى هديها، وإنما تكون في البرهنة على وجود المبدع الأول، والخالق الأعظم لهذا الكون

وما فيه. ومحل ذلك مبحث الإلهيات، وليس هنا.

الفريق الثاني: يعترف بوجود الله - ﷻ - ويؤمن به، ولكنه ينكر النبوات والرسالات السماوية، مكتفين بما تدركه عقولهم من خير أو شر، فضيلة أو رذيلة، زاعمين أن بعث الرسل منافٍ للحكمة، فلا يقع من الحكيم تبارك وتعالى.

وعلى رأس هذا الفريق كثير من براهمة الهند[1] والصابئة[2] وبعض الفلاسفة، وقد تأثر بفلسفتهم بعض الزنادقة من المسلمين[3].

استدل هؤلاء على وجهة نظرهم بجملة أدلة، نورد أهمها ونبيّن تهافتها وبُعدها عن الحق والصواب فيما يلي:

١ - **قالوا**: إن ما يأتي به الرسول لا يخلو إما أن يكون مما يعرفه العقل، أو مما لا يعرفه.

فإن جاء بما يعرفه العقل كان لا فائدة منه، ولا حاجة لنا إليه، ويكون في العقل غنى وكفاية.

وإن جاء بما لا يعرفه العقل، كان حرياً به ألا يتلقى بالقبول، لأن المقبول هو الذي تدركه العقول.

وأجيب عنه: بأن هذا الدليل واضح البطلان، لأن كل مطلع على الرسالات

---

(١) البراهمة: نسبة إلى (برهم) وهو اسم الله في اللغة السنسكريتية. وهو عندهم الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس، ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له، وهو الأصل الأزلي الذي يستمد منه العالم وجوده.

والهندوسية: دين توحيد من جهة، ودين تعدد من جهة أخرى، وتظهر فيها عقائد بدائية كعبادة قوى الطبيعة، وعبادة الأجداد، وعبادة [illegible] بشكل خاص.

انظر أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي [illegible] والفصل في الملل والنحل لابن حزم [illegible] مقارنة للدكتور [illegible] عليان ص٨٧.

(٢) انظر [illegible] كتاب الصابئون [illegible]

(٣) [illegible] أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي المتوفى سنة [illegible]. وراوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان والزندقة حركة [illegible] هدمه، واعتمدت أسساً فكرية مناقضة له. انظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد [illegible] موسى ص١٢٣ والغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية للدكتور عبدالله سلوم السامرائي [illegible]. وابن الريوندي الملحد للدكتور عبدالأمير الأعسم.

السماوية يعلم أنها قد اشتملت على ما يعرفه العقل وعلى ما لا يعرفه.

فأما ما يعرفه العقل فكان لهذه الرسالات مهمة التأكيد عليه والإلزام به، وفي ذلك دعم لمكانة العقل، وتعبير عملي عن أهميته في بناء الحياة.

وأما ما لا يعرفه العقل ـ وهو الأكثر ـ فإن للرسالات السماوية دور إرشاد العقل إليه، وتنبيهه إلى ما فيه النافع الصالح، ووضع الحلول المناسبة لما يصادف الناس من مشاكل الحياة المتجددة، وشؤونها المعقدة.

وما قد يبدو مخالفاً لما يقتضيه العقل من التشريعات السماوية كبعض أعمال الحج[1] فهو ناشيء عن قصور العقل أحياناً عن إدراك المصالح والمفاسد الحقيقية وعدم إحاطته غالباً بالمصالح الأخروية[2].

٢ ـ قالوا: إن الرسول من جنس المرسل إليه، وتفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه حيف ومحاباة وخروج عن العدل والحكمة، وذلك غير جائز على الحكيم العادل ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأجيب عنه[3]:

١ ـ بأن الله جلّت حكمته إن يخص بفضله وكرمه مَن يشاء من خلقه كما أن له أن يسوي بين سائرهم.

وهذا لا ينافي كونه ـ تعالى ـ عادلاً حكيماً.

٢ ـ ويلزم من دليلكم... أن يكون الله غير عادل، لأنه خصّ بعض خلقه بالعلم والذكاء وكمال الجسم والحواس، وخلق في بعض آخر الجهل والغباء والنقص في الجسم والحواس.

---

(١) مثل تقبيل الحجر الأسود، والهرولة، ورمي الجمار، فإن العقل المجرد يعجز ولا شك عن إدراك الغاية منها، ويكون الإتيان بها من قبيل التعبد والتأسي بالرسول و﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذا ما حمل عمر بن الخطاب ﷺ على قوله، عندما همَّ بتقبيل الحجر: (أعرف أنك حجر لا تنفع ولا تضر، والله لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك). ولا شك أن في التأسي بالرسول والالتزام برسالته مصالح أخروية ومنافع دنيوية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

(٢) انظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للحِلّي ص٢٧٣.

(٣) انظر: التمهيد للباقِلاني ص١٠٤ ـ ١٠٦.

وأنتم لا تقولون بذلك، بل تقولون أن ذلك لمصلحة الطرفين وسبيل لهم إلى نفع عظيم، والله تعالى أعلم به.

فلتكن خصوصية بعض الخلق بالرسالة أو غيرها مصلحة للطرفين - الرسول والمرسل إليه - ولطفاً لهم في النظر في حجج العقول التي أمرهم بالرجوع إليها والعمل بموجبها.

٣ - **قالوا**: إن الله ﷻ حكيم. ومَن يبعث رسولاً إلى مَن يعلم أنه يكفر به ولا يصدق رسوله، بل يعصيه ويؤذيه يكون عابثاً. فوجب نفي بعث الرسل عن الله ﷻ لنفي العبث عنه.

وأجيب عنه: بأنه يترتب على دليلكم جواز بعث الرسل إلى مَن يعلم قبوله منهم وانتفاعه به.

كما يترتب عليه أن لا يحتج الله - تعالى - بالعقول، وما وضعه فيها من الأدلة على مَن يعلم أنه يجحدها ولا يستدل بها.

فإن قلتم: لقد استدل بها كثير، واهتدى بهديها كثير.

قلنا: وقد صدّق بالرسل كثير، واهتدى بهديهم كثير.

فما المانع من أن يحتج الله - ﷻ - على عباده عن طريق واحد منهم يرسله إليهم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وفنون المعرفة. كما احتج عليهم بالعقل، وجعله مصدراً للمعرفة[(١)].

٤ - **قالوا**: إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل لهداية الناس إلى الإيمان به، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم، فقد كان أجدر به، وأتم لمراده، أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به وإلى معرفة ما فيه خيرهم.

وأجيب عنه: بأنه يلزم من دليلكم القول بأنه كان أجدر به، وأولى في حكمته وأتم لمراده أن لا يدعو الناس للإيمان به والتعرف على شريعته عن طريق النظر العقلي والاستدلال المنطقي، سيما وأنه تعالى يعلم أن فيهم مَن لا يستدل وفيهم مَن لا يحسن الاستدلال.

فكان أولى به أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به...، ولا يكلفهم مؤونة النظر والاستدلال، وأن يلطف بهم إلطافاً يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة.

---

(١) التمهيد للباقلاني ص١٠٤ - ١٠٦.

فإن قلتم: إن الله تعالى قد رأى أن في تكليفهم بالإيمان عن طريق النظر والاستدلال مصلحة لهم، وتكريماً لعقولهم.

قلنا: وما المانع من أن يبعث إليهم رسولاً منهم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢][(١)] سيما وأن في ذلك - بدون شك - مصلحة محققة لهم، ودعماً لمعارفهم ومداركهم العقلية.

٥ - **قالوا**: إن كان الغرض من إرسال رسول هو استحقاق الثواب بالإيمان والطاعة، واستحقاق العقاب بالكفر والمعصية.

فبإمكاننا أن ننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره لنعمائه علينا.

وإذا عرفناه وشكرناه كنا أهلاً لثوابه ونعمه، وإذا أنكرناه وكفرنا بنعمائه كنا جديرين بعقابه. وعليه فلا موجب لبعثة الأنبياء.

وأجيب عنه: بأن العقول - مهما بلغت من السمو والرفعة والكمال - لا يمكنها الاهتداء إلى حقيقة الإيمان وشرائطه، والمعارف ووجوه الطاعات، وما هو اللائق في مقام شكره من دون بيان من الله تعالى على لسان رسله.

وأدل دليل على هذا (ما نراه قبل الرسالات الإلهية من الضلال الذي شمل العالم في ذلك الزمان القديم، بل ما نراه بعد أن خفت صوت الرسل، وضاعت معالم الرسالات الماضية إلى قبيل رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، إذ كان الناس - كما نعرف جميعاً - يعبدون ما شاؤوا من حجر أو شجر، وما ينحتون من تماثيل وأصنام، ويؤلهون بعضاً منهم، ويستذل بعضهم بعضاً آخر.

بل إن المصريين القدامى مع عبقريتهم العلمية، كان منهم مَن ألّهوا الفراعنة وعبدوا العجل.

وكذلك كان اليونان الأقدمون، مع عبقريتهم أيضاً في الفلسفة والعلم، وثنيين ومثلهم الرومان القدامى، مع حظهم الموفور من الفلسفة والأخلاق والقانون. فكيف غير هذه الأمم الراسخة الأقدام في التفكير، تلك الأمم التي حرمت الاستعداد العقلي والفكري)[(٢)].

٦ - **قالوا**: إن مما يبطل الرسالة هو أنا وجدنا المدّعين لها يستدلون على صدقهم بمستحيلات عقلية. مثل: فلق البحر، وخلق ناقة من صخرة، وقلب العصا

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني ص١٠٦ والفصل في الملَل والنِّحَل لابن حَزم ج١ ص٦٩، ٧٠.

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى ص٢٢٣.

حية، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي على الماء، وإنطاق الذئب والحصا.. ونحو ذلك. ولما كان مثل ذلك محالاً ممتنعاً في العقل بطل ما يدّعونه.

وأجيب عنه: بأن امتناع هذه الأمور - في نظركم - لا يخلو:

إما أن يكون في قدرة الصانع ﷻ، أو في العادة.

فإن قالوا: إنه ممتنع في قدرة الصانع. فقد ألحدوا وتركوا دينهم، لأن المفروض أنهم يؤمنون بإله، ومن صفات هذا الإله القدرة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤].

وإن قالوا: بل ذلك ممتنع في العادة.

قيل لهم: وما المانع من أن ينقض الله تعالى العادات، ويظهر المعجزات على أيدي رسله كبرهان ساطع ودليل قاطع على صدقهم وصحة دعواهم.

هذا، وقد برهن الإمام محمد عبده[1] على أن حدوث مثل هذه الأفعال - وهو ما يسمى بـ(المعجزة) - ليس من نوع الممتنع عقلاً، وفي ذلك يقول: (المعجزة ليس من نوع المستحيل عقلاً). فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال.

فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي. عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد مَن اختصه الله بفضل من عنده، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة، وتابعاً لأي سبب إذا سبق في علمه أن يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة مَن ظهرت على يده، لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلّغ

---

(١) هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ولد ١٢٦٥هـ. حفظ القرآن الكريم ودرس التجويد في الجامع الأحمدي بطنطا ثم انتقل إلى الأزهر سنة ١٢٨٢هـ. اتصل بجمال الدين الأفغاني ١٢٨٧هـ فتأثر به، سافر إلى سوريا وأوربا وأصدر مع أستاذه الأفغاني جريدة «العُروة الوثقَى» سنة ١٣٠١، اشتغل بالتدريس والقضاء والإفتاء ودعا إلى الإصلاح. توفي سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م.

عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى.

ومن المحال على الله أن يؤيد الكذب، فإن تأييد الكذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليها البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمَن ظهرت على يده. وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة[1].

٧ ـ **قالوا**: إن ما أتى به الأنبياء مثل أعمال الصلاة من القيام والقعود، والركوع والسجود. وأعمال الحج من السعي بين الصفا والمروة، والطواف بالبيت وتقبيل الحجر، ورمي الجِمَار، وأعمال الصيام من الجوع والعطش، كلها مستقبحة عند العقول، وحينئذ لا تكون من أوامر الحكيم تعالى، لأنه لا يأمر بما هو مستقبَح عند العقول، فوجب أن ترد عليهم ولا تقبل منهم[2].

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر أن من هذه الأعمال ما هو غير معقول المعنى أي لا تظهر وجه الفائدة فيه نفسه، إلا أن امتثال أوامر الله تعالى حسن في ذاته، وإن لم نلحظ منفعة خاصة به.

ثم ـ لا شك ـ أن في هذه الأعمال وما شابهها حكمة لا يدركها العقل فجاء الرسول منبهاً له ككونها وسيلة لصلاح كثير من الخلق، وداعية لهم إلى توحيد الله والثناء عليه، وغير ذلك مما ينال العباد منه جزيل الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

٨ ـ **قالوا**: لا سبيل للرسول إلى تلقي الرسالة عن الخالق ـ ﷻ ـ وذلك لأنه تعالى مما لا يدرك بالحواس، ولا يشاهد بالأبصار بحيث يتولى مخاطبة الرسول بنفسه من حيث يراه ويعلمه، وإنّما يدعي الرسول العلم بالرسالة من جهة صوت يسمعه، أو كتاب يسقط عليه، أو سماع شخص يدّعي أنه من ملائكة ربه. ومَن يدري؟ فلعل صاحب ذلك الصوت ومكلمه بعض الملائكة، أو الجن، أو مستتر عنه من الإنس...

فلا سبيل إلى العلم بأن متولي مخاطبته هو الله، وكذلك لا سبيل له إلى العلم بأن الذي أدى إليه الرسالة عن ربه ملك مقرّب، إذ لعل الذي خاطبه بعض السحرة أو المشعوذين... ثم إن تعويله على كتاب يظن أنه من عند ربه من أبعد الأمور لاحتمال أن يكون ذلك من عمل البشر ونظمهم وقد حملته الريح إليه، وأسقطته عليه.

---

(١) رسالة التوحيد ط١٤ ص٨٠.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة لعبدالجبار بن أحمد ص٥٦٣.

وحيث ثبت لنا فساد الطريق إلى تلقي الرسالة عن الله ﷻ ثبت لنا فساد القول بالنبوة والرسالة الإلهية مطلقاً.

وأجيب عنه: بأن هناك عدة سبل يعلم المخاطب بواسطتها أن متولي خطابه هو الله ﷻ.

منها: أن الله تعالى يضطر المخاطب إلى العلم بذاته، ووجوده، ثم يضطره إلى العلم بأنه هو المخاطب له وأن ما سمعه هو كلامه.

ومنها: أن الله تعالى يضمن خطابه الإخبار عن الغيوب وما أسرّته النفوس - ولا سيما نفس المخاطب وما اعتقده في نفسه ولم يطلع عليه أحد من الخلق - فيعلم عندئذ أن المتولي لخطابه هو علاّم الغيوب، لعلمه سلفاً بأن الإخبار عن ذلك وإصابة الواقع في جميعه متعذر على المخلوقين، وأن المنفرد بهذا هو الله رب العالمين.

ومنها: أن الله تعالى قد يعلم مخاطبه (الرسول) بأنه هو الله، وذلك بأن يقول له: (إنني أنا الله) وآية ذلك (أنني أقلب الجماد حيواناً، وأفلق البحر، وأخرج يدك بيضاء، وأحيي الموتى...) فيعلم الرسول أن المتولي لخطابه هو محدث الآيات، ومبدع المعجزات، لعلمه سلفاً بأن الخلق لا قدرة لهم على ذلك.

ومنها: أن الرسول قد يعلم أن الذي أنزل عليه بالرسالة ملك من عند ربه، وليس بساحر ولا شيطان، وذلك بأن يكون الخطاب الذي أداه إليه متضمناً للإخبار عن الغيوب أو غير ذلك.

وأما الكتاب الساقط على الرسول فلا بد - لكي يقبل - من أن تكون معه آية تظهر على يد ملك يؤديه أو غير ذلك[1].

وحيث ثبت وجود السبيل إلى تلقي الرسالة عن الخالق تعالى ثبتت النبوة والرسالة الإلهية.

٩ - وكما قيل قديماً أن الإنسان يمكنه أن يكتفي بعقله في تنظيم شؤونه الحياتية، وتلبية متطلباته الضرورية، فقد قيل حديثاً: إن الإنسان يمكنه الاكتفاء بالعلم في تنظيم حياته، وتأهيله بمؤهلات السعادة والسلام.

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر قيمة العلم وأهميته في حياة الناس، فهو رائد الحضارة وباعث النهضة..، قدّم ويقدّم الكثير جداً من الخدمات الهامة للبشرية.

ولكننا نقول: إن العلم وحده لا يكفي في إسعاد البشرية، وتنظيم كافة شؤونها

---

(١) سيأتي لهذا مزيد بيان عند كلامنا على الوحي وإمكان حدوثه.

ومتطلباتها، فبالرغم من ازدهاره، واتساع أفقه، وعظمة معطياته، فهو ما يزال في المهد صبياً ينقصه الكثير والكثير جداً ليبلغ دور النضج والكمال حتى يقال: إنه يستطيع وضع نظام شامل وقانون كامل للحياة الإنسانية. فهو ما زال ـ باعتراف أقطاب العلم وقادة الفكر ـ عاجزاً عن استكناه الكثير من أسرار الكون وألغاز الحياة..، ثم إن أغلب آرائه ظنية تقريبية.. فما كان ثابتاً بالأمس، صار اليوم مشكوكاً فيه أو بيّن الخطأ والاشتباه.

قال الدكتور بول كلارنس أبرسولا[1]:

لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني، وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أية مشكلة في هذا الكون، بل على معرفة منشأ الحياة والعقل وإدراك معنى كل شيء. وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية، ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبيّن لي أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً أو تكشف عن أسرارها النقاب.

وقال الأستاذ وليم جيمس[2]:

إن علمنا ليس إلا نقطة، ولكن جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو: أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر، لم ندرك خواصه المكونة له.

وقال العلامة أنشتاين:

.. العلم يخبرنا بما هو كائن. ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون.

ثم إن التقدم العلمي لا يحقق للبشرية أمنها وسعادتها ما لم يصطحبه تقدم خلقي، وسمو نفسي، وتهذيب للغرائز، وكبح للشهوات، وحب للإنسانية وشعور بالواجب تجاهها، والتضحية من أجل خيرها وسعادتها.

---

(١) أستاذ الطبيعة الحيوية، مدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل (أوك ريدج)، عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية.

انظر: جون كلوفرمونسما/ الله يتجلى في عصر العلم ص٣٦.

(٢) أستاذ في جامعة هارفارد، في كتاب إرادة الاعتقاد، عن السيد مهدي الصدر أصول العقيدة في النبوة ص٧.

وواضح أن تمتع الأفراد بهذه الصفات، وشيوعها في المجتمعات البشرية ليس من مهام العلم ومستلزماته، بل هو ـ على التحقيق ـ من نتائج الوحي والإيمان بالله تعالى وأثرهما.

قال الأستاذ كريسي موريسون[١]:

إن تقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان بالله والاعتقاد بالخلود. وإن غزارة التدين لتكشف عن روح الإنسان وترفعه خطوة، حتى يشعر بالاتصال بالله.. إن الوقار، والكرم والنبل، والفضيلة، والإلهام، وكل ما يسمى بالصفات الإلهية، لا تنبعث عن الإلحاد أو الإنكار الذي هو مظهر مدهش من مظاهر الفرد، يضع الإنسان في مكان الله.

وبدون الإيمان كانت المدنية تفلس، وكان النظام ينقلب فوضى، وكان كل ضابط وكل كبح يضيع، وكان الشر يسود العالم...

ومن الملاحظ أن التقدم العلمي ـ الذي حقق للبشرية معجزات كثيرة لم تكن تحلم بها من قبل ـ ولم يرافقه ارتقاء خلقي. بل على العكس نلاحظ أن الأمم المتقدمة علمياً وحضارياً تعاني من أزمات خانقة في الدين والأخلاق فنراها سادرة في غَيِّها، غارقة في مستنقع الشهوات والآثام، وقد آثر أفرادها الإباحية والشذوذ الجنسي، وعيش العري، وتنافست حكومات تلك الأمم في ابتكار الأسلحة المبيدة للنوع البشري وتفننت في استعباد الأمم الضعيفة وابتزاز خيراتها، وهذا مما يؤكد ما قلناه من عجز العلم بمفرده عن تحقيق سعادة البشر وتنظيم شؤونها الحياتية، وحاجته الماسة إلى الفكر الروحي الذي هو أثر من آثار الوحي والإيمان.

قال العلامة كامبل فلامريون:

إن من التناقض البيِّن أن نرى أن الرقي الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة.. بينما رفع هذا عقولنا إلى الدرجات العالية، أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم.. تنطفىء حرارة قوتنا، وتنصرم زهرة حياتنا القلبية، بتأثير المطامع المادية والشهوات الجسدية[٢].

---

(١) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، عضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، زميل في المتحف الأمريكي للتأريخ الطبيعي. انظر كتابه القيم: الإنسان لا يقوم وحده والذي ترجم بعنوان (العلم يدعو للإيمان) ص٢٠٥.

(٢) الإسلام في عصر العلم ص٢٨٣ عن السيد مهدي الصدر/ أصول العقيدة في النبوة ص٢٩.

وقال العلامة ماكس نوردو:

الإنسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة، ولكنها لم تكن في عهد من عهودها أبعد عن الارتياح إليها والغبطة بها مما هي عليه في العصر الحاضر، نعم إن العلم والمدنية ينتشران في كل مكان، وكل يوم يظهر اكتشاف عجيب يجعل الأرض أكثر ملاءمةً للسكنى، وشدائد الحياة أخف وطأة على النفس، ولكنا نرى الإنسانية رغماً عن توافر شروط السعادة والهناء تزداد كدراً واضطراب بال[١].

وعلى تقدير أن العلم بعد نضوجه وبلوغه مرحلة الكمال يستطيع أن يضمن للبشرية سعادتها وينظم لها شؤونها. ولكن من المحقق أنه لن يهيمن على النفس البشرية هيمنة النبوة والتشريعات الإلهية لذلك يبقى للنبوة سلطانها ودورها الرئيس في تهذيب النفس وكبح جماحها، وتوجيهها نحو الخير والحب والسلام.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، وقال أيضاً: «**خير الناس مَن نفع الناس**»، وقال: «**لن تنالوا البر حتى تحابوا**».

١٠ ـ وكما قيل أن العقل الإنساني والعلم الحديث يغنيان عن هدى النبوة، ويمكنان البشرية من العيش في سعادة وسلام. فقد قيل أن النظم والتشريعات التي يضعها الإنسان من وحي تجربته، وحاجاته المتطورة، تُغني عن هدى النبوة وتسد مسدها، فلا حاجة للبشر إليها.

وأجيب عنه:

١ ـ أن هيمنة القوانين الوضعية على النفس البشرية تكون في الغالب هيمنة ظاهرية فقط، وامتثال الفرد لهذه القوانين يكون تبعاً لذلك امتثالاً شكلياً يتحين الفرصة للتهرب والانفلات، وإذا ما تم للفرد التخفي أو التلاعب، فمن النادر أن يناله القانون، لأن القانون لا يعرف الضمائر والقلوب، وهناك جرائم مقنعة لا تراها أعين القانون، ومرتكبوها لا يجدون حرجاً في التمويه، ولا أسفاً على ارتكاب هذه الجرائم بل إن كثيراً منهم يتباهى بمقدرته ومهارته على التمويه والانفلات من طائلة العقاب أو سلطة القانون.

في حين أن القوانين الدينية تسيطر على نفسية الفرد المتدين وتهيمن على قلبه ومشاعره، وامتثاله لها يكون امتثالاً حقيقياً ظاهراً وباطناً، لاعتقاده أن مشرعها ﴿يَعْلَمُ

---

(١) لماذا أؤمن بالقرآن الكريم وبمحمد ص٣٩٣ لهلال علي هلال.

خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وأن امتثالها مدعاة إلى رضوانه ونعمائه، وعصيانها باعث على سخطه وعقابه.

ثم إن احتيال الفرد على مخالفة القوانين الدينية يشكل انفصاماً في شخصيته وصراعاً في ذات نفسه لعدم تلاقي عقيدته مع سلوكه، فيحس بالألم ووخز الضمير والندم عند ارتكابه ما يخالف تعاليم دينه حتى وإن تمت هذه المخالفة في غياهب الظلام، أو حيث لم يره أحد ولا يتوقع أن يراه أحد. ولا يقتصر الأمر على الندم على العصيان، أو وخز الضمير ـ فهذا في حد ذاته لا يمكن المبالغة في تقدير قيمته ـ بل النقطة الهامة التي تعنينا هنا هي الصدق الموحي بتطابق الشعور مع نوع السلوك، وإلا أضحى الإنسان منافقاً، وخرج من خير الإيمان الصحيح. والدين لا يحترم المنافق بأي حال، ويضعه في مرتبة أسفل من الكافر العنيد.. ولا عجب أن يضع القرآن الكريم المنافق[(١)] ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

٢ ـ إن القوانين الوضعية تصطبغ وتتأثر بمزاج واضعيها، وظروفهم الخاصة، ونوازعهم الشخصية أو الطبقية أو الفكرية...، وحسبك أن تستعرض النظم الوضعية السائدة لتلمس ما تتصف به من ألوان الأثرة والصراع والتناقض.

فالنظام الشيوعي يناقض النظام الرأسمالي، ويحاربه، ويحاول مسخه وإسقاطه، وموقف الثاني من الأول كذلك.

والنظام الديمقراطي يخالف ويناهض النظام الدكتاتوري، ونظرة الثاني من الأول كذلك، والغالب المسيطر من واضعي تلك النظم هو الذي يصوغها وفق أهوائه ومصالحه.

لذلك انقسم العالم إلى كتل وأحزاب متناحرة تناحراً بشعاً ينذر البشرية بالدمار والفناء[(٢)].

في حين أن القوانين الدينية والتعاليم النبوية مصدرها هو الله ﷻ خالق الإنسان، القدير العليم، الخبير بواقعه وأسراره النفسية والجسمية، ومنافعه ومضاره، وبواعث سعادته أو شقائه في مختلف نواحيه المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، وهو ﷻ لا يحابي ولا يمالي طبقة على طبقة، ولا فئة على أخرى، وإنما هو خالق البشر وإلٰههم جميعاً، وكلهم سواسية لديه، لا يتمايزون إلا بالعمل الصالح[(٣)].

---

(١) في الدين المقارن ص٧٩، ٨٠ للدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر.

(٢) أصول العقيدة في النبوة ص٣٢، ٣٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٢، ٣٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «**الناس سواسية كأسنان المُشْط**».

هذا وقد تكلم أستاذنا الدكتور دراز تحت عنوان (وظيفة الأديان في المجتمع) عن ضرورة وجود قانون ينظم علاقات الأفراد، ويحدد واجباتهم وحقوقهم، وبيَّن عجز القوانين الوضعية والعلوم وحدها عن تأمين الحياة الفاضلة للمجتمعات البشرية، ثم بيَّن خصائص ومزايا التدين في كفالة احترام القوانين، وتوجيه الفرد نحو خير المجتمع وصلاحه. وإليك نص كلامه[1]:

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا بـ(التعاون) بين أعضائها، وأن هذا التعاون إنما يتم بـ(قانون) ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وأن هذا القانون لا غنى له عن (سلطان) نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته. تلك كلها مبادىء مقررة، والحديث فيها معاد مملول.

وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع: ما هو؟ فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه. السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه...، وإنما هو معنى إنساني روحاني، اسمه (الفكر والعقيدة).

ولقد ضلّ قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها.

هذا الرأي قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية. ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر، فإنه لكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادىء ذي بدء بأن سعادتهم هي في هذا النوع من الحياة، فالإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة. فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء، وإن فسدت فسد كل شيء.

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا

---

(١) الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص١٠١، ١٠٢.

سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تُحترم فيها الحقوق، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البيِّن أن نظن أن في نشر العلوم والثقافة وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدَّين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد من حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.

غير أن الإيمان على ضربين:

إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية وما إلى ذلك من المعاني المجردة التي تستحسن النفوس العالية من مخالفة دواعيها، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية.

وإيمان بذات علوية، رقيبة على السرائر، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياة منها، أو بمحبتها أو بخشيتها.

ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفوس الإنسانية وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعها نفاذاً في قلوب الخاصة والعامة.

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة، وكان لذلك ضرورة جماعية، كما هو فطرة إنسانية.

كانت هذه جل أدلة الفريق الذي أنكر النبوات والرسالات الإلٰهية مع إيمانهم بوجود الله تعالى، واعتقادهم بكل ما يدركه العقل من صفاته الكمالية، ومع التزامهم بكل ما يمليه عليهم العقل البشري من سلوك وفضائل، ومجانبتهم لكل ما يبغضه من شرور ورذائل. وقد أشرت أيضاً إلى بعض الشبهات التي يشارك في إيرادها الماديون كالاستغناء عن هدي النبوة بالعلم والقانون.

وقد اتضح لك أن عقول البشر ليست سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة ما بعد هذه الحياة.

ولا في تحديد ما هو خير وشر في كل نوع من الأعمال في الحياة الدنيا، وأن العقل ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة، كما لا

يستطيع أن يزوده بالمعارف الضرورية عن الحياة الأخرى، على الرغم من إيمانه بوجودها. وأن العلم والقانون اللذين هما أثر من آثار العقل البشري لا يكفلان للبشرية سعادتها ما لم يعضدهما نور الوحي وشرائع السماء. لهذا قلنا: إن الإنسان لا يستطيع أن يكتفي بعقله وضميره في كل شيء مما ينبغي أن يعرفه، وإنه بحاجة إلى معين يستعين به في تحديد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادته في الأرض، ولا بد أن يكون هذا المعين من بني جنسه - أي إنساناً مثله - حتى يفهم منه، أو عنه ما يقول، وذلك المعين هو الرسول.

وبالجملة فالرسول في أمته مثال يقتدي به الناس في كل ما يقوله ويفعله، ويخلص بهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة، وتتم بذلك رسالة الإصلاح والهداية التي جاء بها.

هذا وقد برهن الإمام محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد[1] على جواز النبوات والرسالات الإلهية والبشرية جميعاً، بل على حصولها فعلاً، وأن ذلك كان لا بد منه لهداية الإنسانية وصلاحها. وإليك نص كلامه:

أليس من حكمة الصانع الحكيم الذي أقام أمر الإنسان وعلّمه البيان، علّمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟

يميزهم الله بالفطرة السليمة، ويبلغهم بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، بما لو انكشفت لغيرهم انكشافه لهم لفاضت نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته.

فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس ليس من سكانها.

ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله، وما خفي عن العقول من شؤون حضرته الرفيعة، بما شاء أن يعتقد العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه، معبّرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم.

وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح

---

(١) الطبعة الرابعة عشرة ص٨٨ - ١٠٠.

شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة.

ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاد على كل حي بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته، حقيراً ولا جليلاً من خلقه، لا ريب أن هذا يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط والضلال. فأقام للإنسان من بين أفراده مرشدين هادين، وميّزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركون فيها سواهم وأيد ذلك زيادة في الاقتناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحبطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له. ويستوي في الركون لما يجيئون به: الملك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري.

يعلمونهم ما شاء الله أن يُصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته، أولئك هم الأنبياء والمرسلون.

فبعثة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمَّها الله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

خاتمة:

العقل من أعظم نِعَم الله علينا، وأنفع الأشياء وأجداها لدينا، حبانا الله تعالى به، وخصنا بوظائفه. به نميز الخبيث من الطيب، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، في حدود ما منحه الله تعالى من سلطة، وما حباه من خصائص، وما أناط به من وظائف.

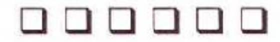
وجعله تعالى مناط التكليف، ومدار المثوبة والعقوبة. وفوق ذلك، فقد لطف سبحانه بعباده فأرسل لهم رسلاً من جنسهم ليكون هذا داعياً قوياً لهم لأن يؤمنوا بما

وصلت إليه عقولهم وأيدته رسله إليهم، وليعرفوا الحقائق الأخرى التي يعجز العقل الإنساني وحده عن معرفتها.

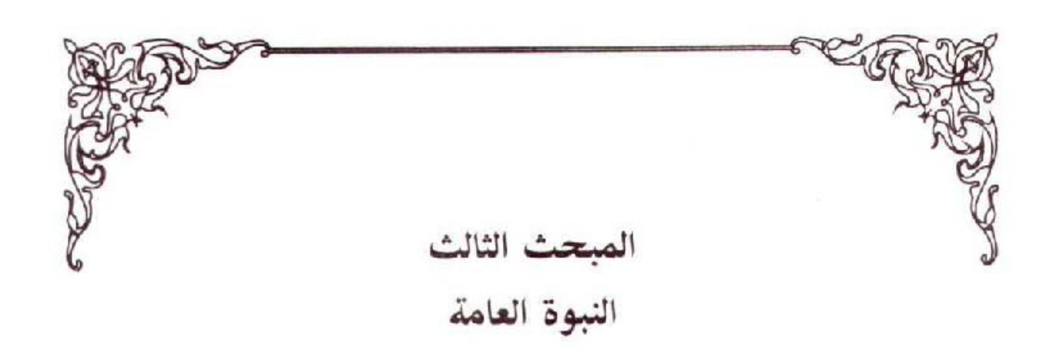
فالرسول إنما بُعث داعماً ومتمّماً لرسالة العقل الإنساني، ورحم الله القائل[1]: (إن لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل. وأما الباطنة فالعقول).

فالرسالات إذن فضل ورحمة من الله للإنسانية جمعاء، ولولاها لظل الناس يهيمون في الضلال، إلا مَن عصم الله، وبها تمام الحجة لله على عباده.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].



(١) الإمام موسى الكاظم.



المبحث الثالث

النبوة العامة

المطلب الأول
النبوة ومهمتها

النبي والرسول في اللغة:

النبي في أصل اللغة:

وردت لفظة (النبي) مهموزة وغير مهموزة:

١ ـ فإذا كانت اللفظة بالهمز (النَّبِيء) فهي:

أ ـ إما مشتقة من النَّبَأ، وهو الخبر، فالنبيء هو المخبر (المُنْبِىء) عن الله تعالى.

ب ـ أو أن تكون من (النَّبِيء) الذي هو الطريق الواضح، لأن الأنبياء هم الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

٢ ـ وإن كانت بلا همز (النبي) فهي:

أ ـ إما أن تكون همزتها مخففة.

ب ـ وإما أن تكون مشتقة من النَبْوَة أو النَّباوة، أي: الارتفاع. لأن النبي مرتفع الرتبة على غيره[١].

---

(١) لسان العرب مادة (نبأ)، وكتاب سِيْبَوَيه ج٢ ص١٧٠ واشتقاق أسماء الله الحسنى للزجّاجي ص٥٠٤ والبيان في غريب إعراب القرآن ج١ ص٨٧ ـ ٨٨ والمسامرة ص٢٣٢.
وغالب كتب علم الكلام تتحدث عن اشتقاق كلمة (النبي) في موضع الكلام عن المعنى الاصطلاحي.

الرسول في أصل اللغة:

لفظة الرسول مأخوذة:

أ ـ من قولهم: جاءت الإبل رَسَلاً، أي متتابعة، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[1].

ب ـ من رسل اللبن إذا تتابع دره، لأن الرسول هو الذي يتتابع عليه الوحي[2].

النبي والرسول في الاصطلاح:

جاء القرآن الكريم بهاتين الكلمتين معاً في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وقد اختلف العلماء في بيان معناهما على أقوال أهمها:

القول الأول:

النبي: إنسان أوحي إليه بشرع (أي أحكام) سواء أمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا، فإن أمر بذلك فهو نبي رسول.

فالفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه[3].

فالنبي أعم من الرسول، أي: يلزم من كونه رسولاً أن يكون نبياً، ولا عكس[4].

وهذا القول هو المشهور[5] وبه قال الجمهور وعامة الأشاعرة[6] وصححه المهدوي والقاضي عِياض في كتابه الشفا، حيث قال: (والصحيح والذي عليه الجَمّاء

---

(١) لسان العرب مادة (رسل).

(٢) أصول الدين للبغدادي ص١٥٤.

(٣) المسامَرَة ص٢٣١ والدَّرْدِير على الخريدة ص١٨.

(٤) الصاوي على الدردير ص١٨ وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص١٠٥ ولوامع الأنوار ج١ ص٤٩ وج٢ ص٢٥٨ وذكر في شرح الطحاوية ص١٠٥ أيضاً: (ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم: لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها).

(٥) المسامرة ولوامع الأنوار والصاوي السابقة وفي شرح الطَّحَاوية (وهو أحسنها).

(٦) حاشية المَرْجاني ج١ ص١٢ والكلنبوي ج١ ص٩.

الغَفِير، أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً)[1].

القول الثاني:

النبي إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه، وكذا الرسول، فلا فرق بينهما، بل هما بمعنى واحد[2]. وهو الذي عزاه ابن الهمام إلى بعض المحققين[3]. وهو مذهب جمهور المعتزلة[4].

ورد هذا القول بما يأتي:

١ - بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] فلو كان النبي مساوياً للرسول لما عطف عليه، لأن نفي أحد المتساويين يستلزم نفي الآخر[5].

٢ - حديث أبي ذَرّ في بيان عدد الرسل والأنبياء يقتضي أن الرسل هم غير الأنبياء، وهذا القول يقتضي اتحادهما، فهو مخالف للحديث[6].

وهنالك أقوال أخرى لا مجال لذكرها هنا[7].

* * *

إثبات النبوة

لا يكون إثبات النبوة إلا باجتماع أمرين:

أولهما: ادعاء النبوة.

---

(١) الشفا ج١ ص٢٥١ وتفسير القُرْطُبي ج٧ ص٤٤٧٢.

(٢) المسايَرة والمسامَرة عليها ص٢٣١ والصاوي على الدَّرْدِير ص١٨ وإعلام النبوة للماوَرْدي ص٣٨ والمقاصد ج٢ ص١٧٣.

(٣) المسامرة السابق.

(٤) حاشية المرجاني ج١ ص١٢ والكلنبوي ج١ ص٩.

(٥) الكلنبوي على الدَّوَّاني ج١ ص٩.

(٦) المسامرة ص٢٣٢ والكلنبوي السابق. وسيأتي حديث أبي ذر في (الإيمان بالأنبياء والرسل).

(٧) انظرها في الكلنبوي على الدواني ج١ ص٩ والمرجاني على الدواني ج١ ص١١ - ١٣ وإعلام النبوة ص٣٨ وشرح المقاصد ج٢ ص١٧٣ وتفسير القرطبي ص٤٤٧٢ وتفسير البيضاوي ص٣٣٠ والمسامرة ص٢٣١.

ثانيهما: إظهار المعجزة.

فكل مَن ادعى النبوة وأظهر المعجزة تصديقاً لدعواه، فهو نبي[١].

وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

❊ ❊ ❊

النبوة اصطفاء واختيار من الله ﷻ

النبوة فضل وهبة من الله تعالى لمَن يشاء من عباده، فلا تُنال بالكسب، ولا بتكلُّف العبادة واقتحام أشق الطاعات، ولا تدرَك بتهذيب الروح وبتصفية النفس وتنقية البدن من رذائل الأخلاق، ولا بالوراثة، ولا أثر للذكاء فيها، ولا تأثير للمجتمع فيها[٢].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

❊ ❊ ❊

بشرية الرسل والأنبياء

الأنبياء والرسل بشر، يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون، ويحزنون وينسون، ويجوعون ويعطشون، ويتزوجون ويغضبون، ويتعبون ويستشيرون... ونحو ذلك من صفات البشر التي لا نقص فيها عليهم.

وإنما اختارهم الله ﷻ من جنس المرسل إليهم، ليكونوا على صلة وثيقة بهم،

---

(١) شرح المواقف ص٥٥٧ وشرح المقاصد ج٢ ص١٨٣ والمسامرة ص٢٤٠ والدوّاني على العقائد العَضُدية ج٢ ص٢٧٧.

(٢) انظر: لوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٧ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص٣٠ والمواقف وشرحه للجُرجاني ص٥٤٥ وشرح المقاصد ١٧٣/٢.

شاعرين بأحاسيسهم، مطّلعين على ما يعانونه من آلام، مقيمين عليهم الحجة الدامغة بإيضاح الطريق المستقيم لهم. ودليل ذلك:

أولاً: من القرآن الكريم:

أ ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ب ـ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠، وفصلت: ٦].

جـ ـ وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

هـ ـ وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

و ـ وقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ثانياً: ومن السنّة النبوية المشرّفة:

أ ـ حديث أبي مسعود قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل تُرْعَدُ فرائصُهُ، فقال له: «**هوِّنْ عليك، فإني لستُ بملِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد**»[1].

ب ـ قوله ﷺ: «**إنما أنا بشرٌ أنسى كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكّروني**» أخرجه البخاري ومسلم[2] وغيرهما.

جـ ـ تواضع الرسول الأعظم ﷺ وسيرته تشهد ببشريته، ولا مجال لأحد في إنكار ذلك.

د ـ عبوديته ﷺ لله تعالى الظاهرة في كلامه وأدعيته، كما في الحديث: «**اللهم إني عبدُكَ وابن عبدك، ابن أمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك**»[3] وأمثاله كثير.

* * *

(١) سنن ابن ماجة ـ كتاب الأطعمة ـ باب القديد ج٢ ص١١٠١.

(٢) أخرجه البُخاري في كتاب الصلاة ـ باب التوجه نحو القبلة ج١ ص١١١ ومسلم في كتاب المساجد ـ باب السهو في الصلاة ج١ ص٤٠٠ واللفظ لهما.

(٣) رواه أحمد في مسنده ج١ ص٤٥٢.

فوائد وقوع الأعراض البشرية بالأنبياء

تقدم أن الأنبياء بشر، يقع عليهم من الأعراض البشرية كالابتلاء والمرض والنسيان والفقر... إلخ، ما يقع على سائر الناس، إلا أن لوقوع هذه الأعراض بالأنبياء فوائد تتلخص بما يأتي:

١ ـ تعظيم أجورهم:

فالبلاء والأمراض يترتب عليه الأجر العظيم، لهذا قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[١].

وقال الإمام القُشَيْري: ليس كل أحد أهلاً للبلاء، إذ البلاء للأولياء، وأما الأجانب فيتجاوز عنهم، ويخلي سبيلهم.

٢ ـ التشريع:

فسهو رسول الله ﷺ في الصلاة تشريع للناس، وتعليم لهم كيفية سجود السهو، لأن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول.

٣ ـ تسلي غير الأنبياء بأحوالهم إذا نزل بهم ما نزل بالأنبياء:

فإذا نظر العاقل في أحوال الأنبياء، من مرض وأسقام، وقلة مال، وأذى الناس لهم، مع علو مقامهم ورفعة شأنهم، فإنه يتسلّى ويتصبّر، فلم يحزن على ما نزل به من بلاء.

٤ ـ تنبيه غير الأنبياء على خسة قدر الدنيا عند الله تعالى، حين يرون الأنبياء قد أعرضوا عنها، وانصرفوا عن ملاذها ومغانمها.

وذم الدنيا الوارد في بعض النصوص، إنما هو في الدنيا الشاغلة عن الله تعالى، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم**»[٢] أي: من التسبيح والتحميد والتهليل.

أما الدنيا التي لم تشغل عنه فلا ذم فيها، بل هي محمودة، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**نِعْمَ الدنيا مطيةُ المؤمن، بها يصل إلى الخير، وبها ينجو من الشر**» وبذلك يعلم: أن الدنيا ليست محمودة، ولا مذمومة لذاتها[٣].

---

(١) أخرجه أحمد والبُخاري والتِّرمذي وابن ماجة عن سعد، وهو صحيح الجامع الصغير ٤٢/١.

(٢) أخرجه التِّرمِذي ـ كتاب الزهد ـ باب الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم متعلم. ج٧ ص٨٠.

(٣) الدَّردير على الخريدة ص١٠٩ ـ ١١٠ والصاوي عليه والبيجوري على السَّنوسية ص٤٤ ـ ٤٥.

الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل جميعهم وتصديقهم في أخبارهم وطاعتهم في أوامرهم ونواهيهم فرض على كل مسلم(١) بدلالة القرآن الكريم:

أ ـ قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

ب ـ وقال سبحانه: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

جـ ـ وجعل للذين يؤمنون بالجميع الأجر العظيم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء: ١٥٢].

* * *

عدد الأنبياء

قدّر الله تعالى ما يحتاج إليه الناس بمجموعهم من المواهب والكفاءات المختلفة التي تهيىء لهم الحياة الرغيدة والعيش السعيد، فوزّعها بين الأفراد بناء على حاجتهم إليها، فرجال الجيش ـ وهم أصحاب القوة والأجسام الشديدة ـ والنجّارون والحدّادون والزرّاعون وأصحاب المهن كثيرون جداً، بينما يقل عدد ذوي الكفاءات القيادية أو العلمية، ويهبط عدد مالكي المهارة والحذق في لون معين، ويتضاءل عدد مالكي قيادة العالم الفكرية وأصحاب الهداية إلى سواء السبيل وهم الأنبياء والرسل، لأن أعمالهم تغني البشر إلى أجيال طويلة.

فلو أخذنا بحديث الأنبياء وهم (١٢٤٠٠٠) نبي، والرسل منهم (٣١٣) رسولاً. نرى العدد ضئيلاً جداً بالنسبة لأمم العالم جميعاً من بدء الخليقة إلى زمن الرسول محمد ﷺ، ولا يقاس إلى تلك الأجيال المتعاقبة(٢).

لكن ينبغي في الإيمان بالأنبياء القطع بحصرهم في عدد معين، لأنه:

---

(١) لوامع الأنوار ج٢ ص٣٦٣.

(٢) مبادىء الإسلام ص٣٣.

١ ـ لم يرد بحصرهم دليل قطعي من القرآن، والحديث الوارد[١] في عددهم ضعيف، وهو: خبر واحد، لم يقترن بما يفيد القطع، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات.

٢ ـ وقد يؤدي حصرهم بهذا العدد إلى أن يعتبر فيهم مَن ليس منهم أو يخرج مَن هو منهم[٢].

لكن القرآن الكريم ذكر أسماء خمسة وعشرين وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكِفل، وموسى، وهارون، وسليمان، وداود، وإلياس، والْيَسَع، ويونُس، وزكرِيًا، ويحيى، وعيسى، ومحمد ﷺ.

***

تكذيب الأنبياء أو تنقيصهم كفر

وهم جميعاً يشتركون في قدر واحدٍ وهو: النبوة والرسالة.

ولذا اتفق علماء الإسلام جميعاً على كفر مَن كذّب نبياً معلوم النبوة، وكذا مَن سبّ نبياً أو انتقصه، ويجب قتله بدلالة القرآن الكريم:

---

(١) في مسند أحمد ﷺ من حديث أبي ذَرّ ﷺ: قلت: يا نبي الله كم عدد الأنبياء؟ قال: «**مئة ألف وأربعة وعشرون، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيراً**».
ورواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ «**وأربعة وعشرون ألفاً**» وهي مصرحة بما أُبهم في رواية أحمد.
ومدار الحديث على علي بن يزيد وهو ضعيف. المسامرة ص٢٢٦.
وله لفظ آخر في صحيح ابن حِبَّان، وعدد الرسل فيه «**ثلاثمائة وثلاثة عشر**» /لوامع الأنوار ج٢ ص٢٥٨.
وتكلم فيه ولي الدين العراقي، وردّ على ابن حِبّان جماعة من الحفاظ، لإدخاله هذا الحديث في الصحيح/ لوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٤ وللحديث ألفاظ أخرى بأسانيد أخرى من مسند أحمد والبزار والطبراني في الأوسط الذي ذكر في مجمع الزوائد،/ المسامرة ص٢٢٦ وذكر ابن قُطلوبُغا الخبر عن رواته إسحاق بن راهَوَيْه وابن أبي شَيْبَة ومحمد بن أبي عمر وأبي يَعْلى/ ابن قُطلوبُغا على المسايَرة ص٢٢٥.

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٨ وشرح العقائد النَّسَفية ص١٣٥ ـ ١٣٦ والمسايَرة والمسامَرة عليها ص٢٢٥ والدُّرْدِير على الخريدة ص١١٩ ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٥٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١][(١)].

* * *

مهمة الأنبياء
وبعثتهم إلى أمم العالم جميعاً

الأنبياء والرسل هداة البشر إلى الصراط المستقيم، وأهل المبادىء التهذيبية التي عالجت المشاكل المادية والروحية يبشرون بالجنة أهل التقى، وينذرون بالنار أهل الفساد والكفر، ويبينون للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا.

وقد أرسلهم الله تعالى إلى أمم العالم جميعاً، فكل أمة لها رسول، وإن لم يخبرنا الله بأسمائهم بدلالة قوله تعالى:

أ ـ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ب ـ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

جـ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩].

هذه النصوص جميعاً تدل على أن بعث الأنبياء لا ينحصر في أمة معينة، أو مكان معين كالجزيرة العربية.

* * *

القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى

أصول الرسالات السماوية وعقائدها وهدفها واحد، وهو: توجيه البشر إلى طريق الصلاح.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا

---

(١) لوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٣.

بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ولذلك طلب القرآن الكريم الإيمان بجميع الرسل، وما أُنزل عليهم من كتب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

لكن الإيمان المطلوب شرعاً بالكتب السماوية ـ ومنها الإنجيل والتوراة والزبور ـ إنما يراد به التصديق بأن هذه الكتب كانت من عند الله تعالى، وكانت صادقة، وما جاءت إلا للغرض الذي جاء لإتمامه القرآن. فما جاء بها مخالفاً لما في القرآن الكريم فهو مُحرَّف قطعاً، لا يعوَّل عليه.

وهنا لا بد أن نبيّن أهم فروق القرآن الكريم عن الكتب السماوية لما يأتي:

١ ـ الكتب التي نزلت قبل القرآن ضاعت نُسخُها الأصلية، ولم يبقَ منها إلا ترجمتها.

أما القرآن فهو محفوظ بلفظه وبكلماته التي أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، ووصل إلينا بهذا الشكل متواتراً.

٢ ـ اختلط كلام الناس من فقهاء أو مفسرين أو مؤرخين بتلك الكتب. أما القرآن فلم يختلط به شيء حتى من كلام رسول الله ﷺ. ولقد منع النبي ﷺ من كتابة الحديث في بداية نزول القرآن، لئلا يختلط الحديث بالقرآن. وكتب التفسير والحديث والفقه مستقلة تماماً عن القرآن، كما هو معروف.

٣ ـ لم يستطع أحد أن يثبت باستناد تاريخي أنّ أياً من هذه الكتب الموجودة الآن نزل على النبي الذي نسب إليه ذلك الكتاب، كما لم يمكن تعيين الزمن الذي نزل به.

أما القرآن فالتاريخ قاطع بشواهده أنه نزل على محمد ﷺ وأن آياته منها ما عين مكان نزوله أو زمنه أو سببه.

٤ ـ لغات الكتب السماوية القديمة اندرست منذ زمن طويل، فلم نجد متكلماً بها، بل إن مَن يفهمها قليل جداً.

أما لغة القرآن الكريم فهي لغة حية يتكلم بها إلى الآن مئات الملايين من المسلمين في أقطار العالم المختلفة.

٥ ـ أحكام كل من الكتب القديمة ـ كما يبدو من قراءتها ـ خاصة بالزمن وبالأمة التي نزل فيها ذلك الكتاب، جاءت تلبية لحاجاته ووفق أحواله.

في حين أن أحكام القرآن عامة لجميع الناس ولكل زمن.

٦ ـ كل من الكتب القديمة وإن كان فيه من الدعوة إلى الخير والصلاح والأخلاق، فإنه لم يستوفِ الفضائل.

لكن القرآن استوفى الفضائل كاملة، سواء نص عليها في الكتاب القديم أم لم ينص.

٧ ـ تسرب إلى كل من الكتب القديمة التحريف[١] والأمور التي لا توافق العقل، وتقوم على الظلم، بل تحوي أموراً من قبيل الفحشاء والمنكر.

أما القرآن فإنه صلاح كله ومنزَّه عن الفاحشة وليس فيه ما يخالف العقل[٢].

٨ ـ الشرائع القديمة اختصت بالعلاج الروحي، أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت المبادىء الكفيلة بحلّ مشاكل الإنسان وتلبية حاجاته المادية والروحية في كل زمان ومكان.

هذه المزايا هي التي لأجلها أمر الناس باتباع القرآن وحده دون سواه.



المطلب الثاني
مستلزمات النبوة

صفات الرسل والأنبياء

جبَلَ الله تعالى بعض الناس على مواهب معينة كالقوة والشعر والفنون... يتفوق بها على الآخرين، ووهب الأنبياء والرسل الكفاءة العالية لقيادة الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، لذلك امتازوا بصفات فيها جميع خصال الخير، بعيدة عن جميع النقائص التي لا تليق بهم.

هذه الصفات هي:

---

(١) انظر الفصل الذي كتبه العالم الجليل رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) الذي أثبت فيه تحريف الكتب السماوية التي سبقت القرآن.

(٢) انظر مبادىء الإسلام للسيد أبي الأعلى المودودي ص٨٠ ـ ٨٤.

الصفة الأولى
العصمة

العصمة لغة: الحفظ.

واصطلاحاً: هي لُطف من الله تعالى، يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء[1].

أو بتعريف آخر:

هي أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنباً[2].

والذنب إما أن يكون من الكبائر أو من الصغائر.

❋ ❋ ❋

النوع الأول
العصمة من الكبائر

للكبائر تعاريف مختلفة، أرجحها:

إن الكبائر هي: ما ترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب.

أما الصغائر فهي: ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة[3].

والكبائر إما كفر أو كذب أو غيرهما من الذنوب الكبيرة الأخرى. وتفصيل عصمة الأنبياء عن هذه الأنواع من الكبائر هو:

أولاً: العصمة من الكفر:

اتفق جمهور المسلمين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده، ولا يجوز الكفر عليهم في حال صغرهم تبعاً للوالدين، لأنهم مؤمنون

---

(١) المسامرة ص٢٢٩.

(٢) الدوّاني على العقائد العضُدية ج٢ ص٢٧٩ والمواقف ص٥٧٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٣٥٦ والشورى بين النظرية والتطبيق لقحطان الدوري ص١١٤ ـ ١١٥.

بالله، عارفون به حقيقة، فلا يجري عليهم حكم الكفر تبعاً[1].

ثانياً: العصمة من الكذب:

الصدق: هو مطابقة حكم الخبر للواقع.

وأنواعه ثلاثة:

١ ـ الصدق في دعوى الرسالة.

٢ ـ الصدق في ما يبلغونه عن الله ﷻ إلى الناس من الأحكام الشرعية.

٣ ـ الصدق في جميع ما ينطق به مما يتعلق بأمور الدنيا[2].

وضده: الكذب.

ويستحيل صدور الكذب عن الأنبياء على سبيل العمد كما أجمع أهل الملل والشرائع كلها، ويستحيل صدوره على سبيل السهو والنسيان عند أكثر الأئمة الأعلام. وهو المعتمد على ما أفاده المحققون[3].

والدليل العقلي على صدق الأنبياء هو:

أ ـ لو جاز عليهم الكذب والافتراء، للزم الكذب في خبره تعالى، وهو مُحال، لأنه تعالى صدقهم بالمعجزات[4].

ب ـ الكذب معصية، وهم معصومون منها.

جـ ـ لو كذبوا، وعرف الناس منهم ذلك، لانتفت فائدة الرسالة[5].

والدليل النقلي على صدقهم:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

---

(١) ابن قُطلوبغا على المسايَرة ص٢٢٧ ـ ٢٢٨ وانظر الدَّواني السابق وشرح العقائد النَّسَفية للتفتازاني ص١٣٦ وشرح المقاصد ج٢ ص١٩٣، والمواقف ص٥٦٧ ولوامع الأنوار ج٢ ص٣٠٤.

(٢) رسالة في التوحيد للطائي ص٦٧ والدّرديِر ص١٠٥.

(٣) المواقف ٥٦٧ والدواني ج٢ ص٢٧٩ وشرح العقائد النسفية ص١٣٦ ولوامع الأنوار ج٢ ص٣٠٧ والوسيلة ص٦٩٥.

(٤) المواقف والدردير والطائي ولوامع الأنوار السابقة والباجوري في شرح الجوهرة ج٢ ص٢٤.

(٥) رسالة في التوحيد السابقة.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

د ـ في الحديث: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «**إني لا أقول إلا حقاً**».

أما ما ظاهره الكذب في حق الأنبياء، كما في واقعة إبراهيم الخليل عليه السلام حين كسر الأصنام، وأبقى كبيرها فقط، فلما سئل ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣] فإنه يؤول بأن قصده عليه السلام التبكيت والاستهزاء، لأنه لم يكن عند الأصنام غيره، فما فائدة قولهم مَن فعل هذا[(١)]؟

وقيل معناه: سلوهم إن نطقوا يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل. فقوله هذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وهو الذي صححه القُرْطُبي[(٢)] وقيل غيره[(٣)].

ثالثاً: العصمة من الكبائر الأخرى:

ونبيّن هنا حال صدور الكبيرة عنهم عمداً أو سهواً، قبل البعثة أو بعدها.

قبل البعثة:

الأنبياء قبل بعثتهم معصومون من صدور الكبيرة، التي توجب النفرة منهم، كعهر الأمهات والفجور في الآباء[(٤)].

وبعد البعثة:

هم معصومون منها عمداً، وهو قول الجمهور من المحققين والأئمة. ومعصومون منها سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل، وهو المختار[(٥)].

---

(١) الصاوي على الدردير ص١٠٥ وتفسير البَيْضاوي ص٣٢١.

وحديث المداعبة في سنن التِّرمذي ـ كتاب البر ـ باب ما جاء في المزاح ج٦ ص٢٠٦ وهو حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير القُرْطُبي ج٦ ص٤٣٤٠.

(٣) تفسير البيضاوي السابق وغيره من التفاسير.

(٤) شرح العقائد النَّسَفية للتَّفتازاني ص١٣٦ والدَّوَّاني ج٢ ص٢٧٩ نقلاً عن شرح العقائد. وانظر أقوالاً أخرى في المواقف ص٥٦٨ والدواني والوسيلة ص٦٩٥.

(٥) المواقف ص٥٦٧ والوسيلة السابق وقارن بشرح العقائد للتفتازاني ص١٣٦.

النوع الثاني
العصمة من الصغائر

الصغائر نوعان:

أ ـ صغائر الخسة التي تلحق فاعلَها بالأراذل، كسرقة حَبَّة أو لقمة والتطفيف بتمرة.

والأنبياء قبل البعثة: معصومون منها[1].

وبعد البعثة كذلك، فلا تصدر عنهم أصلاً لا عمداً ولا سهواً بالاتفاق[2].

ب ـ الصغائر الأخرى:

والأنبياء غير معصومين منها، قبل البعثة عمداً وسهواً.

أما بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، وتجوز سهواً، لكن لا يُصِرون عليها، ولا يقرون من الله تعالى عليها، بل يُنَبهون فيتنبهون. وعليه المحققون من المحدثين والسلف الصالح[3] لقوله ﷺ: «**إنما أنا بشرٌ أنسَى كما تنسَون؛ فإذا نسيت فذكِّروني**» أخرجه البخاري ومسلم[4] وغيرهما.

* * *

أدلة عصمة الأنبياء

استدل العلماء على عصمة الأنبياء بأدلة كثيرة منها:

١ ـ لو صدر منهم الذنب، لحرم اتباعهم فيما يصدر عنهم، مع أن اتباعهم فرض وللإجماع، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

٢ ـ لو أذنبوا لرُدّت شهادتهم، إذ لا شهادة لفاسق بالإجماع، ولقوله تعالى:

---

(١) شرح العقائد للتفتازاني وشرح الدَّوَّاني السابقان.

(٢) المواقف وشرح العقائد والوسيلة السابقة والمسامرة ص٢٣٣.

(٣) الدواني ج٢ ص٢٧٩ وشرح المقاصد ج٢ ص١٩٣ والمواقف وشرحه ص٥٦٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص٣٠٤ والمسايرة والمسامرة عليها ص٢٣٢ وهناك أقوال أخرى في هذه المصادر وفي شرح العقائد ص١٣٦ والوسيلة ص٦٩٥.

(٤) المسايرة والمسامرة عليها ص٢٣٤. وقد تقدم تخريج الحديث آنفاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، لأن من لا تُقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا، كيف تُسمع شهادته في الدين القيم؟

٣ ـ إن صدر عنهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم، لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا شك أن زجرهم إيذاء لهم، وإيذاؤهم حرام إجماعاً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

٤ ـ لو أذنبوا لاستحقوا العذاب واللوم والطعن، لدخولهم تحت قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤]، لكن ذلك منتفٍ بالإجماع، ولكونه من أعظم المنفرات.

٥ ـ قوله تعالى في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فيتناول جميع الخيرات من الأفعال والتروك، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧] أي: من المصطفين الأخيار في كل الأمور، فلا يجوز صدور ذنب عنهم[١].

٦ ـ لو جاز عليهم أن يخونوا الله تعالى بفعل محرّم أو مكروه، للزم أن يكون ذلك المحرّم أو المكروه طاعة، لأن الله تعالى أمرنا بطاعتهم واتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل. فكل ما صدر منهم فنحن مأمورون به، وكل مأمور به، فهو طاعة، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء[٢].

وما نقل عن الأنبياء مما يشعر بمعصيته:

فما نقل بطريق خبر الآحاد فمردود، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء.

وما نقل بطريق التواتر فيفسّر:

بأنه نسيان أو زلّة،

أو بأنه حدث قبل البعثة،

---

(١) المواقف وشرحه ص٥٦٨ ـ ٥٦٩ وشرح المقاصد ص١٩٣ ـ ١٩٤ وفيهما أدلة أخرى لا نذكرها خشية الإطالة.

(٢) الدَّرْدِير على الخريدة ص١٠٥ والباجوري على السَّنُوسية ص٤٢ و٤٣.

أو بأنه من الصغائر،

أو بأنه من قبيل ترك الأوْلى والأفضل[1].

وترك النبي ﷺ الأفضل إنما هو في الأمور التي لم يرد بها نص صريح. فهو يُعمل نظره وفكره، ويبذل وسعه أولاً، ومع ذلك فهو يخطىء فيعاتَب عندئذ على تركه الأفضل.

ومن النصوص التي تُشعر بمعاصي الإغواء:

أولاً: ما ورد في قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

والعصيان من الكبائر، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣].

والغواية اتباع الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] واستحقاق الإخراج من الجنة بسبب إزلال الشيطان لهما، يدل على أن الصادر منهما كبيرة.

وخالف آدم النهي عن الأكل من الشجرة، وارتكاب المنهي عنه ذنب.

أجيب عنها:

بأن ذلك كان قبل البعثة، لأنه لم تكن له في الجنة أمة.

وكان ذلك عن نسيان، لقوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أو كان زلة وسهواً، حيث ظن آدم عليه السلام أن المنهي عنها شجرة بعينها، وقد قرب فرداً آخر من جنسها[2].

ثانياً: ما ورد في قصة موسى عليه السلام من قتله المصري ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وقتله كان عدواناً، لقوله سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

وقوله ﷻ: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٤ وانظر: شرح العقائد للتفتازاني والعصام عليه ص١٣٦ ـ ١٣٧ والدَّوَّاني ج٢ ص٢٧٩ عن شرح العقائد والمواقف وشرحه ص٥٦٩.

(٢) شرح المقاصد والمواقف وشرحه السابقان.

أجيب:

بأن قتله المصري كان قبل النبوة،

وجاز أن يكون قتله خطأ،

وما صدر منه من أقوال، فهو محمول على التواضع وهضم النفس[1].

ثالثاً: وما ورد في حق نبينا محمد ﷺ من نصوص مثل:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥، ومحمد: ١٩] وقوله سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فأسند الذنب للنبي ﷺ وتاب عليه، ولا وجود للتوبة إلا مع الذنب.

أجيب:

بأن ذلك الذنب كان قبل النبوة،

أو أنه محمول على ما فرط منه من الزلة وترك الأفضل،

أو نسب إليه ذنب قومه، فإن رئيس القوم قد يُنسب إليه ما يفعله أتباعه. أي: استغفر لذنب أمتك، وتاب الله على أمة النبي، وليغفر لأجلك ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر عنه[2].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١ ـ ٢].

أجيب:

بأنه محمول على أنه عتاب على ترك الأفضل والأوْلى مما يليق بخلقه العظيم، ومثله يعاتَب على مثله[3]، فأخطأ في اجتهاده، فعبس في وجه الأعمى ابن أم مكْتوم، حين جاء يسأله عن الدين، لأنه رأى أن مجادلة صناديد قريش قد تؤدي إلى أنهم سيميلون إليه فيُسْلِمون، وأن الإعراض عنهم قد يزيد في حقدهم ونفرتهم عن الإسلام.

لذلك انشغل بهم عن ابن أم مكتوم الأعمى المسلم، الذي جاء مستزيداً من الإسلام. فالأوْلى أن لا يعبس بوجهه، فيتولى عنه، بل يتلطف معه، لما له من منزلة الإسلام.

---

(١) شرح المواقف ٥٧١ وانظر شرح المقاصد ج٢ ص١٩٦.

(٢) شرح المواقف ٥٧٤ ـ ٥٧٥، وشرح المقاصد ج٢ ص١٩٧.

(٣) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٧، والمواقف وشرحه ص٥٧٥.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

أجيب:

بأنه تلطف في الخطاب، وعتاب على ترك الأفضل، وإرشاد إلى الاحتياط في تدبير الخيرات[١]. فإنه ﷺ أذن لجماعة تعلّلوا بأعذار ـ كان الأوْلى أن لا تُقبل منهم ـ فتخلفوا عن غزوة تَبُوك، وتارك الأفضل في أمور الحرب قد يُعاتب.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

أجيب:

بأنه محمول على ترك الأفضل.

لأن الرسول ﷺ حين استشار أصحابه في أخذ الفِداء من أسرى بدر، ومنهم سبعون من أشراف قُريش، وآثر أكثرهم أخذ الفداء على القتل، اجتهد فأيّدهم، لأنه رقّ لحالهم، ورجا أن يُسلموا، أو يخرج من أصلابهم المؤمنون، ولينتفع المسلمون بمال الفدية في شؤونهم، فأخطأ في اجتهاده وكان الأفضل أن لا يؤثر أخذ الفداء على نصرة الإسلام[٢].

وبعد كل هذا: فإن الله تعالى لم يُبقِ رسوله على خطأ، لأنه لو أقره على الخطأ، لتساوى الخطأ والصواب في الشرع، ولكان ذلك تضليل ومدعاة إلى التشكيك في الشريعة.

وكان الرسول ﷺ يرجع إلى الصواب الذي بيّنه الله تعالى له، ولا يكتم من الوحي شيئاً من تسجيل الخطأ عليه، أو توجيه العتاب إليه[٣].

حكمة تسجيل زلة الأنبياء:

فإن قيل: فما بال زلة الأنبياء حكيت في القرآن، بحيث تتلى على مر الزمان، مع أن الله تعالى غفّار ستّار، وقد أمرنا بالستر على مرتكب الذنب؟

---

(١) شرح المقاصد السابق.

(٢) شرح المواقف ص٥٧٤ وانظر أمثلة أخرى من هذا في شرح المواقف وشرح المقاصد وشرح قاسم بن قُطلوبُغا على المسايرة ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٣) مناهل العرفان ج٢ ص٢٨٨.

أجيب:

بأن تسجيل زلتهم يدل على:

١ ـ صدق الأنبياء، وأن ما يبلغونه يكون بأمر الله تعالى بلا إخفاء لشيء منه.

٢ ـ إن الأنبياء على جلالة قدرهم وكثرة طاعتهم، يلجؤون إلى الله تعالى دائماً بالاستغفار والتضرع في أدنى زلة، فعلى الناس ـ وهم أدنى مرتبة منهم بكثير ـ أن يتضرعوا إلى الباري كل حين.

٣ ـ إن الصغائر ليست مما يقدح في الإيمان، فلا تكفّر الإنسان[١].



الصفة الثانية
التبليغ

هو إيصال الأحكام التي أُمروا بتبليغها إلى المرسَل إليهم[٢]، ليرشدوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وكلّ منهم لم يُخفِ عن الناس من ذلك شيئاً عمداً أو سهواً[٣].

وأقسام الموحى به ثلاثة:

١ ـ قسم أُمروا بكتمانه. فهو خاص بينهم وبين ربهم.

٢ ـ قسم خُيِّروا فيه بين التبليغ وعدمه.

٣ ـ قسم أُمروا بتبليغه.

وهذا القسم (الأخير) هو الذي بلّغوه إلى مَن أُرسلوا إليه، لأنهم مأمورون بتبليغه، لوجوبه عليهم[٤].

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٨.

(٢) الدَّرْدِيْر على الخريدة ص١٠٨.

(٣) رسالة في التوحيد للطائي ص٦٨.

(٤) الصاوي على الدردير ص١٠٩ ورسالة في التوحيد السابقة.

والدليل العقلي على وجوبه:

١ ـ أنهم لو كتموا شيئاً مما أُمروا بتبليغه للخلق، لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم، مع أن الأحاديث صريحة في أن كاتم العلم ملعون[١].

٢ ـ أنهم لو كتموا شيئاً مما أُمروا بتبليغه، لكانوا خائنين، مع أنهم معصومون عن الخيانة[٢].

٣ ـ أنهم مبشرون ومنذرون، لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] ولا يتم التبشير والإنذار إلا بالتبليغ.

٤ ـ لو أنهم كتموا ما أُمروا بتبليغه لكانوا ملعونين بنص الكتاب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٥٩][٣].

والدليل النقلي:

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٤] [المائدة: ٦٧].

❊ ❊ ❊

الصفة الثالثة
الفَطانة

هي: التيقُّظ والتفطُّن وحِدّة العقل والذكاء وسدَاد الرأي.

فكل رسول ونبي تجب له هذه الصفة، فلا يجوز أن يكون مغَفَّلاً أو بليداً أو أبله[٥].

---

(١) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٢٥.

(٢) الدردير ص١٠٨ ورسالة في التوحيد ص٦٩ ولوامع الأنوار ج٢ ص٣٠٨.

(٣) الدردير ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٤) الدردير ورسالة في التوحيد السابقان.

(٥) الدردير على الخريدة ص١٠٨ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص٢٥ ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٧.

الدليل العقلي على وجوب هذه الصفة للأنبياء:

١ ـ لأنهم أُرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شُبَه المجادلين، ولا يكون ذلك من البله أو من المغفلين[١].

٢ ـ لأنهم ساسة الجميع ومرجعهم في المشكلات[٢].

٣ ـ لأننا مأمورون بالاقتداء بهم في الأقوال والأفعال، والمقتدى به لا يكون بليداً.

٤ ـ والبلادة والغفلة صفة نقص، تخل بمنصبهم الشريف[٣].

والدليل النقلي عليها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٢ ـ وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [صَ: ٢٠].

٣ ـ وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: بالطريق التي هي أرفق بهم، والجدال لا يكون إلا من فطن ذكي[٤].

* * *

الصفة الرابعة
الذكورة

اتفق العلماء على أن الذكورة شرط في النبي، فلا يجوز أن تكون المرأة نبية، بل إن بعضهم[٥] نقل الإجماع على هذا القول. ومن أدلة هذا الشرط ما يأتي:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

---

(١) الدردير والباجوري السابقان ورسالة في التوحيد للطائي ص٧٠.

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٨ والمسامرة ص٢٢٦.

(٣) الدردير ورسالة في التوحيد السابقان.

(٤) الباجوري ج٢ ص٢٥ ورسالة في التوحيد السابقان.

(٥) نقل الإجماع على عدم نبوة النساء الكرماني في شرح البخاري/ حاشية المرجاني ج١ ص٩. وحكى الإجماع على عدم نبوة مريم، البيضاوي وغيره/ المسامرة ص٢٣١. وتفسير البيضاوي ص٦٨.

جـ ـ النبوة والرسالة تقتضي: الاشتهار بالدعوة، والتردد إلى مجامع الناس، وإظهار المعجزة، ولزوم الاقتداء. والأنوثة توجب الستر، فبينهما تَنافٍ.

د ـ لأن النساء لا يصلحن للإمارة والسلطنة والقضاء وإقامة الصلاة بالإجماع.

أما الأشعري والقُرْطبي وبعض أهل الظاهر فلم يشترطوا الذكورة في النبي، وقالوا بنبوة مريم، مستدلين:

باصطفاء الله تعالى لها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وبإرسال الروح إليها بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

وقالوا بنبوة أم موسى مستدلين:

بوحي الله تعالى إليها، بقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

ورد الجمهور على هذا الزعم قائلين:

إن اصطفاء مريم وإرسال جبريل إليها لم يكن وحياً بشرع، إذ لا دلالة عليه في الآيات المذكورة. والوحي إلى أم موسى لا يراد به إلا معنى الإلهام، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ . . .﴾ [النحل: ٦٨][1].

* * *

الصفة الخامسة
السلامة من النقائص

وأعني بهذا الشرط الأمور الآتية:

أ ـ أن يكون سالماً من نقص الخلقة:

فشرطه أن يكون أكمل أهل زمانه خَلْقاً حال الإرسال (أي حال بعثه إلى الناس).

وقد يعترض بعقدة لسان موسى عليه السلام، فيجاب:

(١) المسامَرة وابن قُطلوبُغا على المسايرة ص٢٣٠ ـ ٢٣١ والمَرجاني السابق ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٦.

بأن عقدة لسان موسى عليه السلام كانت قبل الإرسال، وأزيلت بدعوته عند الإرسال، بدليل:

دعاء موسى عليه السلام حين أوحى الله تعالى إليه، وأمره بالدعوة قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨]، فأجابه تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦][1].

ب ـ أن يكون سالماً من:

العيوب المنفرة للطباع من الأمراض والأسقام كالبرص والجذام. وقد يعترض ببلاء أيوب عليه السلام الذي أصيب بداء جلدي نفّر الناس منه، فيجاب:

بأن بلاءه كان قبل نبوته عليه السلام، وقد زال بعدها، قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

جـ ـ أن يكون سالماً من دناءة الصناعة كالحِجامة.

ومن قلة المروءة كالأكل على الطريق[2].

وهذا مبني على تقدير: أن العُرْف كان يستنكر ذلك[3].

د ـ أن يكون سالماً من الفظاظة والغلظة[4].

لأن قسوة القلب موجبة للبُعد عن الله تعالى، إذ أنها منبع المعاصي، لأن القلب هو المُضْغَة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما نطق به الحديث الصحيح. وفي الحديث الذي حسّنه التِّرمذي ورواه البَيْهَقي: «**إن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي**»[5].

ولأن الغلظة والشدة وعدم اللين مع الناس، يوجب النفرة من النبي، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) المسايرة والمسامرة ص٢٢٦.

(٢) المسايرة والمسامرة السابق وشرح المقاصد ج٢ ص١٩٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٧ والوسيلة ص٦٩٣.

(٣) المسايرة والمسامرة ص٢٣٢.

(٤) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٧.

(٥) المسامرة ص٢٢٦. والحديث في سنن التِّرمذي ـ كتاب الزهد ـ باب أبعد الناس من الله القلب القاسي ج٧ ص١٣٠.

هذه الصفات التي مرت بنا الواجبة للأنبياء، تعني اتصافهم بكل كمال إنساني، وتنفي عنهم كل نقص بشري.

لأن النبوة أشرف مناصب الخلق، ومقتضية لغاية الإجلال اللائق بها.

لذا:

فإن من المستحيل اتصافهم بأضداد هذه الصفات المذكورة، كالكذب والكفر وارتكاب الذنوب والكتمان والبلادة وعدم السلامة من العيوب وغيرها من الأمور التي تُخِلّ بالشخصية، وبالتالي تُخِلّ بحكمة بعثهم رسلاً مبشرين ومنذرين.





الوحي

أُطلقت كلمة الوحي في أصل اللغة على معانٍ متعددة أشهرها:

١ ـ **الإشارة**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي: أشار إليهم.

٢ ـ **والرسالة**: قال ابن الأعرابي: أوحى الرجل، إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة.

٣ ـ **والإلهام**: قال الزجّاج في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١]:

قال بعضهم: ألهمتهم كما قال ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [طه: ٣٨].

٤ ـ **والكلام الخفي**: قال الكِسائي: أوحيت إليه بالكلام أحي به، وأوحيته إليه، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره، وقال ابن الأنباري في قولهم: أنا مؤمن بوحي الله، قال: سمي وحياً لأن الملك أسرّه على الخلق، وخص به النبي ﷺ المبعوث إليه، قال ﷻ: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] معناه: يسر بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف، ثم قصر الوحي للإلهام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي: يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدال بالباطل.

٥ ـ **والأمر**: كقوله ﷻ: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، وكقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٥].

٦ ـ **والكتابة والمكتوب والكتاب**:

قال أبو إسحاق: أصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء. ولذلك صار

الإلهام يسمى وحياً. قال الأزهري: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً، والكتابة تسمى وحياً... وكل هذا إعلام، وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها[1].

والوحي بالمعنى الاصطلاحي:

هو أن يُعْلِم الله تعالى مَن اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر[2].

أخرج ابن أبي حاتِم من طريق عقيل عن الزُهْري: سئل عن الوحي فقال: الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء، فيثبته في قلبه، فيتكلم به، ويكتبه، وهو كلام الله. ومنه ما لا يتكلم به، ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، ولكنه يحدّث به الناس حديثاً، ويبيّن لهم أن الله أمره أن يبيّنه للناس، ويبلغهم إياه[3].

* * *

أنواع الوحي

جمع أنواع الوحي قوله ﷻ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى: ٥١].

تفيد هذه الآية الكريمة أنه: ما صحّ لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة[4] أوجه:

---

(١) لسان العرب مادة (وحي) والقاموس المحيط مادة وحي.

وانظر تفسير الرازي والقُرْطُبي والبَيْضاوي في مواضع الآيات المذكورة ومفردات الراغب مادة (وحي)، وذكر القاضي عِيَاض في الشفاء ج١ ص٢٥٢ قولين في أصل الوحي: أولهما الإسراع ومنه تلقي النبي لأنه على عجل ومنه الإلهام. ومنه الخط لسرعة حركة اليد... وثانيهما السر والإخفاء ومنه الإلهام وإيحاء الشياطين أي وسوستهم.

(٢) مناهل العرفان ج١ ص٥٦.

(٣) الإتقان ج١ ص٤٤.

(٤) قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية ج٢٧ ص١٨٧: (واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام، فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى. فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض).

الوجه الأول: وحياً.

أي: إما عن الوحي وهو:

أ ـ الإلهام والقذف في القلب: كما أوحى الله إلى أم موسى أن أرضعيه، ومنه قوله ﷺ: «**إن روح القُدُس نفثَ في روعي**[1]: **إن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجَلَها وتستوعب رزقها. . .**».

ب ـ الرؤيا في المنام: كما أوحى الله إلى إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، ومنه مبدأ وحي النبي محمد ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

الوجه الثاني: أو من وراء حجاب.

أي وإما على أن يُسمعه كلامه من غير واسطة مبلِّغ.

كما أسمع الله تعالى موسى كلامه من غير واسطة.

وكذا الملائكة الذين كلَّمهم الله تعالى في خلق آدم عليه السلام.

الوجه الثالث: أو يرسل رسولاً.

أي وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. ورسول الملائكة هو جبريل عليه السلام[2].

ولنزول جبريل عليه السلام على الرسول محمد ﷺ أساليب مختلفة هي:

أ ـ أن يأتي إلى النبي ﷺ على صورته الحقيقية الملكية.

ب ـ أن يأتي إلى النبي على صورة رجل فيكلمه، كما في صحيح البخاري[3]: «**وأحياناً يتمثَّل لي الملَكُ رجلاً فيكلِّمني، فأعي ما يقول**» وزاد أبو عَوَانة في صحيحه: «**وهو أهونه عليّ**».

فيراه الحاضرون ويستمعون إليه، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم[4]

---

(١) الروع (بضم الراء) العقل والقلب. والحديث رواه أبو نُعَيْم في الحِلْية عن أبي أمامة، وهو ضعيف/ الجامع الصغير ج١ ص٩٠.

(٢) انظر تفسير الرازي ج٢٧ ص١٨٦ وتفسير القرطبي ج٨ ص٥٨٧٣ وروح المعاني للآلوسي ج٢٥ ص٥٤ وزاد المعاد ج١ ص١٨ والإتقان ج١ ص٤٤.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الوحي ج١ ص٢.

(٤) صحي مسلم ـ أول كتاب الإيمان ج١ ص٣٦.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثر السفَر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه وقال: «**يا محمد أخبرني عن الإسلام...**» إلخ. وكان قد سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان وإمارات الساعة، ورسول الله ﷺ يجيبه، حتى إذا انتهى من أسئلته وذهب، قال رسول الله ﷺ: «**فإنه جبريل** عليه السلام **، أتاكم يعلِّمكم دينكم**».

جـ - أن يأتي إلى النبي ﷺ خفية دون أن يراه أحد، فيظهر عليه أثر التغير والانفعال.

والرسول ﷺ يصف حالته عند الوحي فيقول: كما في صحيح البخاري: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرَس، وهو أشدُّه عليّ، فيفصم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال**».

قال الخطابي:

والمراد إنه صوت متدارك يسمعه، ولا يتثبته أول ما يقرع سمعه، حتى يفهمه من بعد ذلك.

والحكمة في تقدمه: أن يفرغ سمعه للوحي، فلا يبقى فيه مكاناً لغيره.

وفي الصحيح كما تقدم آنفاً أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه.

قيل: إنه إنما كان ينزل هكذا، إذا نزلت آية وعيد أو تهديد[(١)].

وسيأتي كلام آخر عن أحوال النبي ﷺ عند الوحي، وذلك عند الكلام عن الوحي (الوحي أمر خارج عن النفس) بعد قليل.

* * *

كيفية الوحي ونزوله على النبي

العلم بكيفية الوحي سر من الأسرار التي لا يدرك كيفيتها العقل، وسماع الملك من الله تعالى ليس بحرف أو صوت، بل يخلق الله تعالى للسامع علماً ضرورياً، فكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر، فسماعه الذي يخلقه لعبده ليس من جنس سماع الأصوات[(٢)].

---

(١) الإتقان وزاد المعاد السابقان وإرشاد الساري شرح البخاري ج١ ص٥٨ والنوَوي على صحيح مسلم بهامش إرشاد الساري ج٩ ص١٨٣.

(٢) إرشاد الساري ج١ ص٥٩.

ولنزول الوحي على النبي طريقان:

أحدهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية، وأخذه من جبريل.

وثانيهما: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه[1].

وفي الحالتين صعوبة وشدة على الجِبِلّة البشرية، لذلك كان يحدث في تلك الحالة غيبة وغطيط[2].

وصورة اندماج النبي بالملك يمكن أن يتصورها الذهن، حين يتصور التنويم المغناطيسي، الذي كشفه الدكتور مسمر الألماني في القرن الثامن عشر، وأقام عليه البراهين، حتى اعترف به العلماء علمياً، بعد أن اختبروا الآلاف من الخلق، وله في الغرب أنصار كثيرون، وله دور وكتب ومستشفيات يؤمها الناس للتداوي به.

وفيه يسيطر الأستاذ المنوّم على الوسيط بإيحاءاته، فيغط الوسيط بنومه، فيسأله عما يريد، فيجد الجواب حاضراً، وقد يأمره أو ينهاه، فينفذ الوسيط ذلك ولو بعد صحوه. ولا بد أن يكون بين نفسين مختلفي الطبائع إحداهما أقوى إرادة من الأخرى، فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة على نفسه.

فالتنويم المغناطيسي يقرب أمر الوحي، فاتصال الملك بالرسول يؤثر به لاستعداد خاص فيهما، ففي الملَك قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك، لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك، وعند تسلط الملك ينسلخ الرسول عن حالته العادية، فيظهر التغير عليه، فيتلقى من الملك، وينطبع في قلبه ما تلقاه، حتى إذا انجلى عنه الوحي، وجد ما تلقاه منقوشاً على قلبه، لا ينساه[3].

ثم إننا لم نجد ما يدفع هذا الاتصال بين الملك والنبي، بدليل:

إن العلم الحديث يسّر لنا الأجهزة العلمية، التي أدركنا بها ما كان مجهولاً من قبل. فمن هذه الأجهزة ما سجّل تصادم الأشعة الكونية في الفضاء، ومنها ما يدلنا

---

(١) الإتقان ج١ ص٤٣ والوحي المحمدي ص٨٣ وفيه قول ابن خلدون، وإرشاد الساري ج١ ص٥٩.

(٢) إرشاد الساري ج١ ص٦٠.

الجبِلّة: الخِلْقة.

(٣) مناهل العرفان ج١ ص٥٩ ـ ٦٠ وفيه أمثلة عن تجارب التنويم المغناطيسي، والنبأ العظيم ص٧٥ ـ ٧٦.

على صوت ذباب طائر على بُعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك. وهذه الآلات الحديثة تستطيع إدراك ما لا يمكننا سماعه بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة، وإنما وهبها الله تعالى بعض الحيوانات.

فالكلب يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مرّ من الطريق، وقد استغلت هذه الحاسة لكشف المجرمين، فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب، ثم يقتفي أثره، فيميزه من بين الآلاف.

وحشرة (العُثَّة) مجنَّحة، لو وضعتها على نافذة فستُحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً، ويجيبها الزوج بطريقته الخاصة.

والجُنْدُب يحك رجليه وجناحيه، ويصوِّت بطريقة غير عادية، ويسمع على بُعد نصف ميل.

ولأبي النطيط قدرة خارقة، فهو يسمع ويحس بالحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الهيدروجين...

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تدل على أن هناك وسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة في ادعاء النبي أنه يسمع صوتاً من ربه لا يدركه عامة الناس، ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا يسمعها الإنسان، ولكن تسجلها الآلات، وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى[1].

* * *

الوحي أمر خارج عن النفس

الاعتقاد بالوحي هو الأساس الذي يبنى عليه الاعتقاد بالنبوات، وهي الطريقة التي جاءت بها العقائد والأحكام الشرعية وغيرها.

لذلك اهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوحي مقتفين أثر جهلاء قريش، وسفهاء المشركين في ادعاءاتهم الملفقة الكاذبة حول الرسول الأعظم ﷺ، حين قالوا عنه: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر.

---

(١) الإسلام يتحدّى ص٩٦ ـ ٩٧.

حتى قال هؤلاء من المستشرقين[1] وغيرهم: إن الوحي ما هو إلا حديث النفس وإلهامها.

أما نحن فنعتقد: أن الوحي ليس هو من قبيل الحدس، والشعور الباطني، ودلالات النفس، والفراسة السريعة، التي غالباً ما تتأثر بالرياضات الروحية، والتفكير المستديم الطويل، أي أنه ليس من قبيل الوحي النفسي، الذي هو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية والسريرة الظاهرة[2].

لأن هذه لا تنشيء المعرفة التامة واليقين الكامل، الذي لا ريب فيه فلا تسمو بصاحبها إلى درجة النبوة.

بل إن الوحي هو (أمر طارىء زائد على الطباع البشرية)[3]، خارجي عن النفس والباطن، لا يخضع لأي تأثير يطرأ عليهما، يتلقاه النبي ﷺ من الذات الإلهية، بواسطة الملك الموكل بذلك.

والذي يدقق النظر في كيفية الوحي ومعالمه، وما يطرأ على النبي ﷺ من ظواهر، يدرك أن الوحي لا يتصل بهوى النفس.

يتضح ذلك في الأمور الآتية[4]:

١ ـ حين جاء الملك جبريل في غار حِرَاء إلى النبي ﷺ أمره بالقراءة ـ وهو أُمّي ـ كما جاء في صحيح البخاري في باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: فقال له ـ جبريل ـ: «اقرأ[5]»، قال: **ما أنا بقارىء، قال** ـ أي النبي ـ: **فأخذني فغَطَّني**

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ط٣ ج١ ص١٣٤.

(٢) الكلام عن الوحي النفسي في الوحي المحمدي ص٦٦.

(٣) إرشاد الساري ج١ ص٦٠.

(٤) انظر الوحي المحمدي ص٨٩ وما بعدها، ومناهل العرفان ج١ ص٥٦ وما بعدها، وج٢ ص٢٨٥ وما بعدها، والنبأ العظيم ص٢٠ وما بعدها، والظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ص١٦٥ وما بعدها، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص٢٢ وما بعدها، وكبرى اليقينيات الكونية ص١٩٨ وما بعدها، والرسول لسعيد حوى ج٢ ص١٣ وما بعدها.

(٥) الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف ـ أي: كن قارئاً ـ. ولذلك قال له في الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كن قارئاً باسمه ومن قبله وبإقداره إياك على القراءة، لا بحولك وقوتك، فهو يعلم أنك أُمّي، أما وقد شاء ربك أن يخلق الإنسان من علق، ويجعله بصيراً وسميعاً، شاء أن يجعلك قارئاً، لما يوحيه إليك، لتقرأه على الناس، فأنت تكون قارئاً/ الوحي المحمدي هامش ص٨٥.

وغط جبريل الرسول ﷺ ليفرغه عن النظر إلى أمور الدنيا، ويُقبل بكليته إلى ما يلقى إليه، وكرره للمبالغة، وقيل: غيره./ إرشاد الساري ج١ ص٦٣.

ـ أي: ضمّني بشدة وعصرني ـ **حتى بلغ من الجَهْدَ، ثم أرسلَني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾».

فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خُوَيْلِد ، فقال: «**زَمِّلوني زَمِّلوني**» فزمّلوه، حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «**لقد خَشِيتُ على نفسي**».

وقد عبّر النبي ﷺ عن رعبه من رؤية الملك جبريل، في رواية أخرى للبخاري في تفسير سورة المدثر: «**فَجُئِثْتُ منه رُعْباً**» وفي رواية أخرى: «**فجئثتُ منه هويت إلى الأرض**» وجئثت بمعنى: فزعت وخفت.

ولذلك لم تجد زوجته خديجة وسيلة تطمْئِن النبي على نفسه، وتطمئن هي عليه، إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن، وهو ابن عمها وَرَقة بن نَوْفَل، الذي قرأ كتب اليهود والنصارى وطمأنهما، وقال: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى.

يتضح بعد هذا: أنّ ضم الملك جبريل للنبي، وعصره إياه بشدة، وأمره بالقراءة ثلاثاً، يعتبر تأكيداً لهذا التلقي الخارجي، ونفي كونه نفسياً أو خالياً، ولذلك خُيّل إليه أنه قد ألَمّ به، فأسرع إلى زوجته، يشركها فيما جرى له من اضطراب ورعب وحيرة، يرجف فؤاده خائفاً، ويخشى على نفسه الموت، من هول ما رآه، فقال لها: «**زمّلوني زمّلوني**» ملتمساً الدُّثار، ليسكن إليه، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع.

ويعاوده الوحي مرة أخرى بعد فترة من الزمن، يأمره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ . . .﴾ فيتأمل الرسول ﷺ بهذا الأمر، وهو حيران، فيقول لخديجة: «**لقد أمرني جبريل أن أُنذر الناس، فمَن ذا أدعو، ومَن ذا يستجيب؟**».

كل هذا يدل على أن الوحي ليس بذاتي، وإنما هو خارجي عن نفس النبي ﷺ من الله تعالى بواسطة الملك جبريل عليه السلام.

٢ ـ الظواهر التي تصاحب النبي ﷺ حين يوحى إليه، تشهد أن الوحي لم يكن من قبيل حديث النفس، منها:

أ ـ يسمع النبي ﷺ صلصلة شديدة عليه، كصلصلة الجرس المتصلة الشديدة المتداركة. ففي حديث البخاري ـ كتاب بدء الوحي ـ[١]:

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٢.

«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليّ، فيفصِم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال».

ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: عرَق النبي في البرد حين يأتيه الوحي.

وفي مسند أحمد[1] عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: سألت النبي ﷺ: هل تحسّ بالوحي؟ فقال: «**نعم أسمع صلاصل، ثم أسكت عن ذلك، فما من مرة يُوحى إليّ، إلا ظننت أن نفسي تفيض**».

ب ـ يتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد:

ففي حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصد عرقاً).

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إن كان ينزل على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيض جبهته عَرَقاً) كتاب الفضائل ـ باب عرق النبي في البرد حين يأتيه الوحي. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (حتى إذا أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء عند الوحي، حتى إنه لَيتحدَّر منه مثل الجُمَان من العرَق في اليوم الشات، من ثِقَل القول الذي أُنزل عليه) من حديث الإفك. وهو في صحيح البُخاري من حديث الإفك أيضاً.

جـ ـ يغط في رأسه، ويتربّد وجهه (أي: يتغير فيصبح كلون الرماد):

ففي صحيح مسلم عن عُبَادة بن الصامِت رضي الله عنه قال: (كان نبي الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي، كَرِبَ لذلك، وتربّد وجهه).

وفي رواية أخرى:

(كان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي، نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما أُتلي عنه ـ أي: ارتفع عنه الوحي ـ رفع رأسه) كتاب الفضائل، باب عرق النبي في البرد حين يأتيه الوحي.

لذلك كان يُستر وجهه بثوب عند نزول الوحي عليه، وله غطيط من الآلام التي يعانيها من الوحي.

ففي البُخاري ـ باب يفعل في العُمْرة ما يفعل في الحج ـ عن يَعْلَى بن أُمَيّة: أن رجلاً أتى النبي ﷺ وهو بالجِعْرانة، وعليه جُبَّة، وعليه أثر الخَلُوق (وهو نوع من

(١) مسند الإمام أحمد ج٢ ص٢٢٢.

الطيب) أو قال: صُفْرة، فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عُمرتي؟ فأنزل الله على النبي ﷺ، فسُتر بثوب، ووَدِدْتُ أنّي قد رأيتُ النبيَّ ﷺ وقد أنزل عليه الوحي، فقال عمر: أيسُرُّكَ أن تنظر إلى النبي ﷺ وقد أنزل الله الوحيَ؟ قلت: نعم. فرفعَ طَرَف الثوب، فنظرتُ إليه، له غَطِيط (صوت فيه بحوحة) وأحسِبُه قال: كغَطيط البَكْر (الفتى من الإبل). فلما سُرِّيَ عنه، قال: «**أين السائل عن العُمْرة؟ اخلَعْ عنك الجبّة، واغسل أثَر الخَلوق عنك، وأنْقِ الصُّفرةَ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجُك**».

د ـ يسمع الصحابة عند وجه النبي ﷺ حين الوحي دوياً شديداً، كدوي النحل حين ينطلق من خليّته. كما جاء في صحيح الترمذي ـ باب التفسير (من سورة المؤمنون) قال عمر بن الخطاب ﷺ: (كان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي، سمع عند وجهه كدَويّ النحْل).

هـ ـ يثقل جسمه ﷺ عليه:

ففي حديث البخاري عن ابن عباس ﷺ: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل ـ أي القرآني لثقله عليه ـ شدة). وسيأتي الحديث بلفظه كاملاً بعد قليل.

وفي زاد المعاد: يذكر حال نزول الوحي عليه ﷺ: (حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض، إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه، حتى كادت ترضّها)[1].

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥].

ولا يحتمل هذا الثقل إلا نبيّ، ليرتاض جسده على تحمُّل عبء النبوة.

كل هذه الظواهر تدل على أن الوحي مستقل عن نفس محمد ﷺ، لأن حديث النفس والإلهام والتأمُّل لا يستدعي ظهور هذه الأعراض التي ذكرناها من: الآلام، والغطيط، وتربد الوجه، وتفصد العرق في اليوم الشديد البرد...

٣ ـ الوعي الكامل والحفظ المضبوط لما أُنزل عليه ﷺ عند الوحي وبعده.

وعرض جبريل عليه السلام القرآن الكريم كلّ سنة على النبي ﷺ، لا يدخل في هوى النفس، ولا يعتبر من إلهاماتها بأية حال.

ففي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصِم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلّمني، فأعي ما يقول**».

---

(١) زاد المعاد ج١ ص١٨ وحديث الرض رواه البخاري في كتاب الجهاد باب قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ...﴾/ انظره في إرشاد الساري ج٥ ص٦١.

ففي الحالتين يحصل الوعي الكامل لكل ما أوحي إليه.

وكان رسول الله ﷺ في أول نزول الوحي يحرك لسانه، متابعاً جبريل أثناء الوحي، يردد ما أوحي إليه مخافة أن ينساه، لكن الله تعالى طمأن نبيه بأن يتكفل له بحفظه، فلا مسوغ لتحريك اللسان به.

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ففي صحيح البخاري في باب بدء الوحي:

عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل - أي القرآني لِثقَله عليه - شدَّةً، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحرِّكُهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرّك شَفَتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال - أي ابن عباس -: جَمْعه لك صدرك، وتقرأه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قال: فاستمع له وأنصت. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ثم إن علينا أن نقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل، قرأه النبي ﷺ كما قرأ.

ولذلك كان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن. ففي حديث البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب كان جِبْريل يعرض القرآن على النبي ﷺ: عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة عليها السلام: (أسرّ إليّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي).

قال ابن كثير: هكذا رواه البخاري معَلَّقاً، وقد أسنده في موضع آخر في أحاديث عن ابن عباس وأبي هريرة، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة.

والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، وذلك حتى يكون أثبت وأرسخ، فلا ينساه[1].

٤ - انقطاع الوحي وإبطاؤه عن النبي ﷺ، وهو يتحرق شوقاً إليه، دليل

---

(١) انظر معارضة جبريل للنبي بالقرآن في: فضائل القرآن لابن كثير وهو ذيل تفسيره ص٢٦ - ٢٧.

استقلالية الوحي عن نفسه وفكره، فلا يصدر عن ذاته، ولا يوافيه طَوْع إرادته، فلا ينزل عليه إلا إذا شاء الله دون أن يتدخل في ذلك النبي ﷺ. ومن أمثلة انقطاعه:

أ ـ بعد نزول جبريل بآيات ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ . . .﴾ [سورة العلق] انقطع عنه ثلاثة أعوام، وفي بعض الأحاديث سنتين ونصف[1]. فحزن النبي ﷺ حزناً حتى غدا منه مراراً أن يتردى من رؤوس شواهق الجبال، كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في باب: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي كتاب التعبير[2]: (وبينما هو ماشٍ ذات يوم، إذ سمع صوتاً من السماء فرفع بصره فإذا الملك الذي جاءه بحِرَاء، فرعب منه، فرجع إلى زوجته خديجة، يقول: «**زمِّلوني زمِّلوني**» فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ . . .﴾ فحمِي الوحي وتتابع).

ب ـ وفتر الوحي شهراً كما في البخاري ـ باب حديث الإفك، من كتاب المغازي، والنبي في أشد الشوق إليه، ليحل الأزمة التي حدثت من الإفك، الذي رمى المنافقون فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، حتى قال لها النبي ﷺ: «**يا عائشةُ أما إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله**» فنزلت آيات سورة النور في تبرئتها بعد كلام الناس بشهر.

ألم يرَ المتأمِّل: أن هذا الشهر أطول من سنين، والنبي فيه ينتظر الوحي مع القلق والشك المستديم، فلو لم يكن الوحي شيئاً خارجياً لادعى نزوله حين حدث الإفك، وقطع النزاع فيه.

جـ ـ ولم ينزل الوحي ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، بشأن تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، مع حبه التحويل، فنزل الوحي بعد ذلك بالآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] كما جاء في صحيح التِّرمِذي[3]. وهذا الانقطاع يدل على أن النبي ﷺ

---

(١) إرشاد الساري ج١ ص٦٧.

(٢) ولفظ الحديث هو: (وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ـ فيما بلغنا ـ حزناً، غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى منه بذِرْوَة جبَل، لكي يُلقي منه نفسه، تبدّى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك)./ إرشاد الساري ج١٠ ص١٢١.

(٣) في صحيح الترمذي بشرح عارضة الأحْوَذي ج١١ ص٨٥ باب التفسير (عن البَرَاء بن عازِب قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة أو سبعة عشر شهراً، وكان=

ما كان ليفتري على الناس حديثاً، إذ أنه لم يتحدث في أثنائه بمسائل الدين والقرآن ولا ذم الشرك وأهله، إذ لو تحدث بذلك لنقله لنا أَلْصَق الناس به، كخديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الذي عاشره طول عمره.

فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي.

٥ ـ من أسباب نزول القرآن الكريم أن النبي ﷺ كان يُسأل في بعض الأحيان، فلا يملك للسؤال جواباً، فيسكت، وقد يستمر سكوته مدة طويلة.

فإذا نزلت الآية، دعا بالسائل، وتلا عليه ما نزل من القرآن بشأن سؤاله.

وكان يجيب أحياناً فيرد الوحي بخلاف جوابه، وفيه بعض العتاب أو الملامة.

فهذا دليل على أن الوحي أمر خارجي عن النفس، إذ لو كان بوحي داخلي، لا يحتاج إذا سئل إلى انتظار الجواب، ولا إلى تصحيح إذا أجاب أول الأمر.

٦ ـ نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن تدوين كلامه إبان نزول الوحي، خشية اختلاطه بالقرآن الكريم، لأنه يعلم تماماً: أن القرآن كلام أوحي إليه من الله تعالى بلفظه ومعناه، ولا يملك أن يغير منه حرفاً واحداً.

وكان إذا نزلت آية، أمر كتّاب الوحي بكتابتها، فعلم المسلمين أن القرآن كلام رباني، يصدر عن ذات الله الآمرة بواسطة الوحي، حتى إذا استقر فهم المسلمين لهذا الأمر أذِنَ لهم بكتابة الحديث.

وهذا يفيد أن النبي ﷺ كان يفرّق بين القرآن وبين الحديث، وإن كان معنى الحديث سواء كان قدسياً أو غيره هو من الوحي، إلا أنه يصوغه بأسلوبه البشري.

وشَتّان ما بين أسلوب القرآن، لأنه من الله رب البشر، وبين أسلوب الحديث، وإن كان من أفصح الناس، وذلك واضح للمتأمل بلا ريب.

٧ ـ موضوع الوحي:

الرسول ﷺ أُمّي، لا يعرف القراءة والكتابة، عاش في بيئة بدوية وثنية، ومعارف أهلها وعلومهم بدائية بسيطة، ليست لها قيمة، فلا تقارن بما تملكه الروم وفارس.

= رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ . . .﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فوجه نحو الكعبة، وكان يحب ذلك). كما ذكر هذه المدة البخاري في كتاب (التفسير) من صحيحه عند الآية المذكورة عن البراء بن عازب أيضاً.

وكان الرسول ﷺ يذهب إلى غار حِراء، يتعبد معتزلاً الناس، ولم يكن له من علم إلا ما تعلّمه من مجتمعه البدائي.

وهو في هذه الحال ينزل عليه الوحي بالقرآن الكريم، وفيه من الحقائق التاريخية والكونية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المختلفة، التي لم يسبق أن فكر بها، أو ذكرها، أو اهتم بها هو أو أي واحد في عصره من بيئته أو غيرها.

وتلك الحقائق دقيقة محددة ـ وسيأتي كلام عنها في إعجاز القرآن ـ ليس لأحد إنكارها، حتى إن أحبار اليهود الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ كانوا يذهلون، حين يرون القرآن يقص عليهم أنباء بني إسرائيل وأنبيائهم.

كل ذلك يدل على أن هذا النبي الأمي في وسطه البدائي لا يستطيع أن يأتي بهذه التشريعات والحقائق العلمية والغيبية من نفسه وفكره. فلا بد إذن من مصدر خارج ذات النبي، هو الوحي المنزَل عليه من الله تعالى.

٨ ـ إن ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام كان وحياً وتلقياً من الله تعالى، ولم يكن صادراً عن نفسه، لأنه حين طلب من النبي أن يبدل شيئاً من القرآن، أجاب بما أوحى الله تعالى، ولم يخفِ شيئاً منه ولم يخالفه.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٦].

٩ ـ الرسول ﷺ بشر. وقد تقدمت الآيات على بشرية الرسل والأنبياء، لكنه يفترق عن البشر بأنه أوحي إليه، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠، وفصلت: ٦].

وتصدير الآيات بكلمة (قل) التي تكررت في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة،

وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١].

و﴿ٱتْلُ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿وَرَتِّلِ﴾ [المزمل: ٤].

دليل على أن هناك مَن يوجه النبي ﷺ إلى القول بكذا وكذا، ودليل على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى بلفظه ومعناه، ولا صنعة فيه لمحمد ﷺ، وإنما كان عمله فيه:

أ ـ الوعي والحفظ.

ب ـ الحكاية والتبليغ.

جـ ـ البيان والتفسير.

د ـ التطبيق والتنفيذ.

١٠ ـ تمييز الرسول ﷺ بين تجربته الإنسانية الظنية التي تحتمل الشك والوهم، وبين يقينه الصادر عن الوحي، يدل على أنه يتلقى ما يوحى إليه تلقياً اكتسبَ درجةَ اليقين، فلا يقبل الشك، فما على الناس إلا اتباعه. وحادثة تأبير النخل شاهدة على ذلك، أخرجها مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه قال:

(مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظن يُغني ذلك شيئاً**»، قال: فأُخبروا بذلك فتركوه. فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننتُ ظنًّا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذبَ على الله عز وجل**».

وفي رواية له: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[١]. وفي رواية لابن ماجة أن النبي ﷺ قال: «**إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به، وإن كان من أمور دينكم فإليّ**»[٢].

١١ ـ العتاب الشديد أو اللين، الذي جاء في القرآن الكريم للرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: ١]، وقوله سبحانه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]... إلخ.

مما تقدم ذكره في (عصمة الأنبياء)، يدل على أن النبي ﷺ مبلغ، وأن ما أوحي به إليه، كان أمراً خارجياً، ولو كان نفسياً، أو من عنده ﷺ لكتمه. وما ذكر منه شيئاً يتلى على ألسنة الناس.

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ج٤ ص١٨٣٥ ـ ١٨٣٦ كتاب الفضائل ـ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً.

(٢) سنن ابن ماجه ج٢ ص٨٢٥ ـ كتاب الرهون ـ باب تلقيح النخل.

١٢ ـ التهديد الشديد والإنذار المخيف الموجَّه من الله تعالى إلى نبيه، يدل على أن الله ﷻ هو مصدر الوحي، ولا علاقة له بنفس النبي، ويدل على أن النبي شخص مأمور بتبليغ ما كلِّف به، من قوة آمرة عالية، لا يملك إزاءها أي تصرف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٨].

قال الزَّمَخْشَري[1] في تفسير آيات الحاقة:

(والمعنى: ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله، لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمَن يتكذب عليهم، معاجلةً بالسخط والانتقام، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو: أن يؤخذ بيده، وتُضرب رقبته. وخصّ اليمين عن اليسار، لأن القتّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه، أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جِيده، وأن يكفحه بالسيف، وهو أشد على المصبور، لنظره إلى السيف، أخذ بيمينه).

١٣ ـ لو كان مصدر القرآن العظيم من ذات النبي عليه السلام ومن عبقريته وذكائه، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه، إذ لا يوجد مَن ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته، أو أنه يدعي الألوهية، لا النبوة، وشتان ما بين مقامها ومقام الألوهية، لكنه ﷺ يؤكد دائماً بأنه عبدٌ لله وبشر، وهو يقيم الليل ويتضرع ويتوسل، فيقول في دعائه: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدّي وهَزلي، وخَطئي وعمَدي، وكلّ ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»[2].

ويقول: «**اللهم آتِنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار**»[3].

ويستمد النور الإلهي في دعائه قائلاً:

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢٦٦.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ج٤ ص٢٠٨٧.

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة ج٤ ص٢٠٧٠.

«اللهم اجعل لي في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن بين يدَي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، واعظم لي نوراً» رواه مسلم[(١)].

١٤ ـ حين نزل الوحي على محمد ﷺ يأمره بالقراءة وإنذار الناس، تحيّر في هذا الأمر الطارىء، وأخذ يشك، ويتساءل عنه في نفسه، ترى ما هو؟ أهي النفس أم غيرها؟ فإذا الوحي بعد هذا يفرض الحقيقة الإلهية العلوية فرضاً عليه، فيقول له حاكياً ما يدور في نفسه بكل صراحة:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤].

فردّ الله تعالى لهذا الشك الذي كان يساور محمداً ﷺ، يدل على أن النبي ﷺ كان يستقبل الوحي استقبالاً خارجياً، ولم يكن يملك شيئاً من أمره، لذلك قال بعد نزول هذه الآية: «**لا أشكّ ولا أسأل**» أخرجه عبدالرزاق وابن جَرير عن قَتادة[(٢)].

هذه الأمور وغيرها جعلت النبي ﷺ يتيقن الوحي تيقناً، لا يداخله ريب فيه، فلم يكن له سبيل في الرجوع عن أمره، حتى إذا اعترضت قريش عليه، وطالبوا عمه أبا طالب بأن يكف عن دعوته وعن تسفيه آلهتهم، طالبه عمه بذلك، فأجابه: «**والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه**».

هذا التيقن هو الذي دفعه لتحمُّل الأعباء الشديدة، مع إغراء المشركين له بالمال والمُلك إذا ترك دعوته، فرفض إغراءاتهم، وقاسى هو وأصحابه الآلام التي تنوء بها الرواسي في سبيل دعوته، وعادى أهله وقبيلته، والعرب وغيرهم، فأعلن حرباً شعواء على معتقداتهم، فنصره الله تعالى على أعدائه، وأظهر رسالة الإسلام في الأرض، فلم يقف أمامه عائق مهما عظم، ولم يصمد بوجهه جبارٌ مهما عتى وتجبّر.

* * *

(١) صحيح مسلم ج١ ص٥٣٠ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٢) الظاهرة القرآنية ص١٨٨ ناقلاً الحديث عن تفسير السيوطي وذكره ابن كثير في تفسيره ج٢ ص٤٣٢ عن قتادة وقال: وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري.

شبهات واهية[1]

إذا قيل بأن الوحي من قبيل رؤى النائم، أو افتراءات الكاذب، أو أخيلة الشاعر، أو أقاويل المجنون.

يرد:

بأن القرآن الكريم صوّر حيرة هؤلاء، وتخبطهم في الضلال، بأسلوب لاذع ساخر، يردد فيها حرف الإضراب (بل) ثلاث مرات:

قال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

وذكر قولهم فيه أنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] و﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

ورد افتراءاتهم فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ١ ـ ٢].

١ ـ أما أن الوحي من قبيل رؤى النائم، فهو مردود:

بيقظة النبي ﷺ المستديمة منذ نزول الوحي عليه.

ورواية الصحيحين ـ البخاري[2] ومسلم ـ قاطعة في أن الوحي فاجأه وهو يقظان متأمل في الوجود وخالقه، فقال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ ويعصره حتى يبلغ منه الجهد ثلاثاً، وبعدها يذهب إلى خديجة زوجته مرتعباً، يرجف فؤاده، يقول: «**زمّلوني زمّلوني**» فأخبرها بالخبر . . .

وهذا يدل على أن الوحي لو كان مناماً لزال خوفه ورعبه في اليقظة.

ويرد على هذا الزعم أيضاً ما تقدم آنفاً من الظواهر التي تبدو على الرسول ﷺ عند الوحي، والعتاب والتهديد وغيرها التي تقطع بأن الوحي لم يكن مناماً، بل هو حقيقة لا يمكن تجاهلها.

٢ ـ أما كونُ الوحي من افتراءات الكاذب فهو مردود:

---

(١) انظر: الوحي المحمدي ص٩٠ وما بعدها، ومناهل العرفان ج٢ ص٣١٧ وما بعدها. والظاهرة القرآنية ص١٨٢، ومباحث في علوم القرآن ص٣٨ وما بعدها. والرسول/ سعيد حوى ج٢ ص١٤.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الوحي.
وصحيح مسلم ـ كتاب الإيمان.

بشهادة العرب قبل النبوة حتى سمُّوه بالصادق الأمين، وكانوا يأتمنونه على أموالهم الغالية.

وكذلك بعد النبوة بشهادة العرب جميعاً من أعدائه وأنصاره.

يدلنا على هذا سؤال هِرَقْل ملك الروم لأبي سُفْيان، عن النبي ﷺ كما ورد ذلك في صحيح البخاري:

(قال ـ أي هِرَقْل ـ: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت ـ أي أبو سفيان ـ: لا . . .).

وحين أتمّ هرقل أسئلته لأبي سُفيان، قال مجيباً عن كل سؤال وجّهه إليه:

(وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله).

وما جاء به القرآن من أخبار ماضية ومستقبلة وتشريعات نيِّرة صالحة لكل زمان ومكان بشهادة كل ذي لب.

كل ذلك يدل على أن ذلك لا يصدر من كاذب.

وقد تقرر ذلك عند الكلام عن عصمة الأنبياء وعن إعجاز القرآن في هذا الكتاب فراجعه.

٣ ـ أما كونه من أخيلة الشعراء فهو مردود:

بما يظهر من احتقان ورعب عند الوحي، وهذا لا يظهر على الشاعر إن أراد نظم شعره، ولأن المعجزة الكبرى التي جاء بها رسول الله ﷺ هي القرآن الكريم في أسلوبه وتشريعاته وأخباره. . . والعرب في وقتهم أرباب الفصاحة والبلاغة بهروا وتحيّروا فيه، حين سمعوا آياته تتلى، كما أن القرآن تحداهم بأن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك كما سيأتي في إعجاز القرآن.

٤ ـ أما أن الوحي قد صدر من مجنون:

فترده حالة النبي ﷺ عند تلقي الوحي كل مرة، كمال الوعي، ووفرة النشاط، وقوة الأعصاب. وقوله ﷺ لخديجة: «**زَمِّلوني**» لا يفيد أكثر من لجوئه إلى الفراش، ليستريح بعد المنظر الرهيب الذي رآه.

ولذلك يأمره بالقيام بإنذار الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ . . .﴾.

كما أن المجنون لا يمكنه أن يأتي بهذه الشريعة المتكاملة لجميع جوانب الحياة، التي لا يكون مصدرها إلا العقل الكامل النيِّر المبين.

٥ ـ وإذا قيل:

إن احتقان الوجه والشحوب يمكن أن يفسَّر بأنه من أعراض التشنج.

يرد:

فإن التشنج يُحدث شللاً ارتعاشياً عند الفرد المحروم مؤقتاً من قواه العقلية والجسمية، ولكن أحوال النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي ـ كما مر وصفها ـ تشهد: أن الوجه هو وحده الذي يتغير، بينما يتمتع هو بحالة عادية وحرية عقلية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الوحي، في حين يمحى وعي المتشنج وذاكرته خلال تشنجه.

ثم إن تلك الأعراض الجسمية التي تظهر على النبي ﷺ حين نزول الوحي، لا تظهر عليه إلا في تلك اللحظة الخاطفة للوحي.

والحالة المَرَضية لا يرافقها تصبُّب عرَق، ولا يرافقها ظهور نص قرآني مُعْجِز في حد ذاته. وقد يكون سورة طويلة كسورة الأنعام، أو يكون نصاً فيه تشريع دقيق كنص المواريث، الذي يعتبر من أدق النصوص التشريعية في العالم.

٦ ـ ورأى بعضهم:

أن الراهب بَحِيرا ـ وهو من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث ـ علّم النبي ذلك، حين التقى به في بُصْرَى بالشام.

ورأى بعضهم: أن وَرَقة بن نَوْفل هو الذي علّم النبي ﷺ.

ويرد عليه بما يأتي:

أ ـ أن الراهب بَحِيرا لقي النبي ﷺ مع عمه أبي طالب ومعشر من قريش في رحلتهما إلى الشام مرة واحدة فقط، وكان عمر النبي ﷺ تسع سنين، وقيل اثنتي عشرة سنة. وكان الراهب بَحِيرا قد رأى في صَومعته في رؤياه أن رسول الله ﷺ قد جاء في رَكْب، وقد أظلّته غَمامةٌ، وصنع طعاماً لمعشر قريش، وكان سابقاً لا يلتفت إليهم، وهم يمرون به، ودعاهم إليه، فتخلف رسول الله ﷺ لحداثة سنّه، فقال الراهب: لا يتخلفنّ أحد منكم عن طعامي، فأخبروه بتخلُّف الغلام، أي النبي ﷺ، فأتوا به، وكان يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، وبعد فراغهم من الطعام دعا به، واستحلفه باللات والعزى، لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فقال له: «**لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما**» فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: «**سلني ما بدا لك**» وأخذ يسأله عن حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بَحِيرا من

صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوّة بين كتفيه. فسأل عمه عن أبيه، فقال له: هو ابني، فقال له: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً. فأجابه: إنه ابن أخي. فقال له أخيراً: ارجع به إلى بلده، واحذر عليه يهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده[1].

وللقصة غير تلك الرواية[2]، وليس في جميع الروايات ما يفيد أنه ﷺ سمع شيئاً من بَحِيرا عن عقيدته ودينه.

كما أن هذه الرحلة القصيرة ـ وهو صغير، ووجود عمه معه، حين التقى ببَحيرا ـ كل ذلك لا يعلّم النبي التشريع، ولا يعطيه مفاتيح الغيب، لكن قول بحيرا يؤكد نبوة محمد ﷺ حين سأله عن أحواله المختلفة، فيوافق ما عند بَحيراً، من هيئات النبي الذي بشّر به عيسى وموسى، فتنبأ أن يكون له شأن عظيم.

ب ـ أما شأن وَرَقة بن نَوْفل:

فإن الثابت في الصحيح: أن خديجة ﷺ انطلقت بالنبي عليه الصلاة والسلام ـ وذلك بعد أن جاءه جبريل عليه السلام في حِرَاء ـ إلى ورقة بن نَوفل بن أسَد ابن عمها، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس ـ أي أمين الوحي جبريل ـ الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً (أي شاباً)، ليتني أكون حياً، إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أوَ مُخرجِيَّ هم؟**» قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت

---

(١) سيرة ابن هشام ـ قصة بحيرا الراهب.

(٢) وممن رواها الحاكم في مستدركه ج٢ ص٦١٥ ـ ٦١٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، لكن علّق الذهبي عليه بقوله: قلت: أظنه موضوعاً فبعضه باطل/ انظر هامش المستدرك.

ورواها الترمذي في صحيحه/ انظره بشرح عارضة الأحوذي ج١٣ ص١٠٦ وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

واستقصى طرق وروايات هذه القصة الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية ج١ ص٢٤٣ وما بعدها، وقال بعد ذلك: وعلى كل تقدير فهو مرسل، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ فيما ذكره بعضهم إثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ، فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

به إلا عُودي، وإن يُدركني يومُك أنصرْك نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشب (أي: لم يلبث) ورقة أن توفي[1].

فورقة لم يلتقِ بالنبي وحده ـ كما ورد في الصحيح ـ بل كانت معه خديجة، ثم إنّ ورقة علم بمقارنة ما جرى للنبي ﷺ بما وقع لموسى وعيسى، فقال له: هذا الناموس، أي: أمين الوحي جبريل، لأن الوحي واحد لكل الأنبياء، وتوقع إخراجه حين يدعوهم، وتمنى نصره آنئذ.

كل هذا يدل على أن الوحي الذي نزل عليه وعلى الأنبياء قبله هو من عند الله تعالى، الذي علّمه وألهمه وهداه، فليس لورقة من ذلك شيء سوى التصديق بأنه سيكون رسول الناس، فكيف يكون مصدر علم النبي ﷺ؟

جـ ـ ثم إن الثابت هو أنه حين التقى ببَحِيرا، كان معه عمه أبو طالب، وحين التقى بورقة كانت معه خديجة، ولم يكن ذلك سراً مصوناً، فلمَ لم يذكر المؤرخون ما سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين؟ ولمَ لم يستفد هذان الرفيقان مما استفاده محمد من هذين الأستاذين؟ إن سكوت التاريخ عن هذا الأمر حجة كافية على أن هذه الدعوى كلام فارغ لا معنى له.

د ـ ثم إذا كان بَحِيرا وورقة بهذه الدرجة من العلم، فلماذا لم يأتوا بما أتى به النبي ﷺ كالقرآن الكريم، ولماذا لم يدّعوا النبوة، وإنما بشّروا بنبوة محمد ﷺ؟

هـ ـ ولو كان تلقيه على بحيرا وورقة حقاً، لاتهمته قريش بذلك، حين كانت تلفّق التهم عليه تلفيقاً. فإنهم اتهموه بأنه كان يتعلم من حدّاد نصراني رومي في مكة يصنع السيوف، وكان النبي يقف عنده أحياناً، ليشاهد صنعته، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

و ـ طبيعة النصرانية، وهي دين بحيرا وورقة والقين الرومي، لا تتفق مع ما جاء به محمد ﷺ فكيف تكون مصدراً لديانته وقرآنه؟

ز ـ في القرآن الكريم أنباء المغيبات حدثت بعد موت بحيرا وورقة، فكيف يتصور أن القرآن من تعليمهما؟

كما أن المعروف أن آيات القرآن كانت تنزل وفق الحوادث والوقائع الطارئة.

---

(١) الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، ومسلم في كتاب الإيمان. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص٣٢.

ح ـ لو تلقى النبي ﷺ عن بحيرا أو غيره، لنقلَ ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً صغيراً أو كبيراً إلا ودوّنوه، ولو لم يثبت عندهم، لأنهم يتركون أمره إلى رواة الخبر وإسناده.

ط ـ لم يثبت في الأحاديث الصحيحة أن محمداً ﷺ كان ينتظر الوحي عليه، ولو روي عنه شيء من ذلك لدوّنوه.

ي ـ كما أن الرسول ﷺ لم يلقَ أحبار اليهود ولا رُهْبان النصارى، ولم يثبت اتصاله بهم، وهذا ما أكده الباحثون.

ك ـ والقرآن الكريم بأحكامه القاطعة بالصحة المتتابعة، النازلة في مدة عشرين سنة، المتشعبة الكثيرة، في العقائد والمعاملات والحكم والأخبار الغيبية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المختلفة، يحكم العقل بالبداهة أنها ليست مأخوذة عن جلسة سريعة، والتقاء بسيط مع راهب أو غيره، إذ كيف يقطع بصحة تلك الأحكام على كثرتها والأخبار الغيبية من وراء تلك الجلسة؟ كل ذلك يدل على أن ما جاء به كان تلقياً من الله تعالى.

قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

٧ ـ وإذا قيل بأن سولون فيلسوف اليونان قد جاء بشرع منه، فليس بعجيب أن يأتي الرسول بشريعته من فكره وعبقريته.

فالرد عليه هو:

إن سولون أحد فلاسفة اليونان في القرن السابع قبل الميلاد، ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا.

وكان من رجال المال والحرب، وقد تولى في بلاده بعض الإدارات وقيادة الجيوش، وانتخب سنة ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجوناً) أي رئيساً للأمة، بإجماع أحزابها كلهم، وأعطوه سلطة مطلقة في نظم البلاد وقانونها، الذي وضعه (زراكوت) من قبله، فوضع سولون نظاماً جديداً اتبعته الحكومة. لكن هذا النظام الجديد كان عبارة عن تنقيح القوانين السابقة التي صنعتها أعظم الأمم فلسفة وحضارة وتقدماً آنئذ، وكان سولون متعلماً فيلسوفاً وقائداً لأعظم الجيوش المنظمة لأكبر دولة في العالم.

فأين هذا من محمد ﷺ، الأُمّي الذي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يعرف السياسة أو قيادة الجيوش. وما جاء به من تشريعات لم يكن مسبوقاً بقوانين تحكم جزيرة العرب كقوانين اليونان والرومان، لأن في الجزيرة قبائل متفرقة لا يجمع شملها نظام، ولا يحكمها قانون.

إذن ما جاء به لم يكن إلا وحياً من الله تعالى، فيه العقائد والآداب والأحكام وكل ما يحتاج إليه الناس، فكان صالحاً لكل زمان ومكان.





المعجزة

المُعْجِزة لغة: مأخوذة من العجز ضد القدرة[1].

واصطلاحاً: هي عبارة عما قصد به إظهار صدق مَن ادعى أنه رسول الله[2].

وقد اشترط المحققون فيها الشروط الآتية[3]:

١ ـ أن تكون أمراً من الله تعالى، ليصدِّق مدّعي النبوة.

والأمر يشمل:

أ ـ **القول**: كالقرآن الكريم.

ب ـ **والفعل**: كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ.

جـ ـ **والترك**: كعدم إحراق النار لإبراهيم الخليل عليه السلام.

٢ ـ أن تكون خارقة للعادة، التي اعتاد عليها الناس، واستمروا عليها مرة بعد أخرى.

وهذا الشرط يفيد أن غير الخارق لا يكون معجزة، كما إذا قال: آية صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب.

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٧٥.

(٢) المواقف وشرحه ص٥٤٧. وهناك تعريفات أخرى أريد بها حصر شروط المعجزة.

(٣) انظر هذه الشروط في: الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٣٥ ـ ٣٦ والعلامة عصام على العقائد النسَفية ص١٣٣ ـ ١٣٤ والمواقف وشرحه ص٥٤٧ ـ ٥٤٨ والمقاصد وشرحه ج٢ ص١٧٥ ـ ١٧٧ والدَّوَّاني ج٢ ص٢٧٦ وحاشية الخلخالي عليه. والمسامرة ص٢٤٠ ـ ٢٤٢ ورسالة في التوحيد ص٧٣ ـ ٧٤ وحجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ص٨ وما بعدها، واليواقيت والجواهر للشَّعْرَاني ج١ ص١٥٦ ـ ١٦١.

٣ ـ أن تكون على يد مدّعي النبوة أو الرسالة.

أي أن صاحبها يقوم بدعوة إلى دين، فيه سعادة الناس في الدنيا والآخرة. وعندئذ لا تدخلُ في المعجزة الأمور الآتية:

أ ـ الإهانة: وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، كما وقع لمسيلمة الكذاب حين بصق في عين أعور لتبرأ، فعميت الصحيحة.

ب ـ الاستدراج: وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، خديعة أو مكراً منه، أي استدراجاً لهم، وزيادة في غيِّهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم غافلون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ...﴾ الآية، والآية التي بعدها[1].

جـ ـ المعونة: وهي ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة.

د ـ الكَرَامة[2]: وهي ما يظهر على يد صالح تقي.

---

(١) أخرجه أحمد وابن جَرير وابن أبي حاتم وابن المنذِر والطَّبَراني في الكبير، وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيْه والبَيْهقي في الشُّعَب عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ./ الدر المنثور ج٣ ص١٢.
وهو في الجامع الصغير ج١ ص٦ وهو حديث حسن. ولم يذكر الآية.

(٢) الكرامة: هي أمر خارق للعادة تظهر على يد الولي، غير مقترنة بدعوى النبوة.
والولي: هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المُعْرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات[1].
وسبب الكرامات الإيمان والتقوى[2]. قال تعالى يصف الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

---

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص١٣٩ وشرح المقاصد ج٢ ص٢٠٣ والدواني ج٢ ص٢٨٢ والدَّرْدير على الخريدة ص١٢٢ ولوامع الأنوار ج٢ ص٣٩٧ وفيه ذكر شروط الولي، والرسالة القُشَيْرية ص١٥٨ وما بعدها، وكتاب الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان لابن تيْمِيَة، والباجوري على الجوهرة ٢/٥٤ ـ ٥٥، وحجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، واليواقيت والجواهر ج١ ص١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢) الفرقان لابن تيْمِيَة ص٨٩.

. . . .

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقد أثبتها جمهور المسلمين من السلَف والخَلَف، وأبو الحسين البَصْري من المعتزلة[١]، حتى أنكر الإمام أحمد بن حنبل على مَن أنكرها، وضلَّله[٢]، بل جعل بعضهم إنكارها فسقاً وابتداعاً[٣]، وحجتهم:

أ ـ القرآن الكريم: مثل:

تساقط الرُّطب الجني من النخلة اليابسة على مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

ووجود الرزق عندها بلا سبب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولبث أهل الكهف ثلاثمائة وتسع سنوات بلا طعام وشراب، قال سبحانه: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

وإتيان وزير سليمان عليه السلام (آصف بن برخيا) بعرش بلقيس بطرفة عين مع المسافة البعيدة: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

ب ـ تواتر عن الصحابة الكرام عدد كبير من الكرامات بحيث لا يمكن إنكاره، منها:

لما أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلى نهَاوند، أمر عليهم رجلاً يسمى سارية، فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح على المنبر: يا ساريةُ الجبَل. فقدم رسول الجيش فسأله فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدوَّنا فهزمونا، فإذا بصائح: يا ساريةَ الجَبَل، يا سارية الجَبَل، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.

ولما حاصر خالد بن الوليد رضي الله عنه حِصْناً منيعاً، قالوا: لا نُسْلِم حتى تشرب السُّم، فشربه فلم يضره[٤].

جـ ـ إثبات الكرامة للولي هو إثبات معجزة الرسول ﷺ، لأنه لن يكون ولياً إلا بعد أن يكون محقاً في ديانته، وديانته الإقرار بالقلب واللسان برسالة رسوله ﷺ مع الطاعة له في أوامره، لأن الولي لو ادعى الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة للنبي، لم يكن ولياً، ولم تظهر الكرامة على يده على سبيل الولاية، وإنما قد يظهر على سبيل الاستدراج[٥].

---

(١) لوامع الأنوار ج٢ ص٣٩٦.

(٢) لوامع الأنوار ج٢ ص٣٩٣.

(٣) الصاوي على الدردير ص١٢٢.

(٤) انظر هذه الأمثلة وغيرها في المواقف وشرحه ص٥٧٨ - ٥٧٩ وجميع المصادر السابقة المتحدثة عن الكرامة.

(٥) شرح العقائد للتفتازاني ورمضان أفندي عليه ص٢٩٢ وشرح المقاصد ج٢ ص٢٠٣.

٤ ـ أن لا تكون متقدمة على دعوى النبوة، بل مقارنة لها أو متأخرة عنها بزمن يسير يعتاد مثله.

لأن المعجزة شهادة من الله تعالى على صدق المدّعي، والشهادة لا تتقدم على الدعوى.

د ـ الكرامة أمر ممكن، ووجود الممكنات مستند إلى قدرته تعالى الشاملة لجميعها، فلا يمتنع شيء منها على قدرته[1].

وأنكر الكرامة: أبو إسحاق، والحَلِيمي من الأشاعرة، وأكثر المعتزلة[2] وابن حَزْم الظاهري[3] بحجة:

أنها تشبه حينئذ بالمعجزة وردّ بما يأتي:

١ ـ الكرامة ثابتة بالقرآن، وتواترها في كل عصر يشهد بأنها حق لا يمكن إنكاره كما تقدم.

٢ ـ وأن المعجزة تفترق عن الكرامة بالأمور الآتية:

أ ـ المعجزة مقارنة لدعوى النبوة، أما الكرامة فهي غير مقارنة لها، فصاحب الكرامة لا يدّعي النبوة، بل هو متّبع للنبي متمسك بشرعه، فلا تلتبس عندئذ الكرامة بالمعجزة[4].

ب ـ المعجزة مقدورة للأنبياء متى أرادوها، إما باختيارهم، وإما باقتراح الأمة. أما الكرامة فقد يأتي بها الولي، وقد لا يستطيع الإتيان بها[5].

جـ ـ الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين، لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله ﷻ، والأولياء يحتجون بالكرامة على نفوسهم، حتى تطمئن، وتوقن، ولا تضطرب، ولا تجزع عند فَوْت الرزق، لأنها أمّارة بالسوء جاحدة مشركة مجبولة على الشك، ليس عندها يقين بما ضمن لها خالقها من الرزق[6].

هـ ـ أن الأنبياء كلما زيدت لهم من المعجزات، يكون أتم لمعانيهم وفضلهم، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت في كراماتهم، يكون وجَلهم أكثر، وخوفهم أكثر، حذراً أن يكون ذلك من المكر الخفي لهم والاستدراج، وأن يكون ذلك نصيبهم من الله ﷻ، وسبباً لسقوط منزلتهم عند الله ﷻ[7].

---

(١) شرح المواقف ص٥٧٨.

(٢) الدَّوَّاني وشرح المقاصد وشرح المواقف ولوامع الأنوار والصاوي على الدردير والباجوري السابقة والرسالة القُشَيْرية ص١٥٨.

(٣) الفصل لابن حَزْم ج٥ ص١١ وذكر رأي أهل الظاهر الطوسي في اللُّمَع ص٣٩٣.

(٤) المصادر السابقة في رقم (٩).

(٥) رمضان أفندي ص٢٨٩ ـ ٢٩٠ والرسالة القُشَيْرية ص١٥٩.

(٦) اللُّمَع ص٣٩٣.

(٧) اللُّمَع ص٣٩٥.

فخرج بذلك: الإرهاص (مشتق من أرهصت الحائط أي أسسته): وهو ما كان قبل النبوة من الخوارق تأسيساً لها، كإظلال الغمام له ﷺ قبل بعثته، وشق صدره، وككلام عيسى عليه السلام في المهد.

والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الولاية.

٥ ـ أن تكون موافقة لدعوى النبوة.

فخرج بذلك المخالف لها، كما إذا قال: آية صدقي انفلاق البحر، فانفلق الجبل.

٦ ـ أن لا تكون مكذبة له.

فخرج بذلك ما إذا كانت مكذبة له، كما إذا قال: آية صدقي نُطْقُ هذا الجماد، فنطق بأنه مُفتَرٍ كذاب.

٧ ـ أن تتعذر معارضته.

وخرج بذلك:

السحر: وهو قواعد تُكتسب بالتعليم يقتدر بها على أفعال غريبة.

والكهانة: وهي التنبؤ بالمغيبات لا عن دليل.

والشعبذة أو (الشعوذة): وهي خفة في اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها، كما يقع للحواة (جمع حاوي).

٨ ـ أن لا تكون في زمان نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها، لأن ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوى لكونه زمان نقض العادات.

* * *

معجزة الرسول دليل صدقه

إظهار المعجزة يفيد العلم بصدق النبي أو الرسول، كما يفيد تصديق الله سبحانه له، فكأنها ـ على ما قال إمام الحَرَمين ـ بمنزلة أن يقول: جعلته رسولاً، أو أنشأت الرسالة فيه[1] وذلك لأن معجزة الأنبياء بخرقها العادة أعجزت المتحدِّين عن

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٧٩.

المعارضة، مع كمالهم بما يناسب تلك المعجزة، وفرط اهتمامهم وتوفر دواعيهم.

ولهذا كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على أهل زمانه، وتهالكوا عليه وتفاخروا به، فاشتهر قوم موسى بالسحر، وعجزوا عن معارضة معجزة موسى عليه السلام في قلب العصا حيَّة.

واشتهر قوم عيسى بالطب، وعجزوا عن معارضة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

واشتهر العرب قوم محمد ﷺ بالفصاحة والبلاغة، وعجزوا عن معارضة معجزة الرسول ﷺ (القرآن الكريم) في بلاغته[1].

❊ ❊ ❊

حكم الإيمان بالمعجزة

الإيمان بأن الله تعالى قد أيّد أنبياءه ورسله بالمعجزات واجب، لا يجوز الاعتقاد بخلافه، لأن إثبات النبوة لا يتم إلا باجتماع أمرين:

أولهما: ادعاؤه النبوة.

وثانيهما: إظهاره المعجزة، لكي يظهر صدقه أمام مَن أُرسل إليهم.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2].

شبهة ورد:

ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إنكار المعجزة بحجة:

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٧٩ وإعلام النبوة للماوردي ص٥٧ وشرح المواقف ص٥٦٢ والبرهان للزَّرْكَشِي ج٢ ص٩٨.

(٢) أخرجه البُخَارِي - كتاب الاعتصام - الباب الأول ج٩ ص١١٣.

ومسلم (واللفظ له) - كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس.. ج١ ص١٣٤.

أ ـ أنها خروج عن العادة المألوفة المشاهَدة.

ب ـ ولأن العلم الحديث وأصول البحث يقتضي عدم التعويل على الروايات في هذا الشأن.

هذا القول مردود بما يأتي:

١ ـ إن طرق إثبات المعجزات صحيحة قطعاً، وقد ورد بعضها في القرآن والبعض الآخر في الحديث الصحيح الذي قد يصل إلى درجة التواتر.

فإنكارها هو إنكار للقرآن وصحيح الروايات من الحديث الشريف، وبالتالي إنكار كل ما ورد من أخبار دينية أو غير دينية، وصلتنا بطرق صحيحة متواترة ولو من زمن الجيل الذي سبقنا.

٢ ـ تجاهل المعجزات وعدم الإيمان بها، يعتبر الخطوة الأولى لإنكار الغيبيات، وفي مقدمتها الإيمان بالله تعالى. وفي ذلك هدم للشريعة الإسلامية من الأساس.

٣ ـ إن نواميس الكون بذاتها معجزات، لأن خلق الإنسان وأعاجيب تركيب أجزائه معجزة، وكذلك خلق الشجر وخلق الماء والجمادات والحيوانات الأخرى كل منها معجزة بذاتها. وهذا يعني أن الذي أوجدها ورعاها بهذا الإعجاز ـ وهو الله تعالى ـ قادر على أن يغير مجرى الأسلوب الذي هو عليه، فالمعجزات هي في حيز الممكن لا من المستحيلات، كما هو معروف بالبداهة.

٤ ـ إجماع الأجيال المتعاقبة على ثبوت المعجزات، ولذلك آمنوا بالرسل والأنبياء.






المبحث الرابع

النبوة الخاصة

المطلب الأول

إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ

تقدم أن إثبات النبوة لا يكون إلا باجتماع أمرين:

أولهما: ادعاء النبوة.

وثانيهما: إظهار المعجزة.

فكل مَن ادعى النبوة وأظهر المعجزة فهو نبي.

وهذان الأمران يثبتان نبوة محمد ﷺ، وهما يشكلان المبدأ الأول في إثباتها، وهناك أمور أخرى تُعد شواهد مؤكدة ومقررة لنبوته ﷺ.

وإليك توضيح الأمرين المُثبِتَيْن لنبوة الرسول الأعظم محمد ﷺ، وهما:

* * *

الأول: ادعاء النبوة

تواتر عن النبي ﷺ أنه ادعى النبوة بلا خلاف من أحد تواتراً ألحقه بالعَيَان والمشاهدة.

* * *

الثاني: إظهار المعجزة

ثبت عن الرسول ﷺ أنه أظهر المعجزة.

معجزات الرسول ﷺ:

ومعجزاته نوعان:

النوع الأول:

كمعجزات الرسل والأنبياء السابقين قصيرة الأمَد، زالت بزوال أيامها، وبموت مَن شاهدها. والمتطلع إليها لا يجدها إلا في الأخبار، كمعجزات موسى عليه السلام من: قلب العصا حيَّة، وفلقها البحر، ومعجزات عيسى عليه السلام كإبراء الأكْمَه والأبرص وإحياء الموتَى... إلخ.

ومن هذه المعجزات ما ثبت بالقرآن الكريم، أو نُقل إلينا بالخبر المتواتر مثل:

أ ـ انشقاق القمر الثابت بالقرآن الكريم: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

والأحاديث في هذا زاخرة كثيرة من طرق عدة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما.

ب ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ حين التمس الناس مع الرسول ﷺ الماء للوضوء فلم يجدوه، فدعا بإناء فيه ماء، فوضع الرسول ﷺ يده في ذلك الإناء، فنبع الماء من تحت أصابعه، فتوضأ جميع الناس إلى آخرهم.

وهذه المعجزة تكررت عدة مرات، كما ثبت ذلك في البخاري ومسلم وغيرهما.

جـ ـ إبراء المريض بلمسه ﷺ كما في البخاري ومسلم وأصحاب السنن في وقائع كثيرة.

د ـ إخباره بحوادث قبل وقوعها، وهو كثير جداً مثل:

١ ـ أخرج أبو داود عن ثَوْبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشِك الأممُ أن تَدَاعى عليكم، كما تَدَاعى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتها**» فقال قائل: ومن قِلَّة نحنُ يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم كثير، ولكنكم غُثَاءٌ كغُثَاء السيل، وليَنْزِعَنَّ اللّهُ من صدور عدوكم المَهابةَ منكم، ولَيَقْذِفَنَّ اللّهُ في قلوبكم الوَهْنَ**» قال قائل: يا رسول الله وما الوهْنُ؟ قال:

«**حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت**»(1).

والذي ينظر إلى وضع المسلمين منذ أن اضمحل سلطانهم في الأرض، يجد طمعَ العالَم والكيد للمسلمين مع كثرتهم الكاثرة.

٢ ـ روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفان من أمتي من أهل النار لم أرَهما: قومٌ معهم سِياط كأذناب البقر، يَضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلات، رؤوسهُن كأسنِمة البُخْت المائلة، لا يدخُلْنَ الجنة، ولا يجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها لَيوجدُ من مَسيرة كذا وكذا**»(2).

والناظر في أمة الإسلام بعد قرونها الأولى، يجد الصنف الأول من شيوع الظلم وإيذاء الناس، ويجد في عصرنا الحاضر الصورة الدقيقة للنساء في عريهن وفتنتهن... التي رسمها الحديث.

٣ ـ قوله ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ على الناس زمانٌ، لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله، أصابه من غباره**»(3).

ومن المعلوم أن الحياة الاقتصادية الحاضرة تقوم على الربا بالمصارف وغيرها، وهذا إخبار عما نحن فيه.

٤ ـ روى البخاري ومسلم(4) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز، تُضيء أعناق الإبلِ ببُصْرَى**» وبُصْرَى مدينة بالشام.

فأنبأنا عن حدوث بركان عظيم، من المكان الذي عيّنه النبي ﷺ، فقد حدّث النَّووي عن السَّمْهُودِي، وكانت في زمنه سنة ٦٥٤هـ، وقد فصَّل القول فيها عن زلزالها ودويها ونارها، وقال أخيراً: «**إن ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر، حتى كأنَّ الحَرَمَ والمدينةَ قد أشرقت بهما الشمس، وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور**

---

(1) أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب تداعي الأمم على الإسلام ج١ ص٤٨٣.

(2) رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة ـ باب النساء الكاسيات العاريات.. ج٣ ص١٦٨٠ وكتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب النار يدخلها الجبارون ج٤ ص٢١٩٢.
والبُخْت: الإبل الخراسانية. واحده جمل بختي وناقة بختية.

(3) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرك./ الجامع الصغير ج٢ ص١٣٣ وهو صحيح.

(4) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الفتن ـ باب خروج النار.
ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز./ اللؤلؤ والمرجان ص٨١٣.

الشمس على الأرض يَعتريه صفرةٌ، ولونها هي يعتريه حمرة، والقمر كأنه خسف» وذكر هذه النار القاضي سِنان والقاشاني والعِماد ابن كَثِير والمَطَرِي وغيرهم[1].

النوع الثاني:

نوع خالد خلود الدهر، ماثل في كل حين، ألا وهو القرآن الكريم.

وهنا نتتبع بعض جوانبه الدالّة على أنه معجزة سيدنا محمد ﷺ وأنه من عند الله تعالى.

***

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مصدر قرأ، كالغفران مصدر غفر.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨].

وفي الاصطلاح: هو كلام الله تعالى، المنزَل على الرسول محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شُبهة، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المتعَبَّد بتلاوته[2].

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خَلفِه، وهو التشريع الخالد لكل زمان ومكان.

والقرآن الكريم معجز، أعجز البشر عن أن يأتوا بسورة من مثله. وهنا لا بد أن نقيم الدليل على إعجازه، لتسْلَمَ لنا نبوة محمد ﷺ، ويسلم الإسلام كله بعد ذلك.

***

(١) كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما والشفا للقاضي عِيَاض وإعلام النبوة للماوَرْدي ودلائل النبوة للبَيْهَقي والرسول ـ سعيد حوى ج٢ ص١٣٠ وهذه الأمثلة غَيْض من فَيْض.

(٢) فتح الغفار لابن نُجَيْم ج١ ص١٠ وجمع الجوامع بشرح البَنَّاني ج١ ص٢٢٣ وعلم أصول الفقه عبدالوهاب خَلاّف ص٢٢.

إعجاز القرآن

الإعجاز: إثبات العجز للغير.

يقال: أعجز القرآن البشَر، أي: أثبتَ عَجْزَهم عن أن يأتوا بمثله.

ولا يتحقق الإعجاز إلا بأمور ثلاثة:

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارضة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة.

فالمصارع إذا ادعى البطولة، وأنكر عليه مصارع آخر، فتحداه الأول، فلم يستطع الثاني منازلته، كان الأول قد أثبت عجز الثاني، وذلك:

لوجود التحدي من الأول،

ولحرص الثاني على إبطال دعوى الأول،

ولانعدام المرض أو العذر المانع من المباراة.

* * *

تحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم

لبيان صحة إعجاز القرآن الكريم، لا بد أن نعرض كل شرط من شروط الإعجاز المتقدمة على القرآن، ليتضح لنا إعجازه بجلاء، وذلك على النحو الآتي:

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارَضة:

فالقرآن الكريم تحدّى العرب، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله ـ وهم أرباب الفصاحة والبيان شعراً ونثراً ـ، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤].

وتحدّاهم بأن يأتوا بعشر سوَر مثله، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

فلما عجزوا تحدى الإنس والجن بلهجة واخزة وتهكم لاذع:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا التحدي لم يقف عند زمن الرسول ﷺ فحسب، بل هو ماضٍ إلى يوم القيامة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة:

فالرسول ﷺ ادعى أنه رسول الله، وجاءهم بكتاب الله (القرآن الكريم)، يسَفِّه عباداتهم، ويسخر من عقولهم، فحرصوا على رده بأن يأتوا بمثله أو ببعضه، ليدحضوا حجته، فلا يقال أنه من الله.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة:

فالمانع الذي يمنع العرب من المعارضة غير موجود، وذلك متضح في جوانب عدة هي:

أ ـ جانب اللغة: فالعرب كانوا قادة الفصاحة والبيان بشعرهم ونثرهم، وكان القرآن بلسانهم.

ب ـ جانب المعنى: فقد كانوا على بصر وخبرة وتجارب وذكاء، كما تشير إلى ذلك خطبهم وأشعارهم ومنافراتهم وآثارهم.

جـ ـ جانب الزمن: فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال المعارضة[1].

والعرب يعلمون أن معارضة القرآن بنظم سورة مثله أبلغ في تكذيب محمد ﷺ وأسرع في تفريق أتباعه، لكنهم عجزوا عن ذلك، مع أنهم مصاقع الخُطباء، وأساطين البلاغة في تلك الفترة الطويلة، فسلكوا سبيلاً آخر، وهو بذل النفوس، والمقارعة

---

(١) علم أصول الفقه ـ عبدالوهاب خلاَّف ص٢٥ ـ ٢٧ ومحاضرات في أصول الفقه للشيخ بدر المتولي عبدالباسط ج١ ص١٢٩.

بالسيوف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحرب الضارية[1].

وتحدّي القرآن الكريم ثابتٌ قديماً وحديثاً ومستقبلاً للخصوم ذوي الأفكار الخبيثة الباطلة، الذين يطعنون به ويشككون فيه. إن هؤلاء يمثلون في موقفهم ذلك موقف المتخاذِل المنهزم، الذي لا حَوْل له ولا قوة. وما ذلك إلا اعتراف كامل بأن القرآن الكريم كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما على هؤلاء إلا الانقياد والامتثال، لما فيه من الأوامر والنواهي، والإيمان بما جاءت به السنّة النبوية المطهرة.

* * *

وجوه إعجاز القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب تشريع ودستور للناس، تُبنى به حياة عزيزة كريمة، يريد أن تعمر بها الأرض.

ولم يكن مقصده الأصلي أن يؤصِّل نظريات علمية، أو أن يقص علينا أنباء الأولين، أو أن يكون صورة أدبية فريدة في الأسلوب، لكنه ذكر آيات الله في الخلق بذلك الأسلوب الرفيع، ليعلمهم أنه كلام إلهي معجِز في حد ذاته، وليؤكد الإيمان به واتخاذ العِبَر من القصص.

والقرآن الكريم معجز من وجوه متعددة[2] هي:

الوجه الأول: فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وعجيب نظمه.

جميع ألفاظ القرآن الكريم فصيحة، لا تنبو عن السمع، وعباراته مطابقة لمقتضى الحال في أرفع مستوى من البلاغة، يحس بطلاوته ورقته وروعته مَن له أدنى ذوق باللغة العربية، وهذا واضح في تشبيهاته واستعاراته ومجازاته ومختلف أساليبه.

وهو غريب على العرب في أسلوبه، إذ ليس لهم كلام مشتمل على هذه الفصاحة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكَم الكثيرة،

---

(1) الإتقان ج٢ ص١١٧ وشرح المقاصد ج٢ ص١٨٣ وشرح المواقف ص٥٥٧ والدواني ج٢ ص٢٧٨ والنبأ العظيم ص٨٥.

(2) انظر: شرح المقاصد ج٢ ص١٨٣ ـ ١٨٧ وشرح المواقف ص٥٥٨ ومناهل العرفان ج٢ ص٢٢٨ وأعلام النبوة ص٥٧ وما بعدها، وعلم أصول الفقه ـ خَلاّف ص٢٨.

والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة.

ثم إنه عجيبٌ نظمه، وبديعٌ تأليفه، لا يتفاوت، ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، مع ذكر القصص والمواعظ وغيرها.

فلا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيراً[(١)].

والذي يتتبع تاريخ اللغات يجد أنها متطورة تدريجياً، أما اللغة العربية فلم يحدث لها تطور تدريجي حين جاء القرآن، بل بعض ما يشبه الانفجار المباغت، فطفر باللغة من مرحلة اللهجة الجاهلية إلى لغة منظمة فنياً، مع أنه لم يستعمل مطلقاً ألفاظاً أجنبية عن لهجة الحجاز. فكأنه استحضر ثروته اللفظية الخاصة، وأنشأها بطريقة غريبة، فأحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فخلق من الوجهتين الأدبية واللغوية فصلاً تاماً بين اللغة الجاهلية واللغة الإسلامية[(٢)].

قال الشيخ المودودي الهِنْدي:

(إذا قرأت اللغة العربية، ودرست أدبها، ظهر لك من دون أدنى ارتياب، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة، لأداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق معاني العلم الإلهي، والتأثير في القلوب، فبالجمل الصغيرة من هذه اللغة، تؤدي الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير في القلوب. إلى مثل هذه اللغة كانت تحتاج معاني القرآن الكريم، فمن حكمة الله البالغة، ورحمته الشاملة بعباده إذن، أن اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية)[(٣)].



---

(١) انظر في هذا بحثاً مستفيضاً في: الإتقان ج٢ ص١١٦ ـ ١٢٥ وقد جاء بآراء كثيرة للجاحظ والنَّظّام والرُّمّاني والخَطّابي والزَّمْلَكاني وابن عطية والرازي والقاضي عِيَاض والمَرّاكُشي والزَّرْكَشي والجُرْجَاني والسَّكاكي والتوحيدي والأَصْبَهاني وغيرهم.
وقد طبعت بعض هذه الكتب مثل: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمّاني والخَطّابي والجُرْجَاني وكتابان للزملكاني هما: البرهان الكاشف، والتبيان، حققهما د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحَدِيثي. والشِّفَا للقاضي عِيَاض، والبرهان للزَّرْكَشي.. كما ذكر الدكتور عمر ملا حُوَيْش في كتابه (تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية) آراء بعض هؤلاء محللاً كتبهم في الإعجاز. وانظر إعجاز القرآن للرافعي، والمصادر السابقة، والنبأ العظيم ص٨٠ وما بعدها.

(٢) الظاهرة القرآنية ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٣) مبادىء الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص٤٧.

أسلوب القرآن الكريم

أسلوب القرآن[1] هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، وقد جاء القرآن الكريم كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب، فمن حروفهم تألَّفت كلماته، ومن كلماتهم تألَّفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه. ومع ذلك فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ.

ومثل البيان اللغوي في أية لغة مثل أي صناعة من الصناعات.

فالخياطون يختلفون فيما بينهم فمنهم مَن هو خامل أو ماهر، أو ضعيف أو بارع. وهذا الاختلاف لم يكن نتيجة الاختلاف في مواد الثياب المخيطة أو الآلات والأدوات العامة المستخدمة في الخياطة، بل جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها، واستخدام قواعد هذه الصناعة في شكلها وهندستها.

وإذا نظرت في مفردات اللغة العربية تجد:

إن منها ما هو متآلف في حروفه ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه، وموافق لقياس اللغة ومخالف له.

ومن تلك المفردات ما هو عام أو خاص، أو مطلق أو مقيَّد، أو مجمل أو مبين، أو معرَّف أو منكر، أو ظاهر أو مضمَر، أو حقيقة أو مجاز.

وكذلك التراكيب العربية، منها ما هو حقيقة أو مجاز، أو متآلف الكلمات أو متنافرها، أو واضح المعاني أو معقدها.

وليس شيء من هذه المتنوعات بالذي يحسن استعماله إطلاقاً، ولا شيء منها بالذي يسوء استعماله إطلاقاً، أي في جميع الأحوال والمقامات، إذ لكل مقام مقال، فما يجمل في موطن قد يقبح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يمتنع في مقام آخر.

ومن السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي (ت٤١٢هـ) في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل)، قال مبيناً سر التعبير بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة البقرة الآية (٥٨): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة الأعراف الآية

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.

(١٦١): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ مع أن القصة واحدة، ومدلول الحرف واحد. قال:

(الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء. وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟﴾ فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل، فالأكل وجوده معلّق بوجوده، بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟﴾ لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن مَن يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء[1]).

* * *

خصائص أسلوب القرآن الكريم

الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، ومن تلك الخصائص:

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية الخلابة العجيبة، المتجلية في نظامه الصوتي وجماله اللغوي. والمراد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً.

فمَن ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية يشعر ولو كان أعجمياً لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب، وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتقارب أنغامها، فلا يفتأ السمع أن يملها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً على نمط يورث سامعه الملل والسأم.

أما سامع لحن القرآن فلا يسأم ولا يمل، لأنه ينتقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة على أوضاع مختلفة، يهز كل وضع منها أوتار القلوب.

وهذا الجمال الصوتي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ولم

---

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص١٠ وفيه النص كامل مع زيادة.

تكن عهدت مثله، حتى خيل إليهم أنه شعر أو سحر.

والمراد بجمال القرآن اللغوي ما امتاز به في رصف حروفه، وترتيب كلماته، حين تعطى حروف القرآن حقها ومستحقها من المخارج والصفات على ما هو مقرر في قواعد علم التجويد.

وحين يخرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخّاذة، امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة.

ولقد كان الجمال اللغوي والنظام الصوتي دليل الإعجاز من ناحية، وكان من ناحية أخرى سوراً منيعاً لحفظ القرآن، يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، فيبقى سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره.

الخاصة الثانية:

إرضاؤه العامة والخاصة.

فالعامة والخاصة على حد سواء إذا قرؤوه أو قرىء عليهم أحسوا بجماله، وتذوقوا حلاوته، وفهموا منه ما استطاعوا أن يفهموه.

وليس كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرضِ العامة، لأنهم لا يفهمونه.

وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرضِ الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

الخاصة الثالثة:

إرضاؤه العقل والعاطفة، لأنه يخاطب القلب والعقل معاً.

فمثلاً وهو في معرض الاستدلال العقلي على البعث والإعادة، يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب ويمتع العاطفة. قال سبحانه في سورة فصلت الآية (٣٩): ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال سبحانه في سورة قٓ الآيات (٦ ـ ١١): ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن

﴿كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾.

هذا الأسلوب البارع أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد، قال في الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ وفي الأخيرة: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات.

وحين يسوق قصة يوسف عليه السلام مثلاً يأتي بالعظات البالغة ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال في فصل منها: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

فتأمل كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرحمٰن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفَّتَيْ ميزان.

وهكذا تجد القرآن الكريم كله مزيجاً حلواً سائغاً، يخفف على النفوس تجرعها الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية.

وهذا ليس ككلام البشر، فإنه إذا وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها، وإن وفى بالعاطفة بخس العقل حقه، حتى أصبح معلوماً عرفاً أن الأساليب النثرية مقسمة إلى نوعين: أسلوب علمي وأسلوب أدبي.

فطلاب العلم لا يرضيهم الأسلوب الأدبي، وطلاب الأدب لا يرضيهم الأسلوب العلمي، والإنسان مهما أوتي لم يملك هاتين القوتين متكافئتين، وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا يعملان معاً دفعة واحدة، بل على سبيل البدل والمناوبة ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

أما القرآن فإنه هو المفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي جمع بين الروح والجسد في قرآنه.

الخاصة الرابعة:

جودة سبك القرآن وأحكام سرده.

فالقرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله، وآياته وسوره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه وتنوع مقاصده، وتلوينه في الموضوع الواحد.

فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة.

وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات، ونكتفي بمثال واحد نضربه مع الاختصار.

هذه سورة الفاتحة، تأمل كيف تترابط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد.

لقد افتتحت متوجة باسم الله كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلالة الملك، لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعاً إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي بالله تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة، الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال، وبوصف لفظ الجلالة بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، ما دام أنه المستعان وحده بالدليل.

ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾.

ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته في ألوهيته وربوبيته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده.

ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده، بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر، أو من حيث تشعر، إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام، تنبيهاً وإغراء على المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع في نقيض هذا المقصود ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضال رضي أن يعيش عيشة الانعام، في متاهة الجهالة والحيرة والضلال، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه.

ثم تنظر في سورة البقرة فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل. فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط مَن أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن، حيث جاءتنا بتفاصيل هذه الهداية في بيان كامل، وعرض شامل.

فتراه ينتقل من مقصد إلى مقصد بأسلوب أخاذ رائع بديع.

هذا بخلاف البشر الذين كثيراً ما يخطئون في تنظيم أغراضهم إذا قالوا، بل يأتون بها شيئاً مفككاً غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله، بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى آخر في القصيدة الواحدة.

ومما يضطر الكتّاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافي هذا النقص، بما يستخدمون في تنقلاتهم بين أغراضهم من أسماء الإشارة، وأدوات التنبيه، والحديث عن النفس، وكثرة التقسيم والترقيم والعنونة، ولفظ أما بعد، ونحو هذا، وأن، وإلا، وإن قلنا كذا، وتقسيم الكتاب إلى مباحث، وكل مبحث يشتمل على النقاط الآتية...

الخاصة الخامسة:

براعته في تصريف القول وتروته في أفانين الكلام.

فيورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، من ذلك:

تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١ - الإتيان بصريح مادة الأمر، نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٢ ـ الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

٣ ـ الإخبار بكونه على الناس، نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤ ـ الإخبار عن المكلّف بالفعل المطلوب منه، نحو: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي: مطلوب منهن أن يتربصن.

٥ ـ الإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: مطلوب من المخاطبين تأمين مَن دخل الحرم.

٦ ـ طلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

أو بلام الأمر، نحو: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩].

٧ ـ الإخبار عن الفعل بأنه خير، نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٨ ـ وصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر، نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٩ ـ وصف الفعل بالفرضية، نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي: من بذل المهور والنفقة.

١٠ ـ ترتيب الوعد والثواب على الفعل، نحو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

١١ ـ ترتيب الفعل على شرط قبله، نحو: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

١٢ ـ إيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام، نحو: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧] أي: تذكروا.

١٣ ـ إيقاع الفعل عقب ترجٍّ، نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

١٤ ـ ترتيب وصف شنيع على ترك الفعل، نحو: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وانظر من ذلك تعابيره عن النهي والإباحة..

ولقد خلع هذا التصرف والافتتان لباساً فضفاضاً من الجدة والروعة على القرآن، فلا يمل قارئه، ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع.

وهذا التصرف في القول فن من فنون إعجازه الأسلوبي، ومِنَّة يمنها الله على الناس، ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن، والإقبال عليه قراءة وسماعاً وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معهما لمَن أهمل هذه النعمة، وسفَّه نفسه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

والمجمل(*):

جمع القرآن بين الإجمال والبيان، مع أنهما غايتان متقابلتان، لا يجتمعان في كلام واحد من الناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبيّن.

الخاصة السادسة:

ما له دلالة غير واضحة، مثل: لفظ (مختار) فإنه متردد بين الفاعل والمفعول، ولفظ (القرء) فإنه متردد بين الحيض والطهر.

والمبيّن:

ما لا خفاء فيه، لا ما وقع إليه السياق. نحو: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان. أما كلمة القرآن فإنك تجدها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التعقيب والبحث لأول وهلة، وإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معانٍ جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً. وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد.

(*) المجمَل: هو ما خفي المراد منه بنفس اللفظ خفاء لا يدرك إلا ببيان من المجمل، سواء كان ذلك:

لتزاحم المعاني المتساوية الأقدام كالمشترك.

أو لغرابة اللفظ كالهَلُوع (وهو مَن يسرع في الجزَع عند إصابة المكروه، وفي المنع عند إصابة الخير).

أو لانتقاله من معناه الظاهر إلى ما هو غير معلوم كالصلاة والزكاة والربا.

انظر: التلويح على التوضيح للتفتازاني مع حواشيه (ط١ مصر) ج١ ص٤١٤.

ولهذا السر وجد في كتاب الله جميع أصحاب المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة شفاء أنفسهم، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه، ويدينون به.

وليس كذلك كلام البشر، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم، ضاقت ألفاظهم، ولم تتسع لاستنباط وتأويل، وإذا قصدوا إلى إجمالها لم يتضح ما أرادوه وربما التحق بالألغاز.

الخاصة السابعة:

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى.

ففي ألفاظ القرآن بيان قاصد، مقدّر على حاجات البشر من الهداية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق.

ومع هذا اتضح المعنى في صورة كاملة. لذا قال ابن عَطِية فيما يحكي السُّيوطي عنه، وهو يتحدث عن القرآن الكريم: (لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد).

أما البليغ من الناس فإن أراد القصد في اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه حمله على الغض من شأن المعنى، وقد يبلغ إلى حد الألغاز والتعمية.

وإذا أراد الوفاء بالمعنى حمله على الإسهاب، حرصاً على ألاّ يفوته شيء من المعنى الذي يقصده.

وإذا افترضنا أن بليغاً كتب له التوفيق بين هاتين الغايتين في جملة أو جملتين فإن الكلال يلحقه في بقية الكلام لا محالة.

والناظر في ما أُثر عن أبرع الشعراء والكتّاب والخطباء يجد ذلك واضحاً، وما كان اللفظ الواضح الجامع والمعنى الناصع إلا في أبيات أو جمل معدودة.

حتى الرسول ﷺ مع أنه أوتي جوامع الكَلِم، وأشرقت نفسه بأنوار النبوة، وسما كلامه على كلام كل إنسان، فإن بينه وبين القرآن البون الشاسع.

الوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

تأثيره وسلطانه على القلوب، وأخذه بمجامع الأفئدة.

فقارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة،

وترديده يوجب له محبة، فإذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة ما تنشرح له الصدور، وتستبشر به النفوس[1].

ودليل ذلك ما يأتي:

١ ـ أنهم كانوا يهيمون على وجوههم ليلاً، فيهجرون لذة النوم ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم، قائماً بالليل أو في صلاة الفجر، فتطرب نفوسهم، وتهش له أفئدتهم.

نقل ابن كثير عن البَيْهَقي عن الحاكم بسنده إلى الزُّهْري: أن أبا جهل وأبا سُفيان والأخنَس بن شَريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنَس بن شَرِيق، أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سُفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حَنْظَلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثَعْلَبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وأشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها.

فقال الأخنس: وأنا الذي حلفتَ به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جَهْل، فدخل عليه بيته، فقال:

يا أبا الحكَم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعتُ؟ تنازعنا

---

(١) الشفا ج١ ص٢٧٣ و٢٧٦ والإتقان ج٢ ص١٢٣ نقلاً عنه.

وقال الخَطَّابي: قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب.../ انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٧٠.

نحن وبنو عبد مَنَاف الشَّرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسَيْ رهان قالوا: ما نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شَرِيق[1].

وهذا دليل واضح على أن نفوسهم مستيقنة بصدق القرآن وإعجازه، لكن عنادهم وحسدهم حال دون التصديق به.

٢ ـ أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل.

فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله.

قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنك كاره له.

قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١].

إسناده صحيح على شرط البخاري[2].

وللقصة روايات عديدة من طرق مختلفة[3]، جاء في بعضها عند القرطبي أن

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ ج١ ص٥٠٥ ـ ٥٠٦ (وهي من كتابه البداية والنهاية) وهذا في سيرة ابن هشام ج٢ ص٦٦ المطبوعة مع الروض الآنف تحقيق طه عبدالرؤوف سعد.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي في أسباب نزول الآية ١١ من سورة المدثر.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٩٨ ـ ٥٠١ وسيرة ابن هشام ج٣ ص١١ وتفسير القرطبي ج١٠ ص٦٨٦٥ ـ ٦٨٦٦ والشفا ج١ ص٢٦٢ وتفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤٢ ـ ٤٤٣.

الوليد قال: (. . . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر) حين جاءت قريش إلى الوليد فقالت له: (فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فقال تعالى رداً عليه:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٧].

٣ ـ عن عُتْبَة بن ربيعة أنه كلّم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم (حم. . . فصلت) إلى قوله في الآية ١٣ ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ، وناشده الرَّحِم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله، واحتبس عنهم[1].

وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعُتْبة مصغ ملقٍ يديه خلف ظهره، معتمد عليهما، حتى انتهى إلى السجدة، فسجد النبي ﷺ، وقام عتبة لا يدري بمَ يراجعه، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه، فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلّمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريتُ ما أقول له[2].

وفي رواية:

ثم قام عُتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني والله قد سمعتُ قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكَهَانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خَلُوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله لَيكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعِزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم[3].

وعُتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف ممن قتل ببَدْر كافراً.

٤ ـ روى ابن سِنْجَر بسنده إلى شُرَيح بن عُبَيد قال:

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٥٠٢.

(٢) الشفا ج١ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٥٠٤ ـ ٥٠٥.

قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ - قبل أن أسلم - فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، قال: قلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝﴾ [٤٠ - ٤١] قال: قلت: كاهنٌ، علم ما في نفسي، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [٤٢ إلى آخر السورة].

قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع(١).

٥ - إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وملخص رواية ابن إسحاق في السيرة هو: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج متوشّحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ وأصحابه الذين اجتمعوا معه في بيت قرب الصَّفَا.

ولقيه في الطريق نُعَيْم بن عبدالله، فسأله عن وجهته، فأخبره بغرضه، فحذّره بني عبد منَاف، ودعاه أن يرجع إلى بعض أهله (خَتَنه سعيد بن زيد ابن عمه، وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد) فقد صبآ عن دينهما.

فذهب إليهما عمر فسمع خبَّاب بن الأرَتّ، يتلو عليهما القرآن، فاقتحم الباب وبطش بخَتَنه سعيد، وشَجَّ أختَه فاطمة، ثم أخذ الصحيفة - بعد حوار دار بينهم - وفيها سورة طه، فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، فكبّر عليه الصلاة والسلام تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم.

وفي رواية أخرى:

أن عمر قال: (فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام)(٢).

وهناك روايات أخرى، وكلها تُجمع على أن عمر رضي الله عنه قد أسلم حين سمع بعض آيات القرآن الكريم تتلى من سورة طه.

٦ - كان المشركون يجتهدون في صد الرسول ﷺ عن تلاوة القرآن في الكعبة، وفي مجامعهم وأسواقهم، وكانوا يتواصون بعدم سماعه، قال الله تعالى فيهم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝﴾ [فصلت: ٢٦] لئلا يسمعه المشركون، وعندها تعتريهم هيبة القرآن فيُسلمون.

---

(١) الروض الأُنُف ج٢ ص٩٩ - ١٠٠.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص٩٥ - ٩٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٣٢ - ٣٩، وبيان إعجاز القرآن للخطَّابي ص٧٠.

٧ ـ وكان أبو بكر ﷺ حين يقرأ القرآن لا يملك عينيه من البكاء، فكان يجتمع الأولاد والنساء يسمعون، ويلتذون به، ويهتزون له، فحمل ذلك قريشاً على منعه من الصلاة في المسجد الحرام، ثم من داره، كما روى ذلك البخاري في باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة(١).

٨ ـ حين قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النَّفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها فلم يبقَ بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن(٢).

٩ ـ روي عن نصراني أنه مر بقارىء ـ يتلو القرآن جهراً ـ فوقف يبكي فقيل له: لِمَ بكيتَ؟ فقال: للشجا والنظم(٣).

والمراد بالشجا هو الحزن الذي أصابه من استماعه، فرَقّ قلبه وخشع بدنه.

والمراد بالنظم هو رونق انتظامه وحسن انسجامه.

١٠ ـ وذكر أبو عُبَيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحِجْر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته(٤).

١١ ـ وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام(٥).

١٢ ـ وسمع جُبَيْر بن مُطْعِم النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [٣٥ ـ ٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير للإسلام، وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي(٦).

وقال أبو عُبَيْد:

---

(١) صحيح البخاري ج٥ ص٧٤.
(٢) بيان إعجاز القرآن ص٧١.
(٣) الشفا ج١ ص٢٧٤.
(٤) المصدر السابق ج١ ص٢٦٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق ج١ ص٢٧٤ وهو في البخاري ومسلم.

إن جُبَيْراً قال: (فكأنما صُدِعَ قلبي) حين سمع النبي ﷺ يقرأ في صلاته بأصحابه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧ ـ ٨][1].

١٣ ـ حكي عن بعضهم أنه كان إذا أخذ المصحف بيده يغشى عليه من هيبته[2].

وأن بعض الصالحين: إذا تلي القرآن تواجدوا وصاحوا، وقد يتعدّى ذلك إلى الغشي وشَق الثياب، ومثله لا ينكر. ومَن لم يذق لا يعرف[3].

١٤ ـ وقد مات جماعة عند سماع آيات منه، أفردوا بالتصنيف[4].

وأمثال هذا كثير لا يتسع المجال للإطالة به.

هذا التأثير العجيب في أهل الفصاحة والبلاغة، وإن كنا لا نحس به الآن لغلبة العجمة وفشو الجهل بلسان العرب فينا، ولكنه حين نزل بهروا به وتذوقوا حلاوته، فجرَّهم إلى الإيمان جرًّا.

حتى إنه ورد في صفة الصحابة ﷺ: أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دوِيّ النحْل من تلاوة القرآن.

وكان بعضهم يقوم الليل كله، حتى شكت منهم نساؤهم إلى النبي ﷺ.

وكان بعضهم يقيم الليل بآية واحدة، يكررها ويتدبَّرُها.

وكانوا يقرؤونه في كل حين مستلقِين وقائمين، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتقشعر جلودهم لتلاوته، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣][5].

---

(١) الأموال لأبي عُبَيْد القاسم بن سلاّم ـ مصر ١٩٦٨ ص١٦٤.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ج١ ص٢٤٤.

(٣) نسيم الرياض ج٢ ص٥٢٤.

(٤) البرهان للزركشي ج٢ ص١٠٦ والإتقان للسيوطي ـ القاهرة ط٣ سنة ١٩٥١ ج٢ ص١٢٣.

(٥) الوحي المحمدي ص١٢٢.

حكى الأَصْمَعي[1] أنه سمع كلام جارية فقال لها: (قاتلك الله ما أفصحك؟

فقالت: أوَ يُعَدّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين).

وتقصد بالأمرين: أرضعيه وألقيه. وبالنهيين: لا تخافي ولا تحزني.

وبالخبرين: وأوحينا، فإذا خفت عليه. وبالبشارتين: رادوه وجاعلوه.

الوجه الثالث:

إخباره بوقائع غيبية ـ لا يعلمها إلا الله ـ في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

أ ـ فقد أخبر عن غيب الماضي:

وقصّ علينا قصص الأنبياء السابقين مثل: آدم ونوح وهود وصالح ويعقوب ويوسف وإبراهيم... وأممهم.

فبعد أن قصَّ قصة نوح، قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وبعد أن قصَّ قصة ولادة سيدتنا مريم عليها السلام وكفالة زكريا لها، قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وفصَّل قصة يوسف عليه السلام، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢] .... إلخ.

وهذه القصص حقيقية، وردت أكثر أخبارها في التوراة والزبور والإنجيل، حتى جادل الرسول ﷺ اليهود فيها، وصدّقوه، كما في قصة يوسف وبني إسرائيل، حتى أنهم بُهروا بما جاء به، لأنهم يعلمون أنه أمّي لا صلة له بكتبهم، وبما عندهم من أخبار.

كما أكدت صحة أخبار القرآن كتب التاريخ القديمة، والحفريات الحديثة التي

---

(١) حكاية الأصْمَعي في الشفا ج١ ص٢٦٣ وبشرح نسيم الرياض ج٢ ص٤٩٠.

تنبيء عن وجود تلك الأقوام وملوكها، وبعض أخبارهم المنقوشة في آثارهم العمرانية المطمورة.

ب ـ وأخبر عن غيب الحاضر:

١ ـ فتحدث عن الملائكة والجن، وعن الجنة والنار، وما يتصل بالله تعالى من صفات.

٢ ـ كما أوضح حقيقة مسجد الضِّرَار، الذي بناه المنافقون، وأرادوا به تفريق المؤمنين والإيقاع بينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧].

٣ ـ وفضح ما عليه المنافقون مما خفي عليه ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

جـ ـ وأخبر عن غيب المستقبل:

١ ـ فقد أخبر عن غَلَبة الروم،

روى التِّرمِذي عن نِيَار بن مُكْرَم الأسْلَمي قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ٤ ـ ٥] فكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية، خرج أبو بكر الصديق ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾.

قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. قال: وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر والمشركين، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم نجعل؟ البِضْع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسمِّ بيننا وبينك وسَطاً تنتهي إليه. قال:

فسمُّوا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر. فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، لأن الله تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ﴾ قال: (وأسلم عند ذلك ناس كثير). قال التِّرمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب[1]. وفي تفسير القُرطبي[2] روايات مفصَّلة أخرى.

٢ ـ وقال تعالى مخاطباً النبي ﷺ أنه سيدخل مكة، وهو لم يملك بعد قوة دخولها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

رأى رسول الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلى الحُدَيبيّة: أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصّروا. فقصَّ رؤياه على أصحابه، فاستبشروا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حقّ. فلما تأخر ذلك، اعترض بعض المنافقين كعبدالله بن أُبَيّ وعبدالله بن نُفَيْل ورِفَاعة بن الحرث. والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون مكة في غير هذا العام، وأن رؤياه حق[3].

٣ ـ كما أخبر القرآن الكريم بأن الله عاصم نبيه فلا يمكن اغتياله، مهما دبروا له من مكائد، وحرصوا على التخلص منه وقتله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ففي صحيح التِّرمذي[4]: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَس، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال لهم: «**يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله**» وللحديث رواية أخرى عن عبدالله بن شَقِيق.

والنبي في معركة أُحد أقرب المسلمين إلى العدو، حتى قال الإمام علي رضي الله عنه: (كنا إذا حَمِي الوطيس، احتمينا برسول الله فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه).

---

(١) صحيح التِّرمذي بشرح عارضة الأحوذي ج١٢ ص٧٠ ـ ٧٢.

(٢) تفسير القُرطُبي ج٧ ص٥٠٨٤.

(٣) روح المعاني ج٢٦ ص١٢٠ وانظر تفسير القرطبي عن قَتَادة ج٩ ص٦١٠٩ ـ ٦١١٠.

(٤) صحيح الترمذي بشرح عارضة الأحوذي ج١١ ص١٧٤ باب التفسير. وانظر من هذه الأمثلة عن عصمة الله له في: الشفا ج١ ص٣٤٦ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ج١ ص٧٧ ـ ٧٩.

وفي غزوة حُنين، وحين انهزم المسلمون، يُرْكِضُ الرسول ﷺ بغلته إلى المشركين، والعباس آخذ بلجامها يكفها، إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ، فلما غشوه لم يفر، ولم ينكُص، بل نزل عن بغلته، كأنما يمكّنهم من نفسه، وجعل يقول: «**أنا النبي لا كذِب، أنا ابن عبد المطلب**» كأنما يتحداهم، ويدلهم على مكانه، فوالله ما نالوا منه نيلاً، بل أيّده الله بجنوده، وكفّ أيديهم عنه. رواه الشيخان.

وفي غزوة ذات الرِّقاع ينزل تحت شجرة، ويعلق سيفه فيها، فيأتيه رجل من المشركين، فيأخذ السيف، ويقول للنبي: أتخافني؟ فيقول: «**لا**»، فيقول الرجل: وما يمنعك مني؟ فيجيب: «**الله يمنعني منك، ضع السيف**» فلا يملك الرجل إلا أن يضع سيفه./ صحيح مسلم عن جابر. وتزيد بعض الروايات: أن الرجل أعلن إسلامه(١).

فتحققت نبوءة القرآن الكريم، فلم يتمكن أحد من الأعداء أن يصل إليه، مع وفرتهم وكثرة عدتهم وتربصهم به كل حين، مع إقدامه في القتال، وشجاعته النادرة، وتعرضه للمشركين بالحرب، وتسفيه آلهتهم، مع أن كثيراً من الرؤساء والملوك إذا تربّص لهم عدوهم، نالوا منه، فيسقط مضرجاً بدمائه.

٤ ـ نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥] بمكة، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية للهجرة، تنبؤاً بهزيمة المشركين وانتصار المسلمين، حتى أن عمر ﷺ ـ فيما روى ابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْه ـ جعل يقول حين نزلت هذه الآية: أيّ جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها.

هذه الغيبيات التي ذكرها القرآن الكريم وغيرها كثير، وردت أنباؤها بشكل قاطع لا تردد فيه، وقد حدثتنا الأيام والوقائع عن صدقها تماماً، فهل جاء بها هذا الرجل الأمّي من عند نفسه؟

إنه لا بد أن يكون قد استقاها من مصدر علمي وثيق لا يقبل الخطأ، ألا وهو الوحي من الله تعالى خالق كل شيء، ولا يمكن لعاقل أن يحكم بأنها من عبقرية هذا الرجل، لأن المتنبيء يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف بضوئه بعض خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، ثم يُصدر حكمه بكل تحفظ وحذر، ولا يمكنه أن يبت بما يقول، لأنه عندئذ يكون أحد رجلين:

---

(١) إرشاد الساري ج٥ ص٩٩ ورواه البُخاري في كتاب الجهاد ـ باب مَن علّق سيف بالشجر، وأعاده في الغزوات بعد غزوة ذات الرقاع ثم في غزوة بني المصطلق وفي المغازي والجهاد، ومسلم في فضائل النبي، والنسائي في السير/ إرشاد الساري ج٥ ص٩٩.

إما رجل مجازف لا يبالي بما يقول صدقاً أو كذباً، وهو شأن العرّافين والمنجمين.

وإما رجل اتخذ عند الله عهداً، فلن يُخلف الله عهده، وهي سنّة الأنبياء والمرسلين.

والنبوءات التي وردت في القرآن لتدل دلالة قاطعة على أنها من عند الله تعالى على لسان رسوله الكريم، ولا يمكن أن تكون من قبيل المجازفة الواردة على ألسنة العرّافين.

الوجه الرابع: حقائقه العلمية التي جاء العلم الحديث يؤكدها.

شدّ القرآن العظيم أنظار الناس إلى الكون ونواميسه، وإلى ما فيه من مخلوقات، تأكيداً على أنه من الله تعالى، فما على المرء إلا الامتثال له.

ومن تلك الشذرات العلمية التي ذكرها وأكدها العلم الحديث بحقائقه الثابتة ما يأتي:

أ ـ كان علماء الفلك منذ قرون طويلة قبل الميلاد إلى ظهور المراصد الفلكية قد انقسموا إلى فريقين:

أحدهما: يرى أن الأرض ثابتة، وهي مركز العالم، والسيارات تدور حولها.

وثانيهما: يرى العكس. أي: أن الشمس ثابتة والأرض والسيارات تدور حولها.

لكن القرآن الكريم ثابت في نظرته وهي أن الأجرام السماوية متحركة سابحة في أفلاكها، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

فجاءت المراصد الحديثة تصدق نظرة القرآن العظيم، وهي أن كل جرم سابح في الفضاء غير ثابت.

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

يدل على أن الكون في توسع مستمر، يقول السير جيمس جينز: (مقدار هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال في الثانية، لكل بُعْدٍ قدرُهُ مليون سنة ضوئية، وأن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده، أي أن كل

بُعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف قدره الأصلي)[1].

ومسألة اتساعه أصبحت من مسلمات الأمور الآن، وهي التي هالت أنشتاين، واكتشف (هابل) عالِم الطبيعة أن الكواكب السديمية تبتعد عن سديمنا، واستنبط عالم الرياضة البلجيكي (لومتر) من ذلك نظرية امتداد الكون.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٧].

القرآن يرينا هذه الحقيقة، فتصرح بها أدق النظريات الجيولوجية، التي تقول بأن للجبال جذوراً وتدية في الأرض يعدل امتدادها ضعفَيْ ارتفاع الجبل عن الأرض.

د ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الآية مصرِّحة بأن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة، فجزئت إلى هذه الأجزاء. والنظريات الحديثة تذكر أن الأجرام السماوية كانت في الأصل سديماً واحداً.

هـ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الآية مصرحة بأن الذي يرتفع في السماء، يشعر بضيق الصدر وصعوبة التنفس، ومنذ اكتشاف الطبقات الجوية العالية بفضل الطيارة والصواريخ... رأى العلماء: أن الأوكسجين ينقص في تلك الطبقات، فيؤدي إلى الضيق، ولذلك يستعمل الطيارون حين يرتفعون في السماء أجهزة التنفس الصناعية تفادياً لذلك الضيق.

و ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل: ٦٦].

يدل على أن اللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين الفرث (وهو الفضلات) والدم. وهذه الحقيقة يوضحها العلم الحديث حين يقرر:

أن الحليب قبل أن يصبح في الثدي يمر بعمليتَيْ تصفية: أولاهما تصفيته من الفضلات، وذلك بعد الهضم، ونزول السائل الحليبي إلى الأمعاء، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها في الدم ومبقية الفضلات في الأمعاء، حيث تطرح خارج الجسم، أما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فإنّ قسماً منها

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية ص ٦٩.

يغذي جسم الكائن الحي، وقسماً آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً[1].

هذه الحقائق العلمية وغيرها كثير مما جاء بها النبي ﷺ، وهو أُمّي، نشأ في بيئة أُمّيَّة منعزلة عن أمم العالم، هي معالم وضيئة للفكر العلمي الحر، ولم يكن الناس ـ في مختلف أنحاء العالم ـ على علم بها، إلى أن ظهرت أدوات العلم الحديثة من أجهزة ومختبرات ومراصد فلكية. . . فإذا بها تقرر حقائق القرآن الكريم ناصعة لا لبس فيها ولا غموض يوماً بعد آخر.

ولم يكن القرآن الكريم معجزاً لما فيه من الشذرات العلمية التي ذكرنا أمثلة منها فحسب، بل يتجلى إعجازه في أنه لم يعارض ما استقر عليه العلم ولم ينكر ما فيه من حقائق علمية.

شبهة ورد:

فإذا قيل: إن النظريات العلمية قد تتغير، فنحن لا نُخضع القرآن الكريم لأمثال هذه التفسيرات، لأن البحث قد يكشف خطأ نظرية قديمة.

فالجواب:

إن تفسيرات آيات القرآن الكريم بما يكشفه العلم على وفق قواعد التفسير وضوابطه من اللغة وغيرها ما هو إلا فهم لتلك الآيات، فإذا تبيّن خطأ النظرية تبيّن خطأ ذلك التفسير، أما إذا كانت الآية لا تحتمل التفسير الجديد، فلا تفسَّر عندئذ وفق النظرية الجديدة، بل تنتظر أن يجد البحث فيها، حتى يظهر خطأ تلك النظرية[2].

الوجه الخامس: معانيه وأحكامه وانعدام الاختلاف فيه.

مجموع ما في القرآن الكريم حوالي ستة آلاف ومائتا آية، اشتملت على موضوعات العقائد والأخلاق والتشريعات المختلفة في شتى الميادين ـ سيأتي بيانها بعد قليل ـ للإيفاء بحاجات البشر وإصلاحهم.

وقد استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة، فلم يحدث فيه اختلاف:

---

(١) الرسول ـ سعيد حوى ج٢ ص٣٨ وما بعدها، وفيه أمثلة أخرى، وانظر حقائق أخرى في التفسير العلمي للآيات الكونية.

(٢) علم أصول الفقه للأستاذ عبدالوهاب خَلاَّف ص٣١ ومحاضرات في أصول الفقه لبدر المتولي ج١ ص١٣٢.

أ ـ في بلاغة عباراته: فلا نجد فيه عبارة بليغة وأخرى غير بليغة، لأن كل عبارة مطابقة لمقتضى الحال الذي وردت من أجله، كما أن كل لفظ فيه هو في موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه.

فآيات الأحكام كآيات الميراث تخلو من أسلوب الخطابة والتأثير، بخلاف الآيات المستهزئة بالشرك والأوثان، فإنها جاءت ذات طابع مؤثر محرك للوجدان لأن لكل مقام مقالاً.

ب ـ ولا في أحكامه وحججه: فلم يكن فيه معنى يعارض معنى، ولا حكماً يناقض آخر، وما جاء في القرآن مما ظاهره التعارض، فإن التعارض لا محل له بعد التأمُّل، لذلك فإن المفسرين لم يتركوا ذلك إلا بعد كلام عنه.

لذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

جـ ـ القرآن الكريم خالد خلود الدهر، فلا يطرأ عليه تغيير بزيادة أو نقصان، لأن الله تعالى قد تكفل بحفظه[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجْر: ٩] ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من المؤكدات اللغوية، الدالة على أن الله تعالى حفظه من التحريف والتبديل.

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

إنني أتساءل: هل بعد ذلك يفكر عاقل فيقول أن محمداً ﷺ جاء بهذا القرآن من فكره، أو عبقريته، أو باعتماده على بَحِيرا ووَرَقَة وغيرهما...؟

فلو أنصف العقل ما قرر إلا الحقيقة الكبرى وهي: أن القرآن الكريم مُعْجِز، وهو من لدن عزيز حكيم.

* * *

---

(١) الشفا للقاضي عِيَاض ج١ ص٢٧٥ والإتقان ج٢ ص١٢٣ نقلاً عن القاضي عِيَاض.

وذهب بعض المعتزلة إلى أن القرآن مُعجز بالصرفة، وهي: أن الله صرف همم المتحدِّين عن معارضته مع قدرتهم عليها.

ورد جمهور العلماء على هذا بحجة: أن الإعجاز لو قصد بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبقته، ليكون عدم معارضته أبلغ في خرق العادة... انظر الكلام عن أدلة الإعجاز بالصرفة وردها في شرح المقاصد ج٢ ص١٨٤ ـ ١٨٥.

الشواهد الأخرى على نبوة الرسول الأعظم محمد ﷺ

بعد الانتهاء من بيان الأساسين لنبوة محمد ﷺ، وهما: ادعاؤه النبوة وإظهاره المعجزة، وهما كافيان في إثباتها له، نعزز هذين الأساسين بوجوه مكملة ومقررة تشهد على نبوته عليه الصلاة والسلام وهي:

الشاهد الأول:

ما اجتمع فيه ﷺ من الشمائل والأوصاف سواء كان ذلك قبل النبوة أو حالها أو بعدها، وهذا المسلك ارتضاه الجاحظ والغزالي[1]، وهذه هي:

أ ـ أوصافه الشريفة، ومحاسنه الرفيعة، وأخلاقه الحميدة:

كالصدق والأمانة: فلم يكذب، ولم يغش، ولم يخن، حتى سمي بالصادق الأمين، فكانوا يأتمنونه على أموالهم، حتى قال النَّضْر بن الحارث لقريش: (قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقَكُم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم أنه ساحر، لا والله ما هو بساحر)[2].

والشفقة: فلم يؤذِ أحداً بيده أو بلسانه. ولم يقتل أحداً بيده الشريفة ـ مع شجاعته العظيمة كما تقدم ـ إلا أُبيّ بن خَلَف. فكان يتألم لما يراه من قومه من نهب وسلب وقتل، وكان يسعى للإصلاح بين المتخاصمين. وكان رحيماً رؤوفاً يشاطر المصابين آلامهم، وينصر اليتامى، ويطعم الجياع.

وفي صحيح[3] البُخاري حين طمأنته خديجة بعد رُعْبه من نزول جبريل عليه السلام، قالت له: (إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلَ الكَلَّ، وتكسِبُ المعدوم، وتَقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائب الحق).

والسخاء: فكان مضيافاً كريماً لأبناء السبيل والفقراء.

---

(١) شرح المواقف ص٥٦٥.

(٢) انظر قول النَّضْر في تهذيب سيرة ابن هشام ج١ ص٦٩ والشفا ج١ ص١٣٥ وإظهار الحق ج٢ ص٢٥٧.

(٣) صحيح البخاري ج١ ص٣ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

والصبر على البلاء خاصة بعد النبوة.

والزهد والتواضع والشجاعة الفريدة.

والحياء، حتى أنه لم يُبدِ جسدَه عارياً لغيره، مع اعتياد الناس في جاهليتهم ذلك.

وحلو الكلام، لين العَريكة، يحبه كل مَن لقيه أو جالسه.

والنظافة والهندام الجميل.

ب ـ هذا مع صفاء نفسه: من الحقد والأنانية والشك والشرك. فكان يكره عبادة الأصنام والأوثان، مع أن بيئته نشأت على عبادتها، فلم يحلف بهما، يدل له ما روي في السيرة النبوية لابن هشام في قصة بَحِيرا الراهب حين استحلفه باللات والعزى لما رأى قومه يحلفون بهما، قال له ﷺ: «**لا تسألني باللات والعُزَّى، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما**».

جـ ـ وحسن بدنه: سواء في جمال المظْهَر بسلامته من الأمراض المنفرة وقوته الجسمانية، فقد صارع ركانة المصارع المشهور، وصرعه.

أو في المخْبَر، فكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة، يهابه كل مَن رآه، عرفه أو لم يعرفه.

د ـ ورفعة نسبه: إذ أنه من أشرف بيوت قريش التي هي أشرف قبائل العرب قاطبة.

هـ ـ وشرف وطنه: إذ أنه من مكة المكرمة أطهر بقاع الأرض، لأن فيها بيت الله الحرام، وما يجتمع مثل هذا إلا في نبي[1].

لأن الله تعالى قدّر ما يحتاج إليه البشر بمجموعه من الكفاءات والمواهب المختلفة، فوزّعها بين أفراده، فنرى بعضهم يفوق الآخرين بالقوة الجسدية، والبعض الآخر يتفوق بالفن، وآخر يتفوق بالفكر الثاقب في الرياضيات أو الهندسة أو بالخطابة أو بالشعر، وبعضهم يخترع ما يبهر الناس، وامتاز البعض الآخر بأن اجتباهم الله واختارهم لتبليغ شرعه إلى الناس، وهم الرسل والأنبياء.

لهذا نرى أن بعض الناس جُبل على موهبة معينة امتاز بها على غيره.

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٨ والدَّوَّاني ج٢ ص٢٧٨ والمسايرة والمسامرة عليها ص٢٤٥ ـ ٢٤٩ وانظر أخلاقه في سيرة ابن هشام والشفا.

فالأنبياء جُبلوا على خلقة خاصة بهم، وصفات تميزوا بها عن غيرهم، فأعمالهم وأفكارهم فذة لا عهد للناس بها، وقد جعل الله تعالى فيهم الاستعداد الكامل لتحمُّل هذه المهمة الشاقة، وهي تبليغ الأحكام إلى البشر.

فلا عجب أن يجمع الله تعالى في هؤلاء الرسل والأنبياء من الصفات والسجايا ما يؤهلهم لأن يكونوا قادة العالم وهداة البشر إلى الصراط المستقيم[(١)].

وقد اجتمعت في رسول الله ﷺ المحاسن الرائعة، والسجايا البديعة، قبل بعثته ـ كما تقدم ـ وبعد بعثته، حتى وصفه القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه فقالت: (كان خُلُقُه القرآنَ، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه)[(٢)].

فكان الأسوة الحسنة في كل شيء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فهو القدوة الحسنة الطيبة، التي يرى المسلم أن من التقى والصلاح وبلوغ الجنة عند الله تعالى، هو أن يقتفي أثرها في الحياة الدنيا.

وما اجتماع هذه الخصال فيه قبل البعثة وبعدها، إلا شهادة كاملة بأنه نبيٌّ حقاً.

الشاهد الثاني:

ما اشتملت عليه شريعته من أمور تتعلق:

بالعقائد أو الأخلاق أو الأحكام العامة، وغيرها من دقائق التشريع والحكمة[(٣)]، وما فيها من الضبط والعدل والمرونة، مما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، كما شهد بذلك الأعداء (والفضل ما شهدت به الأعداء).

مع كونه أُمِّيًا لا يعرف القراءة والكتابة، إلى أن مات ﷺ، ونشأ بين قوم، غلبت فيهم الجهالة، ولم يمارس الخط والتعلم والتأدب[(٤)]، بل كان قبل نبوته يقضي أياماً طوالاً في غار حراء، وحيداً مختلياً بنفسه، متحنثاً ومتأملاً في جلال الله وعظمته.

وهنا نفصل محتويات القرآن الكريم، حتى يتأكد القارىء أن هذه الأمور الشاملة لكل جوانب الحياة، لن يأتي بها شخص عبقري أو غيره طفرة واحدة، وإن ملك زمام

---

(١) مبادىء الإسلام للمودودي ص٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الشفا للقاضي عِيَاض ج١ ص٩٦.

(٣) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٨ والدواني ج٢ ص٢٧٨.

(٤) الدَّوَّاني السابق والمُسَامَرة ص٢٤٩.

العلم والفكر، وتهيأت له أسباب التشريع، فما هي إلا من لدن عليم خبير، أوحى بها إلى الرسول الأمّي، ليبلغها للناس.

محتويات القرآن الكريم:

تنقسم هذه المحتويات إلى نوعين: أحكام وغيرها:

النوع الأول: أحكام القرآن، وهي ثلاثة أقسام:

١ ـ **أحكام اعتقادية**: أي في وجوب اعتقاد المكلف بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ـ **أحكام خلقية**: في وجوب التحلي بالفضائل والتخلي عن لرذائل

٣ ـ **أحكام عملية**: وهي تنظم نوعين:

أ ـ **أحكام العبادات**: لتنظيم علاقة الإنسان بربه، من صلاة وزكاة وحج وصوم...، وآياتها نحو ١٤٠ اية.

ب ـ **أحكام المعاملات**: وتنوع إلى الأنواع الآتية:

١ ـ أحكام الأحوال الشخصية المتعلقة بالأسرة، من زواج وطلاق، وآياتها نحو ٧٠ آية.

٢ ـ الأحكام المدنية المتعلقة بالبيع والإجارة والرهن والكفالة والشركة... إلخ، وآياتها نحو ٧٠ آية.

٣ ـ والأحكام الجنائية المتعلقة بالعقوبات والحدود، لحفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وآياتها نحو ٣٠ آية.

٤ ـ أحكام المرافعات المتعلقة بالقضاء والشهادة واليمين، لحفظ العدل، وآياتها نحو ١٣ آية.

٥ ـ الأحكام الدستورية المتعلقة بنظام الحكم وأصوله، وآياتها نحو ١٠ آيات

٦ ـ الأحكام الدولية المتعلقه بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها، ومعامله غير المسلمين في الدولة الإسلامية، وآياتها نحو ٢٥ آية.

٧ ـ الأحكام الاقتصادية والمالية المتعلقة بحق السائل والمحروم في مال الغني وتنظيم الموارد والمصارف، وآياتها نحو ١٠ آيات[1].

---

(١) علم أصول الفقه ـ خلاّف ص٣٣ ـ ٣٥ وأصول الفقه للدكتور عبدالكريم زيدان ص١٣٠ نقلاً عن خلاف، والإسلام عقيدة وشريعة ـ للشيخ محمود شلتوت ص٥٠٠ و٥٠٢.

النوع الثاني: غير الأحكام، وهي ثلاثة أقسام:

١ ـ الإرشاد إلى النظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، لمعرفة أسرار الخلق، فتمتلىء القلوب إيماناً بجلال الله وعظمته عن طريق النظر والاستدلال، وهو طريق جليل يفتح الآفاق للعلماء وغيرهم لإدراك الله وقدرته، وقد انتفع به غير المسلمين كثيراً حينما خاضوا غمار الكون، وعرفوا أسراره، فاستخدموها في نواحي الحياة.

٢ ـ قصص الأولين أفراداً وأمماً، وقد أوردها القرآن الكريم للاعتبار والاتعاظ، حتى يصلح الناس، فينفوا عنهم الخبث والفساد.

٣ ـ الإنذار والتخويف أو الوعد والوعيد، وللقرآن في ذلك طريقان:

أحدهما: الوعد والوعيد في الدنيا:

فيعد المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم والعز، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

ويعد الكافرين بتقلص السلطان والجوع والخوف، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

ثانيهما: الترغيب والترهيب بنعيم الآخرة وعذابها.

قال سبحانه:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤][1].

الشاهد الثالث:

أن النبي ﷺ مع فقره وقلة أنصاره وضعفهم، قد حارب الشرك وأهله وجبابرة العالم، فضلّل آراءهم، وسفّه أحلامهم، وهدم دولهم، وانتشر دينه في الآفاق، فانحسرت أمامه جميع الأديان، واتسعت دولته بعده، فحررت وحكمت الشرق والغرب، فلم يستطع العدو على كثرتهم في العدَد والعُدّة، وعلى تربصهم به وبأصحابه، وحرصهم على استئصاله ودعوته، أن ينالوا منه، أو يقدروا عليه.

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ـ للشيخ شلتوت ص٥٠٠ و٥٠١.

وما هذا إلا إمداد من الله له ولمَن كان على دعوته[1].

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

الشاهد الرابع:

ظهوره على فترة من الرسل وانتشار الضلالة.

فالعرب على عبادة الأوثان، والفرس على تعظيم النار وعلى الإباحية، والترك على تخريب الأمصار وإيذاء الناس، والهنود على عبادة البقر وتأليه الحجر، واليهود على الحقد والأنانية والشرك، والنصارى بين التوحيد والإشراك بالله.

وهكذا الناس على الأرض، فلا بد من دافع لهذا الإلحاد، ورافع للواء الصلاح والتقى، ولا يكون هذا إلا ممن أمدّه الله تعالى بنور النبوة[2].

الشاهد الخامس:

البشارات الواردة في كتب الأنبياء السابقين:

ذلك لأن الكتب السماوية مصدرها واحد، وهو: الله تعالى، وهدفها واحد وهو: إصلاح الناس، ليعبدوا الله. والنبي ﷺ جعل من أركان الإيمان: الإيمان بكتبه ورسله. وفي هذه الكتب السابقة بشارات تنبيء بظهور محمد ﷺ، حتى ذكر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام قد بشّر برسول من بعده اسمه أحمد، قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال المحقق عبدالحكيم السيالكوتي في حاشيته على البَيْضاوي:

(يجب أن يتصور أنّ كل نبي أتى بلفظة معرضة، وإشارة مدرجة، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، وذلك لحكمة إلهية. وقد قال العلماء: ما انفك كتاب مُنزَل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ لكن بإشارات، ولو كان منجلياً للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه، ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان، من العبراني إلى السرياني، ومن السرياني إلى العربي)[3].

وسأورد طرفاً من هذه البشارات من الزبور والتوراة والإنجيل.

ففي الزبور:

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٨.

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٩ وشرح المواقف ص٥٦٥.

(٣) إظهار الحق ج٢ ص٢٢٠.

١ ـ قال داود: (اللهم ابعث جاعل السنة، حتى يعلم الناس أنه بشر) يعني: ابعث محمداً، حتى يعلم الناس أن عيسى بشر.

٢ ـ وقال: (تقلد أيها الجبار السيف، فإن ناموسك وشرايعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك).

هذه الألفاظ من إحدى الترجمات القديمة العربية التي نقل عنها التفتازاني[١] المتوفى سنة ٧٩٢هـ.

وقد أورد رحمة الله الهندي في كتابه العظيم (إظهار الحق)[٢] في البشارة السادسة من الزبور (الخامس والأربعين) قطعة طويلة من ١٨ آية، فيها أوصاف النبي الذي بشر به، التي تنطبق على النبي محمد ﷺ تماماً، وفيها القسم الثاني (تقلد أيها الجبار...) بألفاظ أخرى. هذه الأوصاف هي:

كونه حسناً، وأفضلُ البشر، والنعمة منسكبة في شفتيه، ومباركاً، ومتقلداً بالسيف، وقوياً، وذا حق ودعة، وصدق وهداية، وأن نبله مسنونة، ويسقط الشعب تحته، ويحب البر، ويبغض الإثم، وتخدمه بنات الملوك، وينقاد أبناء الشعب له، وأبناؤه رؤساء الأرض، وتأتيه الهدايا، واسمه مذكور جيلاً بعد جيل، وتمدحه الشعوب إلى دهر الداهرين.

وفصّل رحمة الله بن خليل الهندي هذه الأوصاف جميعاً في محمد ﷺ بأدلة محكمة.

وفي التوراة:

١ ـ ما جاء في السفر الخامس: (جاء الله من طور سيناء، وأشرق من سيعير، واستعلن من جبال فاران).

يريد الإخبار عن إنزال التوراة على موسى بطور سيناء، والإنجيل على عيسى بسيعير، فإنه كان يسكن من سيعير بقرية تسمى ناصرة، وإنزال القرآن على محمد بمكة، فإن (فاران) في طريق مكة قبل العدن بميلين ونصف، وهو كان المنزل، وقد بقي اليوم على يسار الطريق من العراق إلى مكة.

وهذا ما ذكر في التوراة: أن إسماعيل أقام ببرية فاران، يعني بادية العرب[٣].

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٠.

(٢) إظهار الحق ج٢ ص٢٥٥.

(٣) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٩.

وهذا هو ما جاء في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء (أي سفر التثنية) في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ : ٢ (وقال: جاء الرب من سينا، وأشرق لنا من ساعير، استعلن من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار. في يمينه سنة من نار).

وفاران جبل من جبال مكة، كما جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام، هكذا:

٢٠ (وكان الله معه، ونما، وسكن في البرية، وصار شاباً، يرمي بالسهام، ٢١ وسكن برية فاران، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر).

ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كانت سكونته بمكة[١].

٢ ـ ما جاء في السفر الخامس:

(أنه تعالى قال لموسى عليه السلام: إني مقيم لهم نبياً من بني إخوتهم مثلك، وأجري قولي في فيه، يقول لهم ما آمرهم به، والرجل الذي لا يقبل قول النبي هو الذي يتكلم باسمي، فأنا أنتقم منه).

والمراد ببني أخوة بني إسرائيل بنو إسماعيل على ما هو المتعارف، فلا يصرف إلى مَن بعد موسى، لكونه صاحب شريعة مستأنفة، فيها بيان مصالح الدارين. فتعين محمد ﷺ[٢].

٣ ـ ما جاء في الآية (٢١) من الباب (٣٢) من سفر الاستثناء:

(هم أغاروني بغير إله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم).

والمراد بشعب جاهل: العرب، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال، وما كان عندهم من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا محقَّرين عند اليهود، لكونهم من أولاد هاجر الجارية، فمقصود الآية: أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة، فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون، فأوفى بما وعد، فبعث من العرب النبي ﷺ، فهداهم إلى الصراط المستقيم[٣].

---

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٥٠.
(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٩.
(٣) إظهار الحق ج٢ ص٢٤٩.

٤ ـ **ما جاء في السفر الأول:**

(أنه تعال قال لإبراهيم عليه السلام: إن هاجر تلد، ويكون من ولدها مَن يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخشوع)[١].

وفي الإنجيل:

١ ـ **ورد في الصحاح الرابع عشر:** (أنا أطلب لكم إلى أبي، حتى يمنحكم ويعطيكم فارقليطاً، ليكون معكم إلى الأبد، وفارقليط روح الحق باليقين).

هذا في إحدى الترجمات العربية التي نقل عنها التفتازاني[٢].

وأورد رحمة الله هذا عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ و١٨٣١ و١٨٤٤ في لندن في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا: (١٥ إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، ١٦ وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم فارقليط آخر، ليثبت معكم إلى الأبد، ١٧ روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله، لأنه ليس يراه، ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه، لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم)[٣].

فقوله (ليكون معكم إلى الأبد) يفيد بأنه بهذا النبي تُختم النبوة، فتكون شريعته عامة لا يحتاج الناس بعدها إلى نبي، فهو يعلّم الناس، ويمنحهم جميع الأشياء، ويذكرهم بما قاله السيد المسيح لهم.

٢ ـ **وفي الخامس عشر:** (وأما فارقليط روح القدس الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم، ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلته لكم.

ثم قال: وإني قد أخبرتكم بهذا قبل أن يكون، حتى إذا كان ذلك تؤمنوا به).

وقوله باسمي: يعني بالنبوة، ومعنى الفرقليط: كاشف الخفيات[٤].

وأورد (رحمة الله) هذا عن الترجمات المذكورة في الباب ١٥ و١٦ (٢٦ فأما إذا جاء **الفارقليط** الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق، الذي من الأب ينبثق، هو يشهد لأجلي، ٢٧ وأنتم تشهدون، لأنكم معي من الابتداء).

ويفيد أن محمداً يشهد للمسيح عليه السلام بصدقه وبشريته، فلم يكن مدّعياً الألوهية، الذي هو أشد أنواع الجهالة والضلالة، وبرّأ أمه عن تهمة الزنا، وهذا

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٩

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٨.

(٤) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٠.

مذكور في القرآن بكل جلاء[1].

٣ ـ **وفي السادس عشر**: (أقول لكم الآن حقاً ويقيناً: إن انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي، لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلت به إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويوبِّخهم، ويوقفهم على الخطيئة والبِرّ).

ثم قال: (إذا جاء روح الحق واليقين يرشدكم، ويعلمكم ويدبركم، ويذكركم لجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه)[2].

وذكر هذه البشارة (رحمة الله الهندي) معتمداً على التراجم العربية المذكورة ـ قبل قليل ـ في آخر أبواب إنجيل يوحنا (الباب السادس عشر): (٧ لكنني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، ٨ فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئة وعلى بر وعلى حكم، ٩ أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي، ١٠ وأما على البر فلأني منطلق إلى الأب، ولستم ترونني بعد، ١١ وأما على الحكم فإن أركون هذا العالم قد دين، ١٢ وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن، ١٣ وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي، ١٤ وهو يمجِّدني، لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم، ١٥ جميع ما هو للأب، فهو لي، فمن أجل هذا قلت: إن مما هو لي يأخذ ويخبركم)[3].

وذكر الشيخ رحمة الله الهندي[4]:

إن الفارقليط تعني عندهم (المعَزِّي والمُعِين والوكيل والشافع)، وهذه المعاني تصدق على النبي محمد ﷺ. وأصل اللفظة باليونانية (بيركلوطوس)[5] التي تعني قريباً من معنى: محمد وأحمد.

---

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٨٣.

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٠.

(٣) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩.

(٤) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩ وما بعدها.

(٥) سأل الشيخ عبدالوهاب النجار صاحب كتاب **قصص الأنبياء** المستشرق الإيطالي كارلو نلينو عن كلمة (بيركلوطوس) الواردة في الأناجيل، فأجابه: إن القسس يقولون أن هذه الكلمة معناها (المعَزّي) فقال له: إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً، فقال: إن معناها الذي له حمد كثير، فسأله أيضاً: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم./ الرسول لسعيد حوى ج٢ ص٢٨٧.

وعيسى عليه السلام كان يتكلم بالعبراني لا باليوناني، وتلفظ عيسى عليه السلام باسم النبي بعده مفقود، أما اللفظ الموجود اليوناني (بيركلوطوس) فهو من ترجمة يوحنا من العبراني إلى اليوناني، وحين ترجم من اليونانية إلى العربية صار فارقليط. وعيسى عليه السلام كان يبشر بالفارقليط من بعده، يؤكد هذا ما يأتي:

١ ـ أن البعض من النصارى قد ادعى أنه الفارقليط في القرون الأولى النصرانية، وأنه الموعود به الذي وعد بمجيئه المسيح عليه السلام كما ذكر ذلك وليم ميور.

وقال صاحب لُبّ التواريخ: (إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد ﷺ كانوا منتظرين النبي، فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم، لأنه ادعى أني ذاك المنتظر).

وحين وصل كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ـ وكان نصرانياً ـ فقال: (أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب) فكتب في الجواب إليه: (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً، قد بايعتك وبايعت ابن عمك ـ أي جعفر بن أبي طالب ـ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين).

وكذا في كتاب المقوقس ملك القِبْط جواباً لكتاب محمد ﷺ إليه.

وكذا ما جاء في كلام الجارود بن العلاء ـ وهو من العلماء النصارى ـ حين دخل مع قومه على رسول الله ﷺ[1].

وكان هِرقْل عظيم الروم كما في حديث البُخاري ـ باب بدء الوحي ـ ينتظر ظهوره، وكان علماء النصارى ينتظرون ظهوره، كما في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه.

فالنجاشي والمقوقس والجارود وهِرَقْل من علماء النصارى أكدوا أن النصارى ينتظرون ظهور نبي، لأن وصفه مذكور في كتبهم كالإنجيل وغيره.

وهؤلاء لم يخافوا من رسول الله ﷺ شيئاً، لأنهم أصحاب دول وجيوش جرّارة، ورسول الله ﷺ في بداية دعوته، وكان هو وأصحابه مستضعفين، يخافون أن يتخطفهم الناس.

٢ ـ قوله: (إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) يدل على أن مجيء النبي ﷺ موقوف على ذهاب عيسى عليه السلام.

---

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩ ـ ٢٨١.

٣ ـ القول في الإنجيل (يوبّخ العالم) بمنزلة النص الجلي على محمد ﷺ لأنه ربّخ العالم، سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى، ولذلك قال: (أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي).

٤ ـ ولم ينطق من عنده، وإنما هو وحي في كلامه وأخباره.

٥ ـ كما أنه يمجّد عيسى عليه السلام، وهذا ثابت بالقرآن في تمجيد محمد ﷺ لعيسى خاصة، والأنبياء عامة، كما هو معروف.

وبشارات الكتب السماوية بظهور النبي محمد ﷺ كثيرة.

قال التفتازاني:

(قال في تلخيص المحصل: وأمثال هذا كثير في كتب الأنبياء المتقدمين، يذكرها المصنفون الواقفون على كتبهم. ولا يقدر المخالف على دفعها أو صرفها إلى ملك أو نبي آخر، ولا على أن [illegible]ها.

ولقد جمع أبو الحسين البصري في كتاب غُرَر الأدلة، ما يوقف من نصوص التوراة على صحة نبوة محمد ﷺ[1].

إنجيل برنابا:

أما إنجيل برنابا فإنه يبشر بمحمد ﷺ، كما يقول الدكتور خليل سعادة، الذي ترجمه إلى العربية:

(إن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الذيل، وقال أنه رسول الله، وأن آدم لما طُرد من الجنة، رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور: لا إله إلا الله محمد رسول الله)[2].

وفي الفصلين [illegible] ين والرابع والأربعين كلام كثير في التبشير بمحمد ﷺ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم، فصرح بما يعلن حقيقته، وبيّن ما له من شأن.

وهذا الإنجيل وإن رده جل النصارى بلا مبرر، إلا أن البينات شاهدة، ترجح [illegible] كما سيأتي بيانه.

برنابا من تلاميذ النصارى، ورسول من رسلهم، وركن من أركان الدعاية

(١) شرح المقاصد ج٢ ص١٩٠.

(٢) مقدمة خليل سعادة لإنجيل برنابا ص: م.

المسيحيه الأولى باتفاقهم، وقد وجد إنجيل باسمه، يدل على أنه كان من حواريي المسيح وملازميه في سرائه وضرائه. ولكن الأناجيل الأخرى لا تعده من الحواريين، بل من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين بعد المسيح[1].

وإنجيل برنابا يقرر أموراً جوهرية تباين الأناجيل الأربعة المشهورة وهي:

١ ـ قوله: إن يسوع أنكر ألوهيته وكونه ابن الله، وذلك على مرأى ومسمع من ست مئة ألف جندي وسكان اليهودية من رجال ونساء وأطفال (أي فيه نفي لعقيدة التثليث).

٢ ـ أن الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله، إنما هو إسماعيل لا إسحاق، وإن الموعد إنما كان بإسماعيل.

٣ ـ أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر.. (سبق أن نقلنا هذه الفقرة قبل قليل).

٤ ـ أن يسوع لم يُصلب بل حُمل إلى السماء، وأن الذي صُلب إنما هو يهوذا الخائن، الذي شُبِّه به، فجاء مطابقاً للقرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2] [النساء: ١٥٧].

تاريخ إنجيل برنابا:

أصدر البابا جيلاسيوس ـ الذي تسلم منصب البابا سنة ٤٩٢م ـ أي قبل ميلاد النبي محمد ﷺ أمراً ينهى فيه عن قراءة كتب، منها كتاب اسمه (إنجيل برنابا)[3].

وقد عثر لهذا الإنجيل على نسختين إيطالية وإسبانية.

أما الإسبانية: فقد أقرضها الدكتور (هلم) من بلدة هدلي التابعة لهمبشير، المستشرق (سايل)، ثم تناولها بعد سايل الدكتور (منكهوس) عضو الكلية الملكية في أكسفورد، فنقلها إلى الإنكليزية، ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤ إلى الدكتور هويت، ثم طمس بعد ذلك خبرها وانمحى أثرها.

أما الإيطالية: فأول مَن عثر عليها (كريمر) أحد مستشاري ملك بروسيا، وكان مقيماً حينذاك في أمستردام، فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير ووجهاء المدينة المذكورة، فأقرضها كريمر طولند، ثم أهداها بعد أربع سنين إلى البرنس

(١) محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبي زهرة ص٥٧.

(٢) مقدمة الدكتور خليل سعادة ص: م ومحاضرات في النصرانية ص٦٢ ـ ٦٤.

(٣) مقدمة الدكتور خليل سعادة لإنجيل برنابا ص: ل ومقدمة محمد رشيد رضا لإنجيل برنابا ص: ر.

أيوجين سافوي، ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكي في ڤينا، حيث لا تزال هناك حتى الآن.

ويذكر سايل أنه مسطور في صدر النسخة الإسبانية المفقودة: أنها مترجمة حرفياً عن النسخة الإيطالية، ومصدرة بمقدمة عن كيفية اكتشاف الراهب النسخة الإيطالية، وقصته كما يلي:

إن الراهب اللاتيني فرامرينو عثر على رسائل لإيرينايوس، وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولص الرسول، وإن إيرينايوس أسند تنديده إلى إنجيل القديس برنابا، فأصبح هذا الراهب فرامرينو شغوفاً بالعثور على إنجيل برنابا، واتفق أنه أصبح مقرّباً من البابا (سكتس) الخامس. فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا، فأخذت البابا سنة من النوم، فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو إنجيل برنابا، فطار فرحاً، فخبأه في أحد ردنيه، ولبث إلى أن أفاق البابا، فاستأذنه وانصرف، فطالعه بشوق بالغ، ثم اعتنق الإسلام على إثر ذلك[١].

ومما يرجح صحة إنجيل برنابا هذا على الرغم من أن بعض علماء أوربا ينكرونه، هو:

١ ـ وجدت نسخة إنجيل برنابا في جو مسيحي خالص، فعثر عليها في خزانة رئيس ديني خطير (البابا) وكاشفها راهب، ثم انتقلت إلى مستشار مسيحي من مستشاري ملك بروسيا، ثم إلى البلاط الملكي بڤينا، فلم تصل إليها يد مسلم.

٢ ـ عدم اطلاع علماء المسلمين في غابرهم وحاضرهم عليه، لأن المناظرات بينهم وبين النصارى في المشرق والأندلس كانت قائمة في كل العصور، وناهيك بما كتبه ابن حَزْم الأندلسي وابن تَيْمِيَّة المشرقي الشامي من دراسات واسعة وكتب في الرد على النصارى.

فلم نجد أحداً من هؤلاء مَن ذكر إنجيل برنابا، مع أن فيه الحجة الدامغة للنصارى، كما حققه الدكتور مرجليوث، مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين من ذكر هذا الإنجيل[٢].

٣ ـ إن معظم مباحثه لم تكن معروفة عند أحد من المسلمين، وأسلوبه في

---

(١) مقدمة الدكتور خليل لإنجيل برنابا ص: د، هـ.

(٢) مقدمة محمد رشيد رضا ص: ت ومحاضرات في النصرانية ص٦١.

التعبير بعيد جداً عن أساليب المسلمين عامة والعرب منهم خاصة ـ كما بيّن بعض القسيسين في مجلة دينية ـ فلا يمكن أن يقال أن هذا من صنع المسلمين، كما ادعى البعض.

فالمسلم إذا ذكر الله أثنى عليه، وإذا ذكر الأنبياء صلّى عليهم، ولا يسمي الملائكة إلا بما جاء بالقرآن الكريم أو السنّة النبوية، فلا يقول: ميخائيل بدل ميكائيل، ويجهل اسم إسرافيل، ويسميه (أوريل)، ولا يقول: (الله سبحان) لأن كلمة (سبحان الله) يحفظها كل مسلم، لأنه من أذكار الدين. ولو كان من صنع المسلمين لما سميت الفصول سوراً، لأن المسلم العربي والعجمي لا يطلق لفظ السورة على غير سور القرآن الكريم[1].

٤ ـ فيه براعة الحجة، ووضوح المسلك، وسمو التفكير، وتوضيح خفايا في حياة السيد المسيح عليه السلام، وتشابه كبير بين بعض مقاطعه والأناجيل الأخرى[2].

٥ ـ ولولا صحة نسبة هذا الإنجيل لما أيقن بها الراهب المكتشف له (فرامرينو)، فاعتنق الإسلام بسبب ذلك.

ومن البشارات التصريح باسم محمد ﷺ:

مما استنكره بعض الباحثين في إنجيل برنابا تصريحه باسم النبي (محمد) ﷺ، وقالوا: لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام.

لأن المعهود في البشارات أن تكون بالكنايات والإشارات.

لكن الحق أن البشارات قد تكون بالإشارة والكناية كما أوردنا طرفاً من ذلك من الزبور والتوراة والإنجيل.

وقد تكون البشارات مصرحة، كما في إنجيل برنابا وفي نسخة الإنجيل بالقلم الحميري، فقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي، أنه رأى في دار الكتب البابوية في الڤاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي ﷺ وفيها يقول المسيح عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف.

ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الأناجيل، التي فيها البشارات الصريحة، فيظهر أن في مكتبة الڤاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي

---

(١) مقدمة السيد محمد رشيد رضا لإنجيل برنابا ص: ش، ت.

(٢) الرسول ـ سعيد حوى ج٢ ص٢٨٠.

كانت ممنوعة في القرون الأولى ما لو ظهر لأزال كل شُبَه عن إنجيل برنابا وغيره[١].

وهناك بشارات كثيرة في الزبور والتوراة والإنجيل تتحدث عن ظهور نبي بعد المسيح عليه السلام وهو محمد ﷺ لا نذكرها خوف التطويل.

ونحيل المتتبع إلى الكتاب الجليل (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله بن خليل الرحمٰن الهندي، وفيه مناقشة النصارى في المسائل الخمس التي هي مدار النقاش بين المسلمين والنصارى وهي:

(١) إثبات تحريف التوراة والإنجيل. (٢) النسخ. (٣) بطلان التثليث. (٤) القرآن الكريم كلام الله، وصل إلينا بالتواتر. (٥) نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم النبيين.

ويظهر من قراءة الكتاب أن المؤلف محيط بنصوص العهدين القديم والجديد، وأنه درسهما بشروحهما وتعليقاتهما دراسة مضبوطة، هيأت له الوقوف عند كثير من الجزئيات.

وسبب تأليفه: أن المبشرين النصارى هاجموا الإسلام بعنف عند الاحتلال البريطاني للهند، وألفوا كتباً ورسائل في التهجم على الإسلام مركزين على هذه النقاط الخمس المتقدمة، فتصدى لهم علماء أجلاء من المسلمين. وأخيراً عقدت ندوة للمناظرة بين القسيس (فندو)، وكان أبرع المبشرين وأقدرهم على التكلم بالعربية والفارسية، وبين المؤلف رحمة الله بن خليل، وحضرها كبار رجالات الهند والقضاة والمفتين وكبار رجال الدين الإنجليز، وذلك في بلدة (أكبر آباد) في شهر رجب سنة ١٢٧٠هـ.

وكان يعاون القسيس (فندو) قسيس آخر اسمه (فرنج).

ويعاون الشيخ (رحمة الله) السيد محمد وزير خان.

وابتدأت المناظرة في مسألة النسخ والتحريف، فتفوق رحمة الله، وتخاذل فندو وصاحبه فانسحبا، وقد دوّن ما جرى بالمناظرة من حجج الجانبين، ولم تكمل المناظرة.

ثم سافر (رحمة الله) إلى مكة للحج، فاجتمع بالسيد أحمد زيني دحلان، فأخبره بالمناظرة، فطلب السيد أحمد زيني منه أن يترجم إلى العربية مباحثه الخمسة.

فألف عندئذ هذا الكتاب (إظهار الحق)، وزاد باباً سادساً تناول فيه العهدين القديم والجديد[٢].

---

(١) مقدمة محمد رشيد رضا لإنجيل برنابا ص: ت.

(٢) انظر مقدمة (إظهار الحق).

وهنالك كتب جليلة أخرى تذكر هذه البشارات وغيرها تناقش النصارى في معتقداتهم، من أهمها:

١ ـ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لابن تَيْمِيَّة.

٢ ـ هداية الحيارى من اليهود والنصارى، لابن قَيِّم الجَوْزِية.

٣ ـ الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، للقَرَافي.

٤ ـ الفارق بين المخلوق والخالق، لعبدالرحمٰن بك باچه چي زاده.

٥ ـ أعلام النبوة، للماوَرْدي.

٦ ـ حجة الله على العالَمين في معجزات سيد المرسلين، للنَّبْهاني.

المطلب الثاني
رسالته ﷺ خاتمة الشرائع وأصول دعوته

ختم النبوة

آخر الأنبياء هو محمد ﷺ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين بدليل:

أ ـ قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ب ـ قوله ﷺ في صحيح البخاري[١] ومسلم، واللفظ لمسلم:

«مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبِنَة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أما ما صحّ من الأحاديث التي تذكر أن المسيح عليه السلام ينزل قبيل قيام الساعة، فالثابت أنه لا ينزل بوحي جديد، وإنما ينزل فيحكم بشريعة محمد ﷺ، فهو مقرر ومؤكد لها[٢]، ولذا حين ينزل يكسر الصلبان ويقتل الخنزير ولا يقبل الجزية[٣].

---

(١) البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب خاتم النبيين ج٤ ص٢٢٥.
ومسلم كتاب الفضائل ـ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ج٤ ص١٧٩١.

(٢) التفتازاني على العقائد النسفية ص١٣٥ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص٣٧ ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٧٧.

(٣) لوامع الأنوار السابق.

ولذلك كانت شريعته ﷺ خاتمة الشرائع السماوية وناسخة لها.

وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أما إذا ذكر في القرآن أو في السنّة المطهرة حكمٌ شرعه الله لمَن سبقنا من الأمم على ألسنة رسلهم، فهل هو شرع لنا أم لا؟

هذا هو موضوع (شرع مَن قبلنا) في أصول الفقه، وخلاصته:

أ ـ أن الأحكام المشرعة لمَن قبلنا وكتبت علينا، فلا خلاف أنها شرع لنا، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ب ـ أن الأحكام المشرعة لمَن قبلنا التي رفعت عنا بحكم ناسخ في شرعنا؛ فلا خلاف أنها ليست شرعاً لنا، مثل حكم شريعة موسى عليه السلام: (إن العاصي لا يكفر عن ذنبه إلا أن يقتل نفسه) هذا الحكم مرفوع عنا، لأنه منسوخ بتشريع التوبة.

جـ ـ أما الحكم الذي لم يرد في شرعنا ما ينسخه أو يقرره، فقد اختلف فيه الفقهاء على قولين:

القول الأول:

يكون شرعاً لنا، وعلينا تطبيقه، لعدم الدليل على نسخه، وهو من الأحكام التي جاء بها الرسل، وهو قول الحنفية وبعض المالكية والشافعية.

القول الثاني:

لا يكون شرعاً لنا، لأن شريعتنا ناسخة للشرائع السماوية جميعاً، إلا إذا ورد في شرعنا ما يقرره.

والحق هو المذهب الأول: لأن شريعتنا إنما نسخت من الشرائع السابقة ما يخالفها فقط.

ولأن قص القرآن علينا حكماً شرعياً سابقاً بدون نص على نسخه، هو تشريع لنا ضمناً، لأنه حكم إلهي بلّغه الرسول إلينا.

ولأن القرآن مصدّق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فما لم ينسخ حكماً في

أحدهما فهو مقرر له[1].

وسبب ختم شريعة الإسلام الرسالات السابقة ما يأتي:

١ ـ شريعة الرسول ﷺ بيِّنة واضحة، ينظر إليها المتزود الطالب العلم في أي وقت وفي أي مكان، فينهل منها ما يسد حاجته.

٢ ـ لا حاجة إلى شريعة تضيف إلى الإسلام، أو تنقص منه، لأنه لا قصور فيه عن حل أية مشكلة تواجهه.

وأوضح دليل عليه هو أنها أعطت حكمها في كل المشاكل الكثيرة، التي لا حصر لها، والتي حدثت للمسلمين في جوانب الحياة كافة، من لدن عصر النبي ﷺ إلى يومنا هذا.

بل الحاجة قائمة إلى مَن ينشر شريعتنا الإسلامية، ليتزود العالم بالعلاج الناجع الذي يستأصل شأفة أمراض الأمم جميعاً.

٣ ـ ونبوة محمد ﷺ عامة إلى جميع أهل الأرض، فلم تختص بها أمة أو بلدة أو زمن[2].

❊ ❊ ❊

عموم رسالته

ورسالته ﷺ عامّة إلى جميع الناس، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، بدليل:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ب ـ قتاله ﷺ لأهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم، وفتوحات الخلفاء الراشدين، لنشر الإسلام محل الأديان الأخرى.

---

(١) أصول الفقه ـ عبدالوهاب خلاف ص١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) مبادىء الإسلام للشيخ المودودي ص٦٠.

بينما كان الأنبياء السابقون مرسلين إلى أقوامهم خاصة. وهذا واضح في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال تعالى في عيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وفي الحديث الصحيح: «**أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى كل أحمر وأسود...**» وسيأتي بعد قليل.

وبناء على ذلك:

فمَن اتبع النبي محمداً ﷺ فقد اتبع الأنبياء جميعاً، ومَن أنكر نبوته فقد أنكر نبوة الأنبياء جميعاً، وما ذلك الإنكار إلا مكابرة وعناد وهدر لقيمة العقل، لذلك يستحق صاحبه العقاب الشديد يوم القيامة.



محمد ﷺ أرفع الأنبياء منزلة

الأنبياء جميعاً يشتركون في وصف النبوة، فهم على حد واحد فيها، لأن النبوة في نفسها لا تتفاضل، إلا أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين أرفعهم منزلة، وأعلاهم مقاماً. فتفضيله ﷺ على غيره من الأنبياء يعود إلى زيادة الأحوال والكرامات والرُتَب.

دليل تفضيله هو:

أ ـ قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[1] أي: لا أقول ذلك فخراً بنفسي، بل تحدثاً بنعمة ربي.

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد وهو حسن/ الجامع الصغير ج١ ص١٠٧.

ب ـ أنه ﷺ يفضُل غيره بأمور، ذكرها في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان:

«**أُعطيت خمساً لم يُعطَهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود. وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وجُعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاةُ صلّى حيث كان، ونُصرتُ بالرعب بين يدَيْ مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة**»[1].

جـ ـ أن أمته أفضل الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وذلك تابع لفضل نبيها محمد ﷺ.

أي أن فضل أمته لا يحصل إلا باتباع أوامره ﷺ، والانتهاء عن نواهيه، والاهتداء بهديه ﷺ.

فإذا قيل:

إن الرسول ﷺ نهى عن التفضيل باحاديث منها:

أ ـ قوله ﷺ: «**لا تُخَيِّروا بينَ الأنبياء**»[2].

ب ـ وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونُس بن مَتَّى**»[3].

فالجواب:

أن هذه الأحاديث محمولة على أنه ﷺ قالها على سبيل التواضع ونفي العجب، أو أن المقصود منها ألا نفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقُّص بعضهم أو الغض منهم[4].

❋ ❋ ❋

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الصلاة ـ باب قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الارض مسجداً وطهوراً**» ج١ ص١١٩. وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج١ ص٣٧٠.

(٢) رواه البخاري ـ في كتاب الخصومات ـ باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ج٣ ص١٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، والبخاري في كتاب الأنبياء./ متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان ص٦٢٧.

(٤) تفسير الرازي في تفسير آية البقرة ٢٥٣ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ج٦ ص٠١٩ وقد جاء بتسع عشرة حجة على هذا مع مناقشة المخالفين. وانظر الشفا ج١ ص٢٢٥ ـ ٢٢٨ والتفتازاني في شرح العقيدة النسفية مع شرح عصام ص١١٧.

شفاعة محمد ﷺ

الشفاعة لغةً: الوسيلة والطلب.

وعُرفاً: سؤال الخير للغير.

وهي مشتقة من الشَّفْع الذي هو ضد الوَتْر. فكأنَّ الشافع ضمّ سؤاله إلى سؤال المشفوع له. والمشفِّع ـ بكسر الفاء ـ: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع ـ بفتح الفاء ـ الذي تُقبل شفاعته[1].

والشفاعة قسمان مثبتة ومنفية:

١ ـ **الشفاعة المثبتة**: وهي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص، ولها شرطان هما:

إذن الله تعالى للشافع، ورضاه تعالى، وهما المذكوران في قوله تعالى:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩][2].

فيقف الشافع من الله سبحانه موقف الضارع يستنزل رحمة الله وإحسانه. فالشفاعة هذه دعاء مستجاب، وسبب من الأسباب التي يرتب الله تعالى عليها المغفرة أو التخفيف أو رفع الدرجات، بدليل حديث الصحيحين وغيرهما: (أن النبي ﷺ يسجُد يومَ القيامة، ويُثْني على الله تعالى الثناءَ يُلهِمه يومئذ، فيقال له: ارفع رأسَك، وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ).

وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله تعالى يرجع عن إرادة كان قد أرادها لأجل الشافع، بل مردّ ذلك كله الإرادة الأزلية والعلم القديم[3].

---

(١) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٢٠٤.

(٢) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص٣٥٢.

(٣) الشرح الجديد لجوهرة التوحيد للعدوي ص١٤٠.

٢ ـ **الشفاعة المنفية**: هي التي تطلب من غير الله تعالى، أو بغير إذنه، أو لأهل الشرك. قال سبحانه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤][(١)].

فتفسر بأن يَحمِل الشافع المشفوع عنده على فعل كان قد أراد غيره. كأن يطمع ضعيف في معروف لدى عظيم، ويعتقد أنه ينوي حرمانه من معروفه، فيستشفع إليه بوجيهٍ مقرب لديه، يحمله على أن يشمله بمعروفه وإحسانه.

والشفاعة بهذا المعنى مستحيلة بالنسبة لله تعالى، لأن المشفوع عنده كان عاقداً النية على أمر خلاف ما شفع عنده فيه، فيجيء الشفيع ويبدي له أسباباً للفعل أو الترك لم يكن عالماً بها من قبل، والله سبحانه لا يقع في ملكه إلاّ ما هو به عليم مريد. ولا يستطيع أحد أن يتصرف في إرادته ومشيئته.

ويؤدي هذا المعنى أيضاً إلى القول بالبداء، بمعنى أن الله تعالى يبتديء تدبير الأشياء أولاً فأولاً، ويستأنف علمها من جديد بعد أن لم يكن عالماً بها، وكل ذلك محال على الله سبحانه.

وهذا هو الذي أنكره الله تعالى بالآيات النافية، منها:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، و﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ...﴾ الآية السابقة[(٢)].

أنواع الشفاعة:

ذكر العلماء أنواعاً عديدة للشفاعة المثبتة، منها:

١ ـ الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر أخوانه من الأنبياء والمرسلين، وهي التي يشفع فيها لأهل الموقِف، حتى يُقضى بينهم، ويراحوا من شدة الموقف وهوله، بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وهي المقام المحمود. ووردت في ذلك

---

(١) الكواشف الجلية السابق.

(٢) الشرح الجديد السابق.

جملة من الأحاديث الصحيحة عن جملة من الصحابة، بلغت حد التواتر.

٢ ـ شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب، بدليل حديث عُكَاشة بن مِحْصَن في الصحيحين حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكْتَوون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون.

٣ ـ فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها. وذلك بمحض عفو الله تعالى.

٤ ـ في إخراج الموحدين من النار بعد انقضاء مدة المؤاخذة المقررة لهم في علم الله تعالى.

٥ ـ الشفاعة في بعض الكفار لتخفيف العذاب عنهم.

٦ ـ في رفع درجات أناس في الجنة[1].

أما النوع الأول من الشفاعة والثاني والسادس فلا خلاف فيها. وكذلك ينبغي أن لا يكون في الخامس خلاف.

لكن الخلاف في النوعين الثالث والرابع، فهما اللذان تنكرهما المعتزلة.

واحتجوا على إنكار الشفاعة فيمن استحق دخول النار (وهو النوع الثالث) بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وأجاب الجمهور بما يأتي:

١ ـ بأن المراد بالنفس بالآية الأولى هو النفس الكافرة، لأن مساق الخطاب معهم، والآية نزلت رداً على اليهود الذين يزعمون أن آباءهم تشفع لهم. والظالمون في الآية الثانية هم الكفار، فإن الظالم على الإطلاق هو الكافر.

٢ ـ إن غفران غير الكفر من الذنوب بلا توبة ولا شفاعة جائز، فبالشفاعة أولى. ولأن العقاب حقه تعالى فله أن يعفو ويصفح، وله أن يعاقب. قال تعالى:

---

(١) الشرح الجديد ص١٤١ وانظرها وغيرها في: شرح العقيدة الطَّحَاوية ص١٩١ ـ ١٩٨ ولوامع الأنوار البهية ج٢ ص٢٠٤ وما بعدها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وأنكر المعتزلة النوع الرابع من الشفاعة في قوم موحدين دخلوا النار، وزعموا أن مَن دخل جهنم خالد فيها؛ لأنه إما كافر، وإما صاحب كبيرة لم يتب منها.

وحججهم على هذا الإنكار هي:

إن من أدخله الله النار فقد أخزاه، والشفاعة لا تكون إلا لمَن ارتضاه الله، ومن أخزاه الله لا يرتضيه، ومن ارتضاه لا يخزيه.

وأجاب الجمهور:

بأننا لا نسلّم أن الفاسق غير مرضي مطلقاً، بل هو مرضيّ لإيمانه، ومعوض لفسقه. على أن هذا النوع من الشفاعة لم يحل بين المشفوع فيهم وبين العذاب المقدَّر لهم، بل يخرجون من النار بعد انتهاء مدة المرحلة المقدرة لهم في علمه(١).

شفاعة غيره ﷺ

وبعد شفاعة محمد ﷺ يفتح باب الشفاعة لمَن ارتضاه الله، فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩] أي لمن كان قوله واعتقاده لا إله الا الله محمد رسول الله ﷺ.

فقد ورد في صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أبي سعيد ﷺ مرفوعاً قال: (فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا ارحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط).

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**من أمتي من يشفع للفِئام، ومنهم مَن يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم مَن يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة**».

وروى أبو داود عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يَشفَع الشهيدُ في سبعين من أهل بيته**»(٢).

---

(١) الشرح الجديد السابق، ولوامع الأنوار البهية ج٢ ص٢١٧. وانظر: شرح العقائد النسفية ص١٢٣ وعبد السلام على الجوهرة ص٢٤٤.

(٢) نور الإسلام - الشيخ عبدالكريم المدرس ص٢٩١ وانظر لوامع الأنوار البهية ص٢٠٩ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٩٨.

حكمة الشفاعة:

والحكمة من الشفاعة تكريم الشافعين، ورفع شؤونهم على رؤوس الأشهاد، وإفاضة الكرم الإلهي على المشفوع له[1].

وليس القول بالشفاعة إعداد الناس للجرأة والجسارة على المعاصي، كما توهمه البعض.

لأنه ليس في علم أي شخص أنه يشفع له، حتى يكون ذلك جالباً لإقدامه عليها[2].

* * *

أصول دعوة الرسول الأعظم ﷺ

تتجلى دعوة الرسول محمد ﷺ في جزئي الشهادة، اللذين هما الركنان الأساسيان لها[3]، ويندرج تحتها كل الجزئيات والتعاليم الإسلامية.

الركن الأول: الإيمان بوجود الله تعالى، وبوحدانيته، وأنه يتصف بصفات تليق بكماله. وقد تحدثنا عن هذا الركن في قسم الإلهيات من هذا الكتاب، وذكرنا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالى.

ويكفي أن نشير إلى أن القرآن العظيم نبذ بهذا الركن عقيدة التثليث عند النصارى والهنود والإشراك عند اليهود وعبادة الأصنام والنجوم والوثنية بأشكالها عند العرب وغيرهم بآيات كثيرة منها قوله سبحانه:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

ومنها قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

---

(١) نور الإسلام ص٢٨٧.

(٢) نور الإسلام ص٢٨٨.

(٣) آخر العقيدة السَّنُوسية.

وعقيدة التوحيد في القرآن أعلى المعارف التي ترقى بالإنسان إلى الأعلى.

وكان توحيد المسلمين الأولين لله وحبهم له وتوكلهم عليه، هو الذي زكّى نفوسهم، وأعلى هممهم، وكمّلهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكّنهم من فتح البلاد، ومن تحرير الناس من ظلم الملوك، ورق الكهنة والأحبار والرهبان، فأقاموا دعائم الحضارة، وأحيوا العلوم والفنون، وتمّ لهم ما لم يتم لأية أمة من الأمم، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (تطور الأمم): (إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها: جيل التقليد، وثانيها: جيل الخضرمة، وثالثها: جيل الاستقلال والاختصاص. قال: إلا العرب وحدهم، فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول، الذي بدؤوا فيه بمزاولتها)[1]، وقد تقدم أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان بما فيه الكفاية.

وهذا الركن هو المقصود بالشطر الأول من الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله).

الركن الثاني: الإيمان برسول الله محمد ﷺ.

ومعناه:

أ ـ وجوب التصديق بأنه نبي الله تعالى وخاتم المرسلين.

ب ـ وجوب التصديق بما أخبر به.

جـ ـ وجوب طاعته في كل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير من الأوامر والنواهي، ووجوب اقتفاء آثارهم، والتزام طريقته في سبل الحياة كلها، لأن طاعته من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] إلخ، فيدخل في هذا الركن:

الإيمان بالملائكة والجن والمغيبات جميعاً.

والإيمان بسائر الأنبياء بلا تفريق، وما يجب في حقهم من صفات، وما يستحيل، وما يجوز، وبكتبهم السماوية جميعاً التي أُنزلت عليهم، والتي هي موافقة في أصولها القرآن الكريم، لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى، وتكفل بالكلام عن هذا موضوع (النبوات) كما تقدم.

---

(١) الوحي المحمدي ص١٣١.

والإيمان باليوم الآخر، وهو يوم الجزاء عند القيامة، وهو الباعث على العمل الصالح وترك المنكرات، ومقوي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الشر والظلم. وسيأتي كلامٌ وافٍ على هذا في فصل الحياة الأخرى.

وهذا الركن هو المقصود بالشطر الثاني من الشهادة (وأشهد أن محمداً رسول الله).

وبهذا يتبين أن كلمة الشهادة بشطريها، قد شملت مع قلة حروفها ما يجب على المسلم الايمان به في عقيدته وشريعته، أو بعبارة أخرى:

هي التصديق بأن دين الله تعالى (الإسلام) هو الدين الحق، الذي يجب أن يؤمن الفرد بكل ما جاء به من جزئيات.

وهذا هو السر في جعل كلمتَيْ الشهادة عنوان الدخول في الدين الإسلامي، إذ لا يقبل الإسلام من أحد إلا بالنطق بشطريها معاً.

فعليه أن يكثر من ذكرها، كما هو المأثور في الأحاديث الصحيحة، مستحضراً لما حوته من معانٍ جليلة، فتمتزج مع معناها بلحمه ودمه.

* * *

واجبنا نحو الرسول الأعظم ﷺ

بعد أن أنعم الله على المسلم بأن آمن بالله ونبيه الأعظم، كان عليه أن يعرف واجبه نحوه وهو:

١ ـ محبته أكبر من النفس والولد، والمال والناس.

قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدُكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١).

وهذه المحبة لا تتجلى إلا في طاعته طاعة كاملة في كل ما يقول.

٢ ـ تبجيله واحترامه حياً وميتاً، ففي حياته: لا يجوز سبقه بالحديث، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحجرات: ١].

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس. وهو صحيح/ الجامع الصغير ج٢ ص٢٠٤.

ولا يجوز رفع الصوت أمامه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

ويبقى هذا الاحترام حتى بعد مماته، فلا يرفع الصوت عند قبره، أو في مسجده ﷺ، كما يجب التأدب عند سماع حديثه، والرضا بما قال، وعدم الخروج عليه.

٣ ـ عدم إيذائه بأيّ نوع من أنواع الأذى.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

والإيذاء شامل: للسب، أو الطعن به، أو بشرعه، أو بزوجاته الطاهرات، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أو الطعن بآل بيته، أو أصحابه، أو سبهم. . . .

٤ ـ الصلاة والسلام عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[1] [الأحزاب: ٥٦].

٥ ـ وجوب التأسي بالرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] والتأسي هو الاقتداء به في كل أقواله وأفعاله ﷺ.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عِياض، وأصول الدعوة ص٣٦ ـ ٣٧.




الفصل الرابع

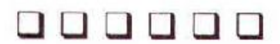
اليوم الآخر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دليل اليوم الآخر والحاجة إلى الإيمان به.

المبحث الثاني: اليوم الآخر في الفكر غير الإسلامي.

المبحث الثالث: اليوم الآخر في الفكر الإسلامي.








اليوم الآخر

مقدمة:

عاش الإنسان على ظهر الأرض حياة مختلفة الأطوار.

فهو في حياته البدائية شأنه شأن الحيوانات السائمة كان يعتمد على القوة، إذ أن الحياة آنئذ للأغلب، وفي هذا الدور لم يحس الفرد بقيمته، ولم يفكر بعواقب الحياة. وحين فتح عينيه أخذ يفكر ويتساءل:

هل أن مثل هذا المخلوق العاقل مثل الدابة أو الحشرة، ينتهي إلى مصير واحد، وهو الموت فقط، أم أن هناك حياة أخرى تنتظره؟

ورأى بعض الذين يعملون الشر ينالون العقاب، والذين يعملون الخير يحصلون على الثواب، في حياتهم قبل موتهم، لكنه رأى بعض هؤلاء يدركهم الموت، فلم ينل جزاءه من ثواب أو عقاب، فتساءل:

أيذهب هؤلاء من غير رجعة بلا جزاء؟ أم أن الثواب أو العقاب ينتظرهم في عالم آخر؟ تساءل هذا الإنسان، فربط إيمانه بوجوب الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت، بالقضية الكبرى التي انتهى بها إلى التصديق، بأنّ خلق هذا العالم العجيب الصنع، البديع الإتقان، لا يصدر إلا من إله قادر يحكم بعدالته هذه المخلوقات جميعاً.

لذلك نرى أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر قد ملأت قلوب البشر منذ أقدم الأزمنة. وظهرت شاخصة بين الوثنيات التي ضربت أطنابها في المجتمعات المختلفة، تحكي انتفاضة الضمير الإنساني، وتنبهه إلى الحقيقة.

والراجح البيّن أن هذه العقيدة التي انتشرت بين الناس ما كانت إلا تصديقاً لدعوات جاء بها أنبياء سابقون، ظلت بقاياها راسخة في الضمير الإنساني، يصقلها

تتابع الرسالات السماوية، وإن كدرت صفوها الوثنية، التي غمرت العالم حتى اليوم، لا سيما وأن ما يتصل باليوم الآخر لا يدركه الإنسان، ولا يحيط بشيء منه إلا بإخبار من الله تعالى عالم الغيب لأنبيائه، الذين يبلغون ما أمروا به إلى الناس.

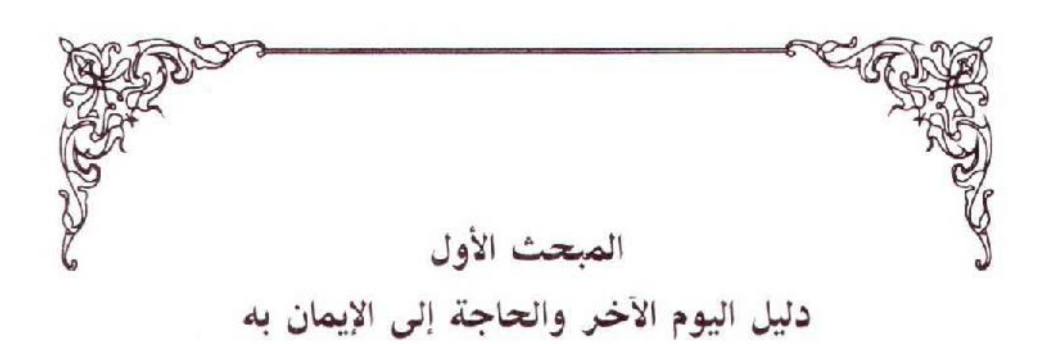
وهذا الفصل الذي نعقده للكلام عن اليوم الآخر يتضمن ثلاثة مباحث:

- نذكر في المبحث الأول: دليل اليوم الآخر، والحاجة إلى الإيمان به.

- ونذكر في المبحث الثاني: عقيدة الإيمان باليوم الآخر في مختلف الديانات العالمية.

- ثم نفصل في المبحث الثالث: القول في عقيدة المسلمين باليوم الآخِر، ومشاهد القيامة وما يتصل بها.





المبحث الأول

دليل اليوم الآخر والحاجة إلى الإيمان به

أدلة اليوم الآخر[1]:

يمكن أن نقيم الأدلة على اليوم الآخر بما يأتي:

الدليل الأول: إمكان اليوم الآخر:

اليوم الآخر ممكن الوقوع، والإشارات الدالة على ذلك هي:

١ ـ إن الإنسان والكون ليسا أبديين، فالنهاية المروعة آتية عليهما لا محالة، فالإنسان يموت، والكون يتلاشى ويفنى، وهذا يعني أن نظام الكون الموجود حالياً سيدمر، وأن الذي نشاهده من معالم هذا النظام ما هو إلا صورة مصغرة أولية، سوف يتجلى عنها في صورة نهائية كبرى، نلقاها غداً في صورة الواقع[2].

٢ ـ يتألف الجسم الإنساني من الخلايا، وهي ذرات صغيرة جداً ومعقدة، يزيد عددها في جسم الإنسان على ألف مليون مليون خلية، تبني الجسم كما يبنى الجدار من الطابوق، لكن بناء الجدار يبقى على حاله، أما خلايا الجسم فإنها تتغير، فيموت منها ١٢٥ مليون خلية في الثانية الواحدة.

ومعنى ذلك أن جسم الإنسان يموت ويحيا مرات كثيرة في الحياة الدنيا، ولكن مع ذلك فهو محتفظ بشخصيته المميزة، وعاداته وأفكاره، وعلمه وأمانيه، وهو لا

---

(١) انظر دليل الآخرة والحاجة إلى الإيمان بها في: الإسلام يتحدى ص٧٢ وما بعدها. وقد أحال القارىء إلى مراجع أجنبية عديدة.

(٢) انظر تفصيل هذا في الكلام عن الموت وحقيقته وقيام الساعة من هذا الكتاب.

يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير، ومثله في ذلك مثل النهر الجاري، الذي يتغير ماؤه دائماً، ومع ذلك فهو ذلك النهر بعينه.

فالذي يعيش خمسين سنة كان قد مات خمس مرات، فإذا مات في المرة السادسة فكيف يمكن أن يجزم أنه مات على وجه اليقين، ولا سبيل له إلى الحياة.

الدليل الثاني: البحوث المؤيدة لليوم الآخر:

١ ـ البحث النفسي:

سلّم فرويد وعلماء النفس بصفة عامة بنظرية مقتضاها:

(إن كل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر، ينقش في صفحة اللاشعور، فلا يزول إلى الأبد، ولا يؤثر فيه تغير الزمان وتقلب الحدثان، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية طوعاً أو كرهاً).

والبحوث النفسية تؤكد أن الوجود الإنساني الحقيقي هو في (اللاشعور) لا يطرأ عليه الموت، ولا تحكمه قوانين الزمن. أما الجسم المادي فهو في تغير وتحطم وفناء، فلا يعتبر وجوده وجوداً حقيقياً، وهذا يعني أن الحياة الجارية لن تفنى أبداً، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت، وسوف نكون على قيد الحياة، والموت لم يكن إلا نتيجة الحواجز والقوانين الزمنية.

ثم إن الأفكار التي تخطر على بالنا وننساها، ثم نراها بعد فترة طويلة في المنام، أو نتكلم عليها في حالات الهستيريا أو الجنون، ما هي إلا دليل على أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فقط، وإنما هناك (اللاشعور) الذي يحفظ هذه الصور بكامل جزئياتها، وهو عالم مستقل بذاته ولا يفنى بفناء الجسم المادي.

وهذا يؤكد إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان وأقواله[1] في حياته، يعرفه بعد أن يبدأ حياته الأخرى.

٢ ـ البحوث الروحية:

أثبتت البحوث الروحية الحياة بعد الموت على المستوى التجريبي، فمن خصائص الإنسان التي يتمتع بها من قديم الزمان (الرؤيا)، ولكن الحقائق المثيرة التي اكتشفها علماء النفس اليوم كانت علمية عميقة، لم يكن للقدماء علم بها.

---

(١) انظر موضوع العرض والحساب، وذكرنا هناك شيئاً مما ذكره العلم الحديث في هذا الصدد.

والبحوث الروحية وهي فرع من علم النفس الحديث تهدف إلى الكشف عن ميزات الإنسان غير العادية، وقد أقيمت لهذه البحوث معاهد كثيرة في العالم، وأجرت تجارب واسعة النطاق على آلاف الناس، وأثبتت هذه المعاهد:

أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي في صورة غريبة[1].

٣ ـ الشهادة التجريبية:

والشهادة التجريبية التي تثبت الحياة بعد الموت هي: حياتنا الأولى في حد ذاتها[2]، فتسليمنا بوقوع حادث في الحال وإنكاره في المستقبل، ما هو إلا عداء للمنطق والعقل، وقد ذكر جميع العلماء بما فيهم دارون الذين حاولوا شرح الكون والحياة: أنه لو هيئت الأحوال نفسها التي ساعدت في خلق الحياة الأولى، فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى.

***

غاية الإيمان باليوم الآخر

حين كرّم الله تعالى ابن آدم، وجعله سيد المخلوقات بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠] وسخّر له ما في السماوات والأرض، وأنزل عليه القرآن الكريم، فيه الآيات البينات، لا يعقل أن يخلقه ـ وهو الحكيم ـ عبثاً أو سفهاً من غير قصد حقيقي، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] أي أيحسب أن يترك مهملاً بلا فائدة، لا يُؤمر ولا يُنهى؟

إن غاية الخلق واضحة في الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فهذا تكليف وامتحان يميز به الخبيث من الطيب.

***

---

(١) انظر أمثلة من هذه التجارب الروحية في كتاب الإسلام يتحدى ص٩٣.

(٢) انظر دليل البعث الجسماني من هذا الكتاب.

الحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر

لما ثبت بما قدمناه من الأدلة أن الآخرة ممكنة الحدوث، وأن البحوث النفسية والروحية مؤيدة لهذا الاعتقاد، نبيّن الآن أن العالم في حاجة إلى الإيمان باليوم الآخر، ويتضح هذا في الجوانب الآتية[1]:

١ ـ الجانب النفسي:

أن أمل الإنسان في الحصول على حياة مفضلة، في عالم حر مثالي مليء بالأفراح، مستقل عن حدود هذا العالم ومشاكله، دليل نفسي قوي على الحاجة إلى وجود عالم آخر، كالظمأ فهو يدل على الماء، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الإنسان.

ثم إن هذه العقيدة موجودة منذ أقدم العصور ـ كما سيأتي بعد قليل ـ فلو كانت هذه العقيدة باطلة لما أثرت على البشر بهذا الشكل المدهش، إذ أننا لا نجد فكرة إنسانية واهية ظلت باقية إلى العصر الحاضر بهذا التسلسل الرائع.

٢ ـ الجانب الأخلاقي:

إن فطرة الإنسان تميز بين الظلم والعدل، وبين الصالح والطالح، وهذه الفطرة هي التي تميزه عن سواه، ولكنه يهدر هذه الفطرة فيقتل بني جنسه ويشردهم، والجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والعدوان، وصحفنا اليومية التي تتحدث عن الاغتيالات، وجرائم الخطف، والنهب، والاتهامات الكاذبة، والدعايات الباطلة، وسحق الشعوب، ما هي إلا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم في الأرض. لكن دواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تؤكد أن هذا العالم ناقص في حد ذاته، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله. فلا بد من يوم يميز بين الحق والباطل، ولا بد أن يجني الظالم والمظلوم ثمارهما، فلا يعقل أن المؤمن المحسن المطيع الذي لم يحصل على أجره في الدنيا يخسره، فتذهب مجاهدته لنفسه هدراً، فلا بد أن يدخر له في الآخرة، ويناله ثوابه.

ولا يعقل أن الله تعالى يترك العابث الفاجر الظالم سادراً في غيه، يعيث في الأرض الفساد، ويقهر الآخرين، دون أن يناله العقاب، فيقتص منه لمَن ظلمه، وهذا

---

(١) الكلام عن الحاجة إلى الآخرة في: الإسلام يتحدى ص٨٢ وما بعدها.

العقاب إن لم ينله في الدنيا فإنه يناله لا محالة في الآخرة يوم الحساب، وفيه ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١] وإلا لزم الظلم بالنسبة لله تعالى، إذا ترك محاسبة الظالم، ومكافأة المطيع. والظلم محال على الباري ﷻ.

فالإيمان باليوم الآخر يجعل رقابة المرء على نفسه مستديمة، ويوفر السكينة والطمأنينة في القلوب، فيشعر المؤمن بأن الدنيا متاع الغرور، يزهد فيها، ولا يتكالب عليها، ليستأثر بما يريد، وإن أضرّ بمصلحة الآخرين، فتكون عندئذ غاية الحياة سامية، وهدفها رفيعاً، وهو: عمل الخير، وترك المنكر، والتحلي بكل فضيلة، والتخلي عن كل رذيلة.

ومن هنا استعان القرآن الكريم بهذه العقيدة للدعوة إلى الفضائل، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فقرن أمره بتقوى الله بلقائه في الآخرة، لترسيخه في النفس.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فقرن الإنفاق في سبيل الله بإيفائه لهم في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١] فقرنَ تحبيبهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، ودعوتهم إلى تحمل الأذى، بتخويفهم من نار جهنم.

وقد عني القرآن الكريم بترسيخ هذه العقيدة في ذهن الإنسان، وجعلها هي الخير والأبقى، وأن الحياة الدنيا دار فناء، والساعي وراءها مغرور بمتعها ولذائذها الزائلة.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

٣ ـ السلوك:

من الأمور التي شغلت الذهن البشري طويلاً هو كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق.

قد يحقق الإنسان ما عهد إليه من أمور خشية العذاب الذي ينتظره، إن لم يقم به على الوجه المراد، ولكن ما الذي يدفع المتمتع بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل؟ ومَن يقمع انحراف الإنسان إن لم يجد له رادعاً؟ أو كان في غفلة عن المسؤولين إن مارس الظلم أو الرشوة، أو التزوير أو استغلال النفوذ. . .؟

الحق أن هذا الانحراف لا يقمعه سوى الدافع المنبعث من نفس الإنسان، وهو الضمير. وهذه الميزة غير متاحة إلا في عقيدة الآخرة، إذ أن الإنسان يشعر بأن الله تعالى يراه أينما كان، ويحاسبه حساباً عسيراً.

قال ڤولتير: (إن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً، حيث أنهما أساسان لإقامة المبادىء الأخلاقية).

ويرى: أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع، ولو أن هذه العقيدة زالت، فلن نجد دافعاً للعمل الطيب، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي).

فلو كانت الحياة الآخرة فكرة خيالية، فلماذا لا نستطيع إقامة نظام اجتماعي سليم بدونها؟ وهل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية في الحياة؟

فالحاجة الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة، وإقامتها على أسس عادلة حقيقية، هي في حد ذاتها تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون، وهذا دليل منطقي واضح على أحقية الإيمان بها.

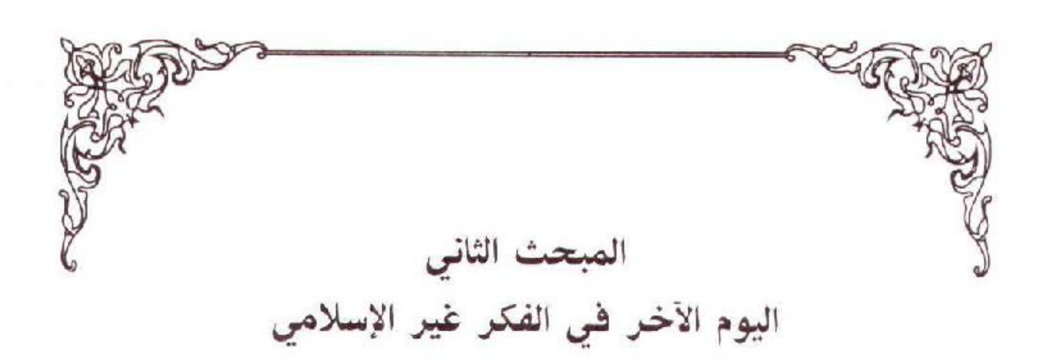
٤ ـ الضرورة الكونية:

بعد أن أقمنا الأدلة على وجود الله تعالى وأنه خالق الكون نقول: لا بد أن تكون هناك علاقة بين الإله والإنسان، ولا بد من ظهورها، لأن العقل يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق. ولكن متى تظهر هذه العلاقة بصورة جلية؟

يمكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر في الحياة الدنيا، فهذا الملحد يقول: إني لا أخاف الله، ثم نراه يحصل على الرئاسة أو لا يصاب بأذى. . . والمؤمن قد ترد دعواه بحجة أنها غير شرعية.

فهنا إما أن نؤمن بوجوده أو ننكره، فإن آمنا به فلا بد من أن نؤمن بالآخرة، وفي الآخرة فقط تظهر آثار الربط بين الخالق والمخلوق بجلاء، حيث الحساب فالثواب والعقاب الذي يلقى الإنسان في مثواه الأخير.

إذ أن الخالق لهذا الكون العظيم لا يمكن أن ينهيه دون إبداء الأسباب التي دفعته إلى هذا الخلق، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة.



المبحث الثاني
اليوم الآخر في الفكر غير الإسلامي

نذكر في هذا المبحث نبذة تاريخية عن فكرة اليوم الآخر، منذ أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحاضر، في أشهر الحضارات والديانات العالمية.

١ ـ في حضارة وادي الرافدين:

فكرة القيامة وبعث الأموات:

لم يوجد دليل من النصوص المسمارية يثبت أن العراقيين القدماء يعتقدون بقيامتهم وبعثهم من الموت، وليس هناك ما يثبت إمكانية عودة روح الميت (الاطمو) إلى جسده[١].

وهذا المعنى نجده واضحاً على لسان (كلكامش) حين يندب صديقه (أنكيدو) فيقول:

(آه لقد غدا صاحبي الذي أحببت تراباً، وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين)[٢].

أما حين تتحدث النصوص المسمارية القديمة عن عودتها إلى عالم الأحياء، فإنها تقصد عودتها بهيئة أشباح مستقلة عن الجسد[٣].

---

(١) عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين ص١١٣ وانظر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر ج١ ص٢٣١. والأديان د. رشدي عليان وسعدون الساموك ٧٠ ـ ٧١.

(٢) عقائد ما بعد الموت ص١١٥ ـ ١١٦.

(٣) المصدر السابق ص١١٣.

فكرة الحساب:

ذهب الأستاذ هايدل وكريمر وبعض الباحثين إلى أن هناك إشارات واضحة في النصوص المسمارية القديمة تدل على اعتقادهم بفكرة الحساب في عقائد ما بعد الموت في العراق القديم[1]، كما يعتقد المصريون القدماء.

لكن بعد النظر في ما أوردوه من إشارات في النصوص المسمارية، رجح الباحثون انتفاء اعتقادهم بوجود حساب للموتى في عالم الأموات، وبالتالي انتفاء وجود عقاب أو ثواب في ذلك العالم[2].

وكان سكان وادي الرافدين القدماء يعتقدون أن الخطيئة قديمة بقدم الإنسان، يتعرض لارتكابها دائماً بقصد أو بدون قصد منه.

وارتكاب أي خطيئة ينجم عنه أضرار جسيمة[3] تتجلى في أمرين:

١ ـ تخلي الآلهة عنه، فيقع عندئذ فريسة للمصائب والكوارث والأمراض وتلاشي السكينة والهناء[4]. يصف الملك آشور بانيبال الأحوال المتردية في دولته، كما عقاب تقرر عليه، فيقول:

(لماذا يحيط بي المرض وعذاب القلب والشقاء والألم؟ في البلاد تنتشر الاضطرابات، وفي البيت تحاك الدسائس، إنها تلازمني باستمرار، الكوارث والكلمات الشريرة تتجمع ضدي، لقد حنا مرض القلب ومرض الجسد قامتي.. أصبح الموت نهايتي، إنني أتعذب بالقلق والحزن، فأقضي النهار والليل، ندبت: أيها الإله سلط هذه على الذي لا يخاف الآلهة، ودعني أرى نورك أيها الإله، لمَ قررت كل هذا عليّ؟ إني أتعذب كمَن لا يخاف الآلهة)[5].

٢ ـ تقصير أجل الحياة، وإحلال الموت بالذنب، عقاباً له على ما ارتكبه من خطيئة.

يدل على ذلك ما ورد من نصوص مسمارية مثل:

(إذا قال شخص ما في المستقبل بأن الحقل لم يوهب، فعسى الآلهة: أنو،

---

(١) المصدر السابق ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) انظر الحجج ومناقشتها في عقائد ما بعد الموت ص١٣٠.

(٣) عقائد ما بعد الموت ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(٤) المصدر السابق ص١٣٥.

(٥) المصدر السابق ص١٣٨.

وأنليل، وأيا، وننا، وشمس، ومردوخ، ونسكو، وسدرننا، ونركال، ولازر، أن يستأصلوه من أساسه، ويمحوا ذريته، عساهم أن ينهوا أمره، وأن يقرروا بأن لا يبقى حياً يوماً واحداً).

وورد معنى هاتين العقوبتين فيما سطره حمورابي في آخر شريعته، من الدعوات على كل مَن يتجاهل أحكام شريعته، أو يمحو القوانين المشرعة فيها، أو يمحو اسم حمورابي ليكتب اسمه بدلاً عنه، أو يأمر شخصاً آخر للقيام بذلك[1].

وعلى عكس ما تقدم، فإن الثواب وهو: صفاء العيش وطول العمر يلحق مَن يفعل الفضيلة والحسنات، والأعمال الورعة، كالخوف من الآلهة، وتقديم القوانين، وبناء المعابد، وصنع التماثيل للآلهة، يتجلى هذا في نص مسماري:

(إن الخوف من الآلهة مدعاة للعطف، وإن القرابين تطيل العمر، إن مَن يخاف الآلهة يطيل الإله (الأنوناكي) عمره).

ويقول سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ق.م):

(لحفظ راحتي، وإطالة أيامي، واستقرار حكمي، أركع على الدوام بنفسي في العبادة)[2].

وعلى هذا:

فإن عالم الأحياء في نظرهم هو دار الثواب والعقاب، وليس عالم الأموات. يدل على ذلك أن عقيدة العقاب والثواب بعد الموت، تمثل الوازع النفسي في تصرفات المرء، وفي لحظات اختياره ما بين ما يريد أن يفعله، وبين ما يجب أن يمتنع عنه. وعقيدة سكان وادي الرافدين هذه قد جعلتهم عزلاً من أي ضمان، بانهزام الشر، وإنصاف المظلومين، وثواب الخيرين، في الحياة الأخرى في العالم الأسفل، لذلك حمل الحياة في ظل حضارة وادي الرافدين بكل أدوارها شحنات من القلق والتوتر والتساؤلات البائسة، إضافة إلى نوع من الشعور بالإحباط[3]. والنصوص المسمارية توضح هذا الجانب بشكل جلي.

---

(١) المصدر السابق ص١٣٩ ـ ١٤٠.
(٢) المصدر السابق ص١٤٢ ـ ١٤٣.
(٣) المصدر السابق ص١٤٤ ـ ١٤٦.

٢ ـ عند المصريين القدماء:

يعتقد المصريون القدماء سنة ٢٦٠٠ق.م أو قبل ذلك، بحياة أخرى بعد الموت، يلقى الفرد جزاءه على ما فعل من خير أو شر، وهذه العقيدة لم تكن قاصرة على طبقة الكهنة، بل تعدتهم إلى الأوساط الشعبية.

يقول المرحوم عبدالقادر حمزة باشا في كتابه (على هامش التاريخ المصري القديم) عن هذه الفترة.

(وفي هذا الوقت كانت عبادة (أوزريس) قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية... وعبادة أوزريس أساسها الأول أن كل إنسان ـ ملكاً كان أو فرداً عادياً ـ مسؤول بعد الموت عن أعماله في الدنيا، أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزريس نفسه، ويساعده فيها توت وهو إله الحكمة والعلم، وأنوبيس وهو مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة، وحوريس وهو ابن أوزريس وإيزيس، ومعات وهي الهة الحقيقة والعدل، وإثنان وأربعون قاضياً.

فإذا حكمت المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته، كوفىء بالنعيم الخالد، وصار مثل أوزريس. أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش، أو أن يلقى في النار، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب)[١].

ثم يتحدث عن هذا الحساب في كتاب (الموتى)[٢]، الذي وجد في أيام الدولة الوسطى، ملخصاً هذه العقيدة قائلاً:

كانوا يجسمون هذه المحاسبة، فيضعون لها في كتاب الموتى، وعلى التوابيت رسم مَحْكمة ومحاكمة وميزان. وفي هذه المحكمة يجلس أوزريس على عرشه، حاملاً عصاه وكرباجه، ومعه إثنان وأربعون قاضياً من الآلهة ـ ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى إثنين وأربعين إقليماً، فكأن كلاً من القضاة يمثل إقليماً من هذه الأقاليم ـ فإذا جيء بالميت تسلمه أنوبيس، وأخذ قلبه، فوضعه في إحدى كفتي

---

(١) لكن ورد في الدين المقارن لمحمود أبي الفيض المنوفي ص٧١: إن المصريين يعتقدون أن حسناته إذا ترجحت، دخل السعادة الأبدية. أما إذا ترجحت السيئات رده إلى الأرض، ليكفِّر بواسطة أدوار التقمص من حيوان إلى حيوان عن الذنوب التي ارتكبها، عندما وصل إلى أعلى درجة من المخلوقات. وهي درجة الإنسان.

وعقيدة التناسخ هذه أخذها المصريون عن الهنود.

(٢) كتاب (الموتى) له شأن كبير، إذ زعموا أن أحد الآلهة قد كتبه بيده، فكانوا يتعبدون به في الحياة، ويوضع معهم في القبور/ الأديان للدكتور رشدي عليان وسعدون الساموك ص٦٠.

ميزان، ووضع في الكفة الأخرى تمثال الآلهة معات أو ريشتها، ثم وقف الإله توت بجانب الميزان، وفي يده اليمنى قلم، وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان، ثم يرفعها إلى أوزريس، ويقف بالقرب من توت الوحش (أمابيت) ـ وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد ـ متأهباً لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بالتهامه، وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها، ليلقى فيها المذنبون، والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته، وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر.

ثم يثبت نص قصة مصرية قديمة، عثر عليها المصور لوجي جريفت في ورقة بردي، وهي في المتحف البريطاني، تصف رحلة، قام بها فتى، اسمه (سينوزيريس) مع أبيه (ساتني)، ليطلعه على طريقة الحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر. وهي تدل على أن الحساب لا علاقة له بالغنى والفقر، ويصف فيها نزولهم إلى دار محاسبة الأموات، فيدخلان سبع قاعات واسعة، مملوءة بالناس من جميع الطبقات، فشاهدا ناساً تأكل الحمير من خلفهم، وأناساً يثبون إلى طعام معلّق فوق رؤوسهم فلا يدركونه، بينما الحفارون يحفرون تحت أقدامهم، ليزدادوا بعداً عن الطعام المعلق.

وشاهدا رجلاً منطرحاً تحت الباب على ظهره، ومحور هذا الباب تركز في عينه اليمنى، يدور عليها كلما فتح أو أقفل، وهو لا ينفك يفتح ويقفل، والرجل يصيح من الألم.

ثم وجدا أرواحاً من الأبرار، لكل منها مكان تقيم فيه، وجاء تصوير الخير والشر، الذي يترتب الجزاء عليهما على لسان أحد الموتى، في خطاب وجهه إلى أوزريس، للدفاع في النص الموجود في كتاب الموتى، يقول:

(لقد جئت إليك أجلب الحقيقة، وأطرد الخطيئة، إنني لم أقارف الشر، ولم أعتدِ، ولم أسرق، ولم أقتل غدراً، ولم أمس القوابين، ولم أكذب، ولم أسِل دموع أحد، ولم أتدنس، ولم أذبح الحيوانات المقدسة، ولم أتلف أرضاً مزروعة، ولم أقذف، ولم أترك الغضب يُخرجني إلى غير الحق، ولم أزْنِ، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل، ولم أسيء الظن بالملك ولا بأبي، ولم ألوث الماء، ولم أحمل سيداً على أن يسيء إلى عبده، ولم أحلف كاذباً، ولم أغش في الميزان، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع، ولم أصد طيور الآلهة، ولم أرد ماء إلا حين الحاجة إليه، ولم أسد قناة ري على غيري، ولم أطفىء ناراً يجب أن تشعل، ولم يخطر على بالي أن استخف بالآلهة.. إنني طاهر طاهر).

أما تصورهم للعقاب فقد مرّ طرف منه.

وأما تصورهم للثواب فهو الصعود إلى السماء بعد رحلة جمة المخاطر، للإقامة مع الآلهة أو مع الإله (رع) في سفينته، ويسمى هؤلاء الممجدين، وهؤلاء يقيمون في حقل الطعام، يتناولون أطعمة شهية مختلفة، تتجدد ولا تنفذ، وصحتهم تزداد تحسناً، فاليوم أحسن من أمس، وغداً أحسن من اليوم، كما أن السماء (نوت) والثعبان الذي يحمي الشمس، يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ثدييهما، ليرضع منهما، فمتى رضع عاد صبياً[1].

٣ ـ في الديانة الزرادشتية:

هنالك تشابه كبير في عقيدة الزرادشتية ومصر القديمة، في الحساب والنعيم والجحيم، ويتضح هذا فيما يأتي:

يرى الزرادشتيون أنه عندما يموت الميت، تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم، منعّمة بنعيمه أو معذّبة بعذابه، وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح: إما عطرة إذا كان الميت خيُراً، وإما نتنة إذا كان شريراً، فتحملها إلى موضع يلتقي فيه: إما بفتاة جميلة، وإما بعجوز مفزعة، وليست الأولى فتاة حقيقية، ولا الثانية عجوزاً حقيقية، وإنما هي صورة أعمال الميت، وهي ضميره الذي يقوده إلى حيث معبر الحساب والحكم الأخير.

وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم (ميتهرا)، وهناك ينصب ميزان، توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت، وفي الأخرى سيئاته، وبناء على صعود إحدى الكفتين أو هبوطها، يصدر الحكم على مصير هذا الميت.

وعلى إثر انتهاء الوزن وصدور الحكم، يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر، أو الصراط الممتد فوق الجحيم، الذي يتسع أمام الأخيار، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة، وأحد من الشفرة أمام الأشرار، فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد، فإذا هووا في الجحيم كانوا متزاحمين، كأنهم كمية من الشعر في معرفة حصان. ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر في وسط هذا الزحام بوحدة قاسية وعزلة ممضة.

أما الأخيار فيذهبون إلى النور، حيث يستقبلهم (أهورا مازدا) ـ وهو إله الخير

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ص١٢ ـ ١٧ مشيراً إلى كتاب «على هامش التأريخ المصري القديم» وانظر في هذا أيضاً: الأديان ص٥٨ للدكتور رشدي عليان وسعدون الساموك. ومقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ طه باقر ج٢ ص٩٦ ـ ١٠٠.

خالق الكون، وحافظه من الفساد، الذي يحاوله إله الشر (أهريمان) ـ بعد أن يمروا في وسط العمل الصالح، والقول والخير، والفكرة الطيبة، وهناك يستمتعون في كنف مازدا بالسعادة الأبدية[1].

٤ ـ عند الإغريق القدماء:

ظهرت عقيدة الإيمان باليوم الآخر في أوديس هوميروس، الذي عاش حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، والغالب أنها كانت موجودة قبل هوميروس، فضمنها ملحمته.

يذكر هوميروس على لسان (عوليس) ـ بطل الأوديسة ـ أنه رأى في (هيدز) ـ أي: العالم السفلي تحت الأرض ـ الإلهَ (مينوس) جالساً على عرشه، والصولجان الذهبي في يده، والموتى يعرضون عليه قضاياهم. وقد تجمعت جموعهم عند البوابات الكبيرة، ينتظرون دورهم في عرض قضاياهم.

ومن ألوان العذاب التي رآها أنه شاهد (تيتوس) الجبار منبطحاً على الأرض، بحيث يشغل تسعة أفدنة، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل رقم، يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامي ومن أحشائه الغلاظ، جزاء على محاولته اجتذاب (لاتونا) عشيقة كبير الآلهة.

وشاهد (ثانتالوس) يتخبط في عين حمئة من الماء الساخن، وقد غاص فيها إلى ذقنه، والموج يضرب وجهه، ومع ذلك يلهث من شدة الظمأ، وفوق رأسه أشجار الفاكهة لا تصل يده إليها.

وشاهد (سيفوس) يدفع صخرة كبيرة، ليصل بها إلى أعلى جبل، حتى إذا أراد الوصول تدحرجت الصخرة إلى أرض الجحيم، وقد أضناه التعب الفظيع.

وشاهد (هِرَقْل) الجبار محكوماً عليه بأن يطيع ويخدم ابن عمه (يوريذوس)[2].

والشاعر (بندار) في القرن الخامس ق.م يقول في قصيدته الأولمبية الثانية:

سيجد العظماء في الأرض قاضياً في الجحيم، فالذين ارتكبوا منهم أعمالاً محرّمة تحاكمهم الآلهة (أنانكي).

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ص١٩ ـ ٢٠ مشيراً إلى كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور محمد غلاب. وانظر: الأديان للدكتور رشدي عليان وسعدون الساموك ص١٢٩ وفي العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبدالعال ص١٦٣ وقصة الديانات اسليمان مظهر ص٣١٤.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ص٢١ ـ ٢٣ عن كتاب الأوديسة للأستاذ دريني خشبة.

ومع أنه لم يبيّن كيفية المحاسبة لكنه بهذا يقرب من عقيدة المصريين في عدالة الحساب.

ويقول أفلاطون (ولد بين سنتي ٤٢٩ ـ ٤٢٧ق.م):

فإذا جاء الأموات أمام قاضيهم، دعاهم (ردامانت) وهو أخو مينوس إلى القرب منه، ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمَن هي... فإذا وجدها مملوءة فساداً وخبثاً وكانت قد عاشت بعيداً عن الحقيقة بعث بها إلى السجن، لتتلقى فيه العقاب الذي تستحقه، وردمانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم، بعد أن يَسِمَهم بِمَيْسَم تبعاً لقابلياتهم، أو عدم قابليتهم للتطهير. أما الروح الذي يرى أنه عاش في الطهر وفي الحقيقة، فإنه يبتهج به، ويرسله إلى الجزائر السعيدة[1].

٥ ـ عند الرومان:

وذكر صور الحساب أيضاً الشاعر فرجيل شاعر الرومان الأكبر (٧٠ ـ ١٩ق.م) في ملحمته الألياذة فيذكر:

إن إينياس بطل الملحمة يذهب إلى العالم السفلي، للالتقاء بروح أبيه (أنشير) لاستفتائها في مستقبله ومستقبل ذريته، ويهبط مع كاهنة تقوده إلى منازل الموتى، وقد امتلأت أشباحاً وأرواحاً، ويعبران نهر (ستكس)، وهو نهر في الجحيم مليء بالحيات، والحيوانات المخيفة، ومرا في عالم كله يأس وقنوط، وأخيراً لقي أباه، فأنبأه بما قد كتب لسلالته من مجد وفخار[2].

٦ ـ عند الهندوس:

لا يعتقد الهندوس بالحياة الأخرى التي يكون فيها الجزاء، ولكنهم يعتقدون بالكارما أي قانون الجزاء ويعني:

أن جميع أعمال البشر الاختيارية خيراً كانت أم شراً، لا بد أن يجازى عليها بالثواب أو بالعقاب، بناء على ناموس العدل الصارم، وهذا الجزاء يكون في الخياة.

ولكنهم حين رأوا أن الجزاء قد لا يقع، فيموت الظالم، ولا يقتص منه، ويموت المحسن، دون أن يحسن إليه، لجؤوا إلى القول بالتناسخ.

---

(١) مشاهد القيامة ص٢٧ ـ ٢٨ نقلاً عن (موري) ترجمة المرحوم عبدالقادر حمزة باشا.

(٢) مشاهدة القيامة ص٢٨ نقلاً عن (قصة الأدب في العالم) لأحمد أمين، و(عن أساطير الحب والجمال عند الإغريق) لدريني خشبة.

والتناسخ ويسمى (تكرار المولد): رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي في جسم آخر.

وسبب التناسخ أن الروح خرجت ولها شهوات لم تتحقق بعد، وعليها ديون كثيرة لا بد من أدائها، فلا بد أن تتذوق ثمار أعمالها في حياة أخرى، أي في جسد آخر، فإن لم تصلح في هذا الجسد، ففي جسد آخر، وهكذا إلى أن تكتمل الميول والشهوات، وتستوفى الديون، فإن اكتملت نجت روحه، وتخلصت من التناسخ، وامتزجت بانبراهما[1].

ونشأ ما هو مشهور عندهم من تعذيب الجسد بالصوم، والزهد المفرط، وأرق الليل، وتعذيب النفس، وتعريضه لأشقّ التجارب، حتى يبدو هذا دائماً كثير الهموم والخوف، والتشاؤم في سبيل تخليص الروح من سيطرة الجسد، لتنطلق منه في النهاية، وتتحد مع البراهما[2].

٧ ـ عند الصابئة:

يعتقد الصابئة المندائيون أن الموت انتقال من العالم المادي - الذي هو بمثابة سجن ومنفى مؤقت للروح - إلى العالم الروحي، وتخلد هناك، فتحاسَب حساباً عسيراً، بأن توزن أعمال صاحبها، فإن رجحت حسناته فإن روحه تذهب إلى عالم الأنوار (الجنة)، فتتنعم كالقديسين والروحانيين. وإن رجحت سيئاته فإن روحه تقاد إلى المطهر (المطراثه) في عالم الظلام (النار)، حيث تتعذب فيه بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها، ثم ترسل إلى عالم الأنوار[3].

---

(١) مقارنة الأديان ـ أديان الهند الكبرى ـ د. أحمد شلبي ص٦٢ ـ ٦٣ والأديان د. رشدي عليان وسعدون الساموك ص٨٩.

والهندوسية:

ديانة الجمهرة العظمى في الهند الآن، وتسمى: الهندوكية، وسميت البرهمية ابتداء من القرن الثامن ق.م نسبة إلى براهما، وهو القوة السحرية العظيمة الكامنة التي تطلب كثيراً من العبادات وكقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين. ومن براهما اشتقت الكلمة (البراهمية) لتكون علماً على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلا بحضرتهم وعلى أيديهم/ أديان الهند الكبرى ـ د. أحمد شلبي ص٣٩.

(٢) أديان الهند الكبرى ص٦٩ ومشاهدة القيامة ص٢٥.

(٣) الأديان للدكتور رشدي عليان وسعدون الساموك ص١٨٧ والصابئون ـ حرانيين ومندائيين، للدكتور رشدي عليان.

٨ ـ عند اليهود:

اليهودية في جوهرها أسلوب حياة، لا عقيدة تعتقد، ومجالها الأوحد هو هذا العالم الحاضر، وليس فيما وراء هذا العالم.

وفي دائرة المعارف العبرية يقرر كوهلر: أن اليهودية ليست عقيدة، أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل، ولكنها نظام للسلوك البشري وناموس البر، الذي يتحتم على الإنسان اتباعه.

ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان، لم يتكلم اليهود في كتبهم عن الآخرة والبعث والحساب، لأنها أمور متوقفة على العقيدة، والثواب والعقاب ـ عندهم ـ يتم في الحياة الدنيا. لكن بعد احتلال الفرس ـ الذين يدينون بديانة زرادشت ـ بلاد بابل ودولتي اليهود، وبعد أن سمح قورش ملك الفرس لليهود بالعودة إلى فلسطين، وإعادة بناء معبدهم، قامت علاقات طيبة بين اليهود والفرس، فدرس اليهود عقائد زرادشت، فاقتبسوا منهم الاعتقاد بالحياة الآخرة.

وفي هذا الوقت بدأ الأنبياء أشعيا ودانيال كما في سفر دانيال، يذكرون الناس بيوم البعث والحساب والجزاء، لكن اليهود حين تحدثوا عن الآخرة كانوا يعنون بها غير ما تعنيه الديانات الأخرى من وجود دار حساب على ما قدّم في حياته الأولى، فاليهود عند الباحثين قسمان:

أ ـ قسم عاش في حياته الدنيا سعيداً حراً، وهؤلاء حصلوا على الجانب المادي من رضا إلههم.

ب ـ وقسم عاش تحت سلطان الجوييم، أو مشرداً في المنفى، فهؤلاء من حقهم العودة للحياة مرة أخرى، لينالوا نصيبهم من النعيم.

وقد حاول بعض طائفة الفريسيين القول بها، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة، أما باقي الفرق اليهودية فلم تعرف عنها شيئاً[1].

٩ ـ النصارى:

يعتقد النصارى باليوم الآخر، وبعث الأموات من القبور والحساب على ما قدّم الإنسان من عمل في الحياة الدنيا، لكنهم يقولون بأن المحاسب هو المسيح

---

(١) اليهودية د. أحمد شلبي ص١٩٤ ـ ١٩٦.

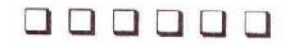
(عليه السلام)، وأن الجنة جزاء مَن يعمل الخير، والنار جزاء مَن يعمل الشر[1].

يقول النصارى أن المسيح عليه السلام قام بالتكفير عن خطايا الناس، والتكفير هو الصلب، لهذا صلب ورضي الله عن صلبه، وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره، وإن اختلفت الأناجيل في تفصيل القيام، فمتى يقول: أنه ظهر في الجليل، ولوقا: في أورشليم، ويوحنا: في اليهودية والجليل معاً، ومرقس قال: أنه ظهر بين تلاميذه[2].

قالوا:

ولم يمكث المسيح عليه السلام بعد قيامته هذه إلا أربعين يوماً، ثم ارتفع بعدها إلى السماء، وجلس بجوار الأب، والأب لا يدين أحداً، بل أعطى ذلك للابن، لذلك سيأتي المسيح عليه السلام ليدين الناس يوم القيامة. يحاسب كل إنسان على ما فعل وفكّر، فإن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وله بهذا الملك الأبدي، فلا فناء لملكه.

ففي إنجيل يوحنا: (الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة، وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون، لأنه كما أن الأب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان. لا تعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة، لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني)[3].



---

(١) مشاهد القيامة ص٣٣ وذكر: ولا نستطيع أن نجزم متى؟ يوم القيامة أم يوم قيامته بعد دفنه بثلاثة أيام، كما ورد في الأناجيل.

(٢) محاضرات في النصرانية: أبو زهرة ص١٠٥.

(٣) المصدر السابق ص١٠٧.




المبحث الثالث

اليوم الآخر في الفكر الإسلامي

معناه:

من الأمور المسلّم بها في الدين الإسلامي الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت، يبعث الناس بعد موتهم، ويحاسبون على ما قدّموا من أعمال، فيجازون عليها، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنة الخُلْد، وأما الذين كفروا وعملوا السيئات فلهم النار، يُشقَون فيها بالعذاب الشديد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

تسميته:

وسمي باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا، بمعنى أنه متصل بآخر أيام الدنيا، لأنه ليس منها، حتى يكون آخرها.

وسمي بيوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدَي خالقهم، وقيام الحجة لهم وعليهم، وله نحو ثلاثمائة اسم[*].

حكم الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، يكفر مَن لا يؤمن به بالإجماع، على ما تقدم ويأتي بيانه. وقد فصل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أخبار اليوم الآخر، وما يتصل به من مشاهد القيامة، وفصل أوصاف أهله في الجنة والنار، برزت فيه المشاهد حية واضحة مكتملة السمات، تخفق لها القلوب، وتقشعر منها الأبدان.

(*) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٧٦.

طريق ثبوته:

ومن الطبيعي أن هذه الأخبار والأوصاف من الأمور الغيبية التي لم يدركها أحد، إذ أن وقوعها يكون بعد الموت.

لذلك فإنا سنقتصر في بحثنا هذا على ما ورد فيها من تلك الأخبار والأوصاف، بطريق قطعي الثبوت، قلنا سابقاً أنه ينتهي إلى اليقين، وهذا الطريق هو:

القرآن الكريم كلام الله تعالى، الذي أثبتنا أنه لا يقبل في خبره شك أو ريب. والسنّة النبوية الصحيحة الثابتة، التي وردت عن لسان النبي محمد ﷺ الصادق الأمين في ما يبلغه عن الله تعالى.

تاركين الأحاديث التي فيها ضعف أو جرح، لأن هذا الكلام يخص الاعتقاد، وهذا هو السبيل الوحيد القاطع بالصحة لإثبات عقيدتنا باليوم الآخر.

طريق فهم الغيبيات واعتقادها:

الإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب الذي يجب أن نستيقنه، ويمكن أن نقرب طريقة فهمه بما يأتي:

أ ـ رأى الطبيب في يدك كأساً من الماء، فتأمل به، فقال لك: لا تشرب هذا الماء، فإنه ملوّث، يعرض حياتك للخطر. وأنت لا تعلم عن الطب والماء وخصائصه شيئاً سوى أن هذا الطبيب حاذق.

ب ـ أُخبرتَ أن علماء الأرصاد والفلك حددوا خسوف القمر في ليلة معينة، أو هبوب رياح عاتية في يوم ما، ورأيت أن الخبر يقيني رسمي.

لا شك أنك تستيقن ذلك لأمرين هما:

أ ـ يقينك بأن الطبيب حاذق، وأن علماء الأرصاد صادقون فيما يخبرون.

ب ـ يقينك بأن كلام الطبيب وخبر علماء الأرصاد يقيني صادر من جهة رسمية، على نحو لا يحتمل الكذب.

هذان الأمران وإن كانا من الأمور الغيبية، إلا أنك استيقنتهما، فلم تعد تشك في جزء منهما[1].

ونحن بعد أن أقمنا الأدلة على وجود الله تعالى، وأنه كالىء الكون بعنايته

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

ورعايته، وعلى أن محمداً رسول الله حقاً، صادق فيما يخبر عن الله تعالى، وقد وصل خبره إلى درجة اليقين الذي لا شك فيه، استيقنّا عندئذ أن ما أخبرنا به عن أحوال اليوم الآخر هو حق لا مرية فيه، وإن كان ذلك من الأمور الغيبية التي لا تحكم الحواس فيها بالقطع أو النفي.

الإيمان باليوم الآخر هو نتيجة الإيمان بالله:

لا يكون المرء مؤمناً باليوم الآخر إلا إذا آمن بالله تعالى، لذلك قرن القرآن الكريم بينهما في مواضع كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧][1].

فلا معنى إذن للإيمان باليوم الآخر من غير الإيمان بالله ﷻ وأنبيائه.

لذلك كان عبثاً أن تجادل باليوم الآخر مَن لا يؤمن بالله تعالى، لأن مثلك عندئذ مثل مَن ينبيء شخصاً بوصول الإنسان إلى القمر، وذلك ينكر وصوله، وهو يجهل الأمور البدهية التي صار إليها علم الفلك الآن.

فالمجادل في الحياة الآخرة نحيله إلى البراهين القطعية على وجوده تعالى، وقدرته وصفاته الكاملة التي أسلفناها في باب الإلهيات.

فإذا ثبت لنا وجوده تعالى، وثبتت النبوة، فيجب عندئذ أن يكون هناك بعث ومحاسبة، يجزى المرء حسب عمله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] وإلا يلزم الظلم بالنسبة للخالق، إذا ترك محاسبة العاصي وإثابة المطيع، والظلم محال على الله تعالى.

---

(١) وانظر اقتران الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله تعالى في الآيات الآتية: سورة البقرة: ١٢٦، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٦٤، آل عمران: ١١٤، النساء: ٣٨، ٣٩، ٥٩، ١٦٢، المائدة: ٦٩، التوبة: ١٨، ١٩، ٢٩، ٤٤، ٤٥، ٩٩، النور: ٢، العنكبوت: ٣٦، الأحزاب: ٢١، المجادلة: ٢٢، الممتحنة: ٦، الطلاق: ٢.

الحياة الأخرى

انقطاع العمل بالموت:

يقول الرسول ﷺ:

«**إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو عِلْمٍ يُنتفع به، أو ولَدٍ صالح يدعو له**» رواه مسلم ـ كتاب الوصية.

فالموت هو الحدّ الفاصل بين الحياة الدنيا وبين الآخرة، وعليه فإن منازل الآخرة تبدأ بمجرد مغادرة الروح البدن.

وهنا سنتحدث عن هذه المنازل مسلسلة مبتدئاً بالموت، وما يتصل به، وما يتبعه إلى قيام الساعة وما يتلوها من مشاهد، حتى استقرار الإنسان في الجنة أو النار.

* * *

سوء الخاتمة والأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن الرجل ليَعملُ الزمنَ الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليَعمل الزمنَ الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة**» رواه مسلم ـ كتاب القدر.

وعن سهْل بن سعْد عن النبي ﷺ قال:

«**إن العبد ليَعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**» رواه البخاري ـ كتاب القدر.

وتكون سوء الخاتمة:

أ ـ لمَن أصرّ على الكبائر، وأقدم على المحرمات، فربما غلب عليه ذلك، حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة.

ب ـ لمَن كان مستقيماً ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سنته.

لذلك قال العلماء:

(فلا تعجب بإيمانك وعملك، وصلاتك وصومك، وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك.. فمهما افتخرت بذلك كنتَ كالمفتخر بمتاع

غيرك، وربما سلبه عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف الطير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم... كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم)[١].

ولذلك أوجب الله تعالى التوبة على المؤمنين، لتحسن خاتمتهم، ويكون مصيرهم الجنة، فإن العبد لا يدري متى تُقبض روحه، إذ أن الموت يأتي على الصغير والكبير، والصحيح والسقيم.

فلا بد أن يبادر الإنسان إلى طاعة ربه، ما دام مكلفاً شرعاً، لأن سن التكليف يتعلق به الثواب والعقاب. والطاعة سبيل الوصول إلى جنة الفردوس.

❊ ❊ ❊

التوبة

التوبة في أصل اللغة: الرجوع. يقال: تاب أي رجع.

وفي الاصطلاح: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه[٢].

قال النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر**» أخرجه التِّرمِذي، أي: عند الغرغرة وبلوغ الروح الحلقوم، وإنما يغرغر إذا قطع الوتين.

والتوبة: فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين، بدليل:

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

شروط التوبة:

١ ـ الندم بالقلب على ما اقترف من معصية.

٢ ـ ترك المعصية في الحال.

٣ ـ العزم على أن لا يعود إلى مثلها.

٤ ـ أن يكون ذلك حياء من الله تعالى وخوفاً منه لا من غيره.

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ـ للقُرطُبي. مطابع مدكور بالقاهرة ٣٦ ـ ٣٨.

(٢) الرسالة القُشَيرية، مصر سنة ١٩٥٧، ص٤٥.

فإذا فقد شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة[1].

هذا إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق الآدمي.

فإن كانت متعلقة بحق آدمي، فيشترط بالإضافة إلى الشروط المتقدمة: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكّنه منه، أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها[2].

أما حديث (الندم توبة)[3] فهو نص على معظَمه، أي معظم أركانها الندم. فهو كما قال النبي ﷺ: «**الحج عرفة**»[4] أي: معظم أركانه عرفة (أي الوقوف بها).

ومن أهل التحقيق مَن قال: يكفي الندم من تحقيق ذلك، لأن الندم يمتنع ما بعده، فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادماً على ما هو مُصِر على مثله، أو عازم على الإتيان بمثله[5].

❊ ❊ ❊

الموت

تعريفه:

الموت ليس بعدم مَحْض، ولا فناء صِرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدَن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار[6].

والروح: جسم لطيف شفاف، حيّ لذاته، مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر، وعند مفارقته الجسد ينقطع تصرفه، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حسب مشيئتها[*].

---

(١) التذكرة للقرطبي ص٤٥ ـ ٤٦، وفي الرسالة القُشَيْرية ص٤٥ ورياض الصالحين ص١٨ ـ ١٩ لم يذكر الرابع.

(٢) رياض الصالحين السابق.

(٣) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم. وهو صحيح/ الجامع الصغير ١٨٩/٣.

(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم في المستدرَك والبَيْهقي وهو صحيح/ الجامع الصغير ١٥١/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٤٥ ـ ٤٦.

(٦) التذكرة ص٤.

(*) رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص١٠٠.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

فالروح تغادر الجسم، وهو في أكمل حالات الصحة. هذا هو التعريف الذي ذكره المسلمون وآمنوا به.

أما ما ذكره بعضهم من أن:

أ ـ الموت هو توقف القلب عن النبض.

فقد انهار في السنوات الأخيرة بزراعة القلوب أو الأجهزة الصناعية.

ب ـ الموت هو موت خلايا المخ.

فقد انهار أيضاً، حينما أعلنت مستشفى جامعة طوكيو نجاحها في إعادة مخ رجل للحياة، بعد أن توقف نشاطه عدة شهور[١].

وأخفقت جميع البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقيني، فبقي الاحتمال الذي أكدته الأزمان، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر، وفي أي زمن حتى قال د. كارل بعد أن بحث المشكلة، وذكر تلك الجهود المختلفة:

(إن الإنسان لن يسأم أبداً من البحث عن الخلود والسعي وراءه، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة. إنه يستطيع أن يوقف الزمن الفسيولوجي لأعضاء الجسد، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً).

لذلك قال الدكتور (لنس بالنج) الحائز على جائزة نوبل للعلوم:

(إن الإنسان أبدي إلى حد كبير نظرياً، فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض، ومعالجتها تلقائياً، وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء)[٢].

---

(١) يوم القيامة ـ عبدالرزاق نوفل، ط الشعب ١٩٦٩، ص٦٠ ـ ٦٢.
وانظر تعاريف أخرى في: الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان، ط٤، القاهرة، ص٧٣.

(٢) الإسلام يتحدى، ص٧٣ ـ ٧٤ وانظر قول د. كارل في كتابه الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد ص٢٠٩ في فصل الزمن الداخلي.

ما يتبع الميت إلى قبره وبعد موته وما يبقى معه فيه:

بيَّن الرسول ﷺ ذلك في هذين الحديثين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع إثنان، ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما يَلحَق المؤمنَ من عمله وحسنَاته بعد موته: علماً علَّمه ونشَره، وولداً صالحاً تركه، ومُصْحَفاً ورَّثه، أو مسجداً بناهُ، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقُه من بعدِ موته**»[2].

ولا تنافي بين الحديثين لما يأتي:

أ ـ إما لأن مفهوم العدد غير حجة.

ب ـ وإما لأنه اطلع أولاً على ما في حديث مسلم، ثم أطلعه الله على الزائد فأخبَر به[*].

❊ ❊ ❊

تمني الموت

النهي عن تمني الموت والدعاء به لضر ينزل به في المال والجسد:

عن أنَس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**لا يتمنيَنَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحيِني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ في أول كتاب الزهد والرقائق ج٤ ص٢٢٧٣، والبخاري في الرّقاق ـ باب سكرات الموت ج٨ ص١٣٤.

(٢) رواه ابن ماجة في المقدمة ـ باب ثواب معلم الناس الخير ج١ ص٨٨، وهو حديث حسن/ الجامع الصغير ج١ ص١٠٠.

(*) دليل الفالحين ج٣ ص٤٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ـ كتاب الدعوات ـ باب الدعاء بالموت والحياة ج٨ ص٩٤ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به ج٤ ص٢٠٦٤ واللفظ لمسلم.

وقال النبي ﷺ: «**لا يتمنينَّ أحدُكم الموت، إما محسناً فلعله يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله يَسْتَعتِب**» أخرجه البخاري[1].

وقوله: (فلعله يَسْتَعْتِب): الاستعتاب طلب العُتْبَى، وهو الرضا، وذلك لا يحصل إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب[2].

ومعنى الحديث: لا يتمنى أحدكم الموت محسناً وإما مسيئاً، أي: سواء كان على حالة الإحسان أو الإساءة، أما إن كان محسناً فلا يتمنى الموت، لعله يزداد إحساناً على إحسانه، فيضاعف أجره وثوابه. وأما إن كان مسيئاً فلا يتمنى أيضاً إذ لعله يندم على إساءته، ويطلب الرضا عنه، فيكون ذلك سبباً لمحو سيئاته، التي اقترفها[3].

جواز تمني الموت والدعاء به خوف ذهاب الدِّيْن:

ودليل ذلك ما يأتي:

١ ـ قال تعالى على لسان يوسُف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

قال قَتادة: لم يتمَنَّ الموتَ أحدٌ نبيٌ ولا غيرُه، إلاّ يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النِّعَم، وجمع له الشمل، اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقيل: إن يوسف لم يتمن الموت، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام، أي: إذا جاء أجلي توفني مسلماً. وهذا القول هو المختار في تأويل الآية عند المفسرين.

٢ ـ قال تعالى عن مريم: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

قالوا: إنها تمنت الموت لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يظن بها السوء في دينها، وتعير، فيفتنها ذلك.

ثانيهما: أن يقع قوم بسببها في البهتان، والنسبة إلى الزنا، وذلك مُهلك لهم.

٣ ـ حديث الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول**

---

(١) البخاري ـ كتاب التمني ـ باب ما يكره من التمني ج٩ ص١٠٤.

(٢) التذكرة ص٤ ـ ٥.

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ـ للقَسْطَلاني، ط٧ ببولاق سنة ١٣٢٣هـ، ج١٠ ص٢٨٠.

يا ليتني مكانه» رواه مالك في الموَطَّأ[1].

قالوا: إنما هو خبر أن ذلك سيكون، لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين وضعفه وخوف ذهابه، لا لضر ينزل بالمرء في جسمه وماله ومما يوضح هذا المعنى: قوله ﷺ:

«**اللهم إني أسألك فِعْلَ الخيرات، وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردتَ في الناس فتنة، فاقبضني إليك غير مفتون**)[2] رواه مالك[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الموَطَّأ - جامع الجنائز./ تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك ج١ ص١٨٧.
(٢) الموطأ - القرآن - العمل في الدعاء/ تنوير الحوالك ج١ ص١٧٠.
(٣) التذكرة للقُرطُبي ٦ - ٧.



البرزخ

تعريفه:

البرزخ لغة: ما بين كل شيئين من حاجز، وفي الآية: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: ٢٠] أي: حاجز يمنعهما من أن يختلط أحدهما بالآخر.

والبرزخ اصطلاحاً: الحاجز بين الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(1) [المؤمنون: ١٠٠].

* * *

القبر أول منازل الآخرة

معنى القبر:

القَبْر مفرد. وجمعه القبور وهو جمع كَثْرة. وأَقْبُر وهو جمع قِلّة. ويقال لمَدْفَن الموْتى مَقْبَر ومَقْبَرة(2).

سؤال القبر:

ويراد به: أن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره بردّ الحياة إليه، ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيبه، ويفهم

---

(1) انظر: النهاية لابن الأثير مادة (برزخ)، ولوامع الأنوار البهية للسَّفَّاريني، جدة ١٣٨٠هـ، ج٢ ص٤، والروح لابن القيّم، مصر ١٩٦٧، ص٧٣ و١٠٨.

(2) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٤ والتذكرة ص٨٨.

ما آتاه من ربه، وما أعدّ له في قبره من كرامة أو هوان[1].

دليله:

الأدلة على ثبوت سؤال القبر كثيرة منها:

١ ـ حديث البَرَاء بن عازب: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المسلمُ إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله**» فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أخرجه البُخاري. ورواه مسلم، وفيه: فيقال له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ. فذلك قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2].

٢ ـ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه، وإنه ليَسمعُ قَرْعَ نِعالهم، أتاه مَلَكان فيُقْعِدانه، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ؟**

فأمّا المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسوله، فيُقال له: انظر إلى مَقْعدك من النار، قد أبدلك الله به مَقْعَداً من الجنة، فيراهما جميعاً.

وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يقولُ الناس. فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ. ويُضربُ بمطارقَ من حديد ضربةً، فيصيح صيحةً يسمعُها مَن يليهِ غيرَ الثَّقَلَيْن»[3].

حكم الإيمان بسؤال القبر:

الإيمان به واجب، وهو مذهب الجمهور[*].

---

(١) التذكرة ص١٢٤.

(٢) حديث البراء في صحيح البخاري ـ تفسير سورة إبراهيم ج٦ ص١٠٠ وصحيح مسلم ـ كتاب الجنة ـ باب عرض مقعد الميت.. ج٤ ص٢٢٠١.

(٣) حديث أنس في: صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في عذاب القبر ج٢ ص١٢٣. وصحيح مسلم ـ كتاب الجنة ـ باب عرض مقعد الميّت... ج٤ ص٢٢٠٠.
وانظر من أدلة سؤال القبر في: لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٥ والروح ص٥٣ ـ ٥٤.

(*) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص٢٢٠.

عذاب القبر:

حكم الإيمان به:

عذاب القبر حق، والإيمان به واجب، وهو قول الجمهور(١).

أدلة عذاب القبر:

استدل الجمهور على إثبات عذاب القبر بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] أي قبل يوم القيامة وذلك في القبر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

فالمراد بالإماتتين والإحياءين في هذه الآية هو: الإماتة قبل مزار القبور، ثم الإحياء في القبر، ثم الإماتة فيه أيضاً، ثم الإحياء للحشر.

قال المفسرون:

والغرض بذكر الإحياءين أنهم عرفوا فيهما قدرة الله على البعث، ولهذا قالوا: فاعترفنا بذنوبنا، أي الذنوب التي حصلت بسبب إنكار الحشر، وإنما لم يذكر الإحياء في الدنيا، لأنهم لم يكونوا معترفين بذنوبهم في هذا الإحياء.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالإماتتين ما ذكر، وبالإحياءين الإحياء في الدنيا، والإحياء في القبر، لأن مقصودهم ذكر الأمور الماضية، وأما الحياة الثالثة أعني حياة الحشر فهم فيها، فلا حاجة إلى ذكرها.

وعلى هذين التفسيرين ثبت الإحياء في القبر(٢).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

قال أبو سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود: ضنكاً أي: عذاب القبر.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧].

---

(١) التذكرة ص١٢٤.

أثبت الجُبَّائي من المعتزلة وابنه والبَلْخي عذاب القبر، لكنهم نفوه عن المؤمنين، وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفسّاق./ الروح لابن القَيِّم ص٥٨ ولوامع الأنوار البهية للسَّفَّارِيني ج٢ ص٢٣ نقلاً عن الروح.

(٢) المواقف وشرحه للجُرجاني ص٥٩١، وانظر: شرح المقاصد ج٢ ص٢٢٠.

قيل: هو عذاب القبر، لأن الله ذكره عقب قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: ٤٥] وهذا اليوم هو اليوم الآخر من الدنيا، فدلّ على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر.

٥ ـ قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [التكاثر: ١ ـ ٣] يعني في القبور.

٦ ـ في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إنهم ـ أي أهل القبور ـ يعذّبون عذاباً تسمعه البهائم كلها**»[*].

٧ ـ حديث البَراء بن عازب وأنس بن مالك المتقدمان في أدلة سؤال القبر[١].

تصوّر عذاب القبر ونعيمه:

قال الجمهور: إننا نؤمن بما ورد في الإخبار، ولله أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم، ويصرف أبصارنا، ويغيّبه عنا.

فلو كان الميت بيننا موضوعاً، فلا يمتنع أن يأتيه الملكان، ويسألانه، ويجيبهما من غير أن يشعر الحاضرون بهما، ومثال ذلك:

نائمان بيننا أحدهما ينعم، والآخر يعذب، ولا يشعر بذلك أحد من حولهما[٢].

وليس للعقل وقوف على كيفية عَوْد الروح إلى الجسد، وكيفية عذاب القبر ونعيمه، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والرسل لا يأتون بما تُحيله العقول، ولكنه قد يأتون بما تَحار به العقول[٣]، وأخبارهم قسمان:

أ ـ ما يشهد العقل والفطرة السليمة به.

ب ـ لا تدركها العقول كالغيوب.

فكل خبر يظن أن العقل يحيله، فلا يخلو من أحد أمرين:

أ ـ الخطأ في النقل.

(*) حديث عائشة في صحيح البخاري ـ كتاب الدعوات باب التعوذ من عذاب القبر ج٨ ص٩٨. واللفظ له، وصحيح مسلم ـ المساجد ـ باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ج١ ص٤١١.

(١) التذكرة ١١٣ ـ ١١٤ و١٣٣، والروح ٥٣ ـ ٥٤، ولوامع الأنوار البهية ج٢ ص٥ و١٣ ـ ١٤.

(٢) التذكرة ص١٢٦. وإحياء علوم الدين للغزالي ط١٩٣٩ مصر ج١ ص١١٩ وج٤ ص٤٨٥.

(٣) شرح العقيدة الطّحَاوية، ط٣، المكتب الإسلامي بدمشق، ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

ب ـ فساد في العقل، فتكون شبهة خيالية[1].

والعلماء يتفقون على أن الله تعالى يعيد إلى الميت في القبر نوع حياة، قدر ما يتألم ويتلذذ، ويشهد بذلك الكتاب والأخبار والآثار[2].

دخول الملك القبور:

يجوز تأويل دخول الملك القبور باطلاعه على أهلها، وهم مدركون له عن بُعد من غير دخول ولا قرب.

ويجوز أن يكون الملَك للطافة أجزائه، يلج القبور، فيتوصل إليهم من غير نبش. ويجوز أن ينبشها، ثم يعيدها الله إلى مثل حالها على وجه لا يدركها أهل الدنيا. ويجوز أن يدخل الملَكُ من تحت قبورهم من مداخل لا يهتدي الإنسان إليها[3].

قال ابن القيم:

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر، وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطير[4].

عذاب القبر ونعيمه:

قال النبي ﷺ: «**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[5] وهو بيان لما في القبر من نعيم وعذاب.

ويجب أن يعلم أن ذلك ليس من جنس نار الدنيا ونعيمها، والله تعالى قادر على أن يحمي التراب والحجارة التي فوقه وتحته، حتى يكون أعظم حرًا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها، بل أعجب من ذلك أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، أحدهما في روضة من رياض الجنة، والآخر في حفرة من النار، لا يصل من أحدهما إلى جاره حر ناره أو نعيمه.

---

(١) الروح ٦٢، لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٢١ نقلاً عن الروح.

(٢) شرح المقاصد ج٢ ص٢٢٢.

(٣) التذكرة للقُرطُبي ص١٢٦.

(٤) الروح لابن القيّم ص٧٢.

(٥) سنن الترمذي ـ كتاب صفة القيامة ـ باب القبر يقول للمؤمن مرحباً وأهلاً ج٧ ص١٦٧ عن أبي سعيد الخُدْري وقال: حسن غريب.

ولو اطَّلعَ الله تعالى على ما هو محجوب عن إدراك العقول، لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب[1].

وعذاب القبر، وهو عذاب البَرْزَخ، ونعيمُه ينال مستحقه، سواء قبر أم لم يقبر، أكلته السباع أو احترق، حتى صار رماداً ونسف في الهواء...[2].

وما ورد عن النبي ﷺ من إجلاس الميت واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلوّ ولا تقصير...، لأن الدور ثلاث، لكل دار أحكام تخصها، وهي:

أ ـ دار الدنيا وأحكامها على الأبدان، والأرواح تبعاً لها.

ب ـ دار البرزخ وأحكامها على الأرواح، والأبدان تبعاً لها.

جـ ـ دار القرار وأحكامها على الأرواح والأبدان جميعاً[3].

أما كيفية وصول العذاب إلى مَن تفرقت أجزاؤه في التراب أو الهواء... فإن العذاب يسري في دار البرزخ على الروح والبدن تبع لها، وليس ببعيد على الله تعالى أن يجعل للروح تعلقاً بأجزاء البدن وإن تباعدت، واليوم نرى اللاسلكي والبث الإذاعي يصل إلى مختلف أنحاء العالم في لحظة واحدة، وكذلك الحال في الكهرباء إذ تصل إلى أماكن متباعدة في لحظة فتح الصمام المخصص للإيصال، وتصرف الروح أغرب وأعجب من هذا بكثير.

❊ ❊ ❊

البعث (المعاد الجسماني) والنشور

تعريفه:

البعث: هو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية، ويعيد الأرواح إليها.

والنُّشور: يرادف البعث في المعنى، يقال: نشر الميت: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله: أحياه.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٨٩ ـ ٣٩١، الروح ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) الروح ٥٨.

(٣) نفسه ٦٢ ـ ٦٣.

الاختلاف فيه، وحكم الإيمان به:

وقد اختلفوا في المعاد على قولين:

الأول: نفاه الطبيعيون[1]، ذهاباً إلى أن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس، الذي يفنى بصورته وأعراضه فلا يعاد. وهم لم يروا بأعينهم ميتاً بُعث حياً، وحكى لهم ما جرى له بعد موته.

الثاني: أثبته الحكماء والمِلِّيُّون[2].

قال ابن قَيِّم الجَوْزية: مَعَاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى[3].

وقال الجلال الدَّوَّاني: المعاد الجسماني يجب الاعتقاد به، ويكفر منكره، وهو حق بإجماع أهل الملل الثلاث (أي المسلمون واليهود والنصارى)، وشهادة نصوص

---

(١) حكى القرآن الكريم عقيدة (الدَّهريين) أو (الطبيعيين) المتمثلة بإنكارهم الحساب والجنة والنار، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء يرون بطلان الأديان كافة، وعدُّوها أوهاماً، فترتب على هذا ما يأتي:

١ ـ أنكروا أن الإنسان أشرف المخلوقات، بل هو أخس من البهائم خلقة، وأدنى منها فطرة. وما يَفتخر به من الصنائع، فإنما أخذه بالتقليد عن الحيوانات، فالنسيج أخذه من العنكبوت، والبناء من النحل، وإدخار القوت من النمل، والموسيقى من البلبل...

وأنكروا أن تكون أمة محمد ﷺ أشرف الأمم، فليست هي أوْلى من غيرها بفضيلة أو مزية.

٢ ـ وأنكروا بعث الإنسان في اليوم الآخر، ليحاسَب على ما اقترف في الدنيا.

٣ ـ وأوجبوا إزالة الحياء والأمانة والصدق، وعرى الدين من التفريق بين الحلال والحرام. يقول أبيقور الدهري: إذا كان هذا شأن الإنسان من النقص عن الحيوانات فالأولى أن لا يغتر بأن في الآخرة ثواباً وعقاباً، ويحرم نفسه في هذه الدنيا من حظوظ اللذة، ويقيّد نفسه بأوهام الحلال والحرام، واللائق وغير اللائق، والحياء والصدق والأمانة، وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد بها الناس جهلاً ولم يتقيد بها الحيوان والبهم.

انظر مقدمة الشيخ محمد عبده لرسالة إبطال مذهب الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني، وذلك في كتاب (خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني) ص٢٨٩ ـ ٢٩٢.

(٢) المقاصد وشرحه ٢/٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) الروح لابن القيم ص٥٢ ولوامع الأنوار البهية ٢/١٥٧ نقلاً عنه.

القرآن في المواضع المتعددة، بحيث لا يقبل التأويل[1].

حيث توعد منكري البعث واليوم الآخر بالعذاب الأليم لكفرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد: ٥].

وقال سبحانه: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ . . .﴾ [الإسراء: ٩٧ ـ ٩٩].

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ [المؤمنون: ٧٤][2].

ولكن اختلفوا في كيفيته:

أ ـ المعاد روحاني فقط وهو قول الفلاسفة، لأن البدن ينعدم بصوره وأعراضه، فلا يعاد، والنفس جوهر مجرد باقٍ لا سبيل إليه للفناء، فيعود إلى عالم المجردات بقطع التعلقات.

ب ـ المعاد جسماني فقط وهو قول جمهور المسلمين، لأن الروح جسم سارٍ في البدن سريان النار في الفحم والماء في الورد.

جـ ـ روحاني وجسماني معاً وهو قول الغزالي والحَليمي والراغب وأبي زيد الدَّبوسي وهو رأي كثير من الصوفية والشيعة والكرّامية وجمهور النصارى والتناسخية[3].

---

(١) حاشية الجلال الدوّاني على العقائد العَضُدية (المطبعة العثمانية ١٢١٦هـ) ج٢ ص٢٤٧، والكلنبوي عليه، ولوامع الأنوار ج٢ ص١٥٨ نقلاً عنه.

(٢) وانظر الآيات أيضاً: النحل ٦٠ والإسراء ٤٩ ـ ٥١ ومريم ٦٦ ـ ٦٨ والحج ٥ ـ ٦ والمؤمنون ٨١ ـ ٨٣ والنمل ٤ ـ ٥ و٦٦ ـ ٦٧ والجاثية ٢٤ والتغابن ٧.

(٣) شرح المقاصد ٢/٢١١ وذكر بعد ذلك: قال الإمام الرازي: إلا أن الفرق: أن المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردها إلى الأبدان لا في هذا العالم بل في الآخرة، والتناسخيّة، بقِدمها وردّها إليها في هذا العالم وينكرون الآخرة والجنة والنار، . . . والتناسخية إنما يكفرون لإنكارهم القيامة والجنة والنار، والنصارى لقولهم بالتثليث. وانظر: شرح المواقف للسيد الشريف ص٥٨٢.

أدلة وقوعه:

واستدل أهل الحق على أن المعاد الجسماني حق بالمنقول والمعقول. فمن المنقول:

١ ـ من الكتاب العزيز قوله تعالى:

أ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

ب ـ ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

جـ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٦].

د ـ ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

هـ ـ ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

و ـ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ز ـ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ح ـ ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

ط ـ ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩][1].

فاحتج الله تعالى بالابداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذّر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟

ثم أكد الأمر بحجة ظاهرة تضمن جواباً عن سؤال ملحد ـ يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها حارة رطبة ـ بما يدل على أمر البعث: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/١٥٧ ـ ١٥٩.

تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة.

ثم أكد بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن مَن قدر على العظيم فهو على ما دونه بكثير أقدر: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١][1].

ي ـ الأوامر والنواهي في القرآن الكريم كثيرة:

فمن الأوامر: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و٨٣ و١١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]... إلخ. ومن النواهي: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

وهذه الأحكام لا اختيار فيها للمسلم، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد حذّر الله تعالى الناس من مخالفة أمره ونهيه بقوله سبحانه:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وبناء على ما تقدم من الأوامر والنواهي ونفي الاختيار في أحكامه تعالى والتحذير من مخالفة أمره، لا بد من ترتيب العقوبات البدنية على الفجار العصاة والنعيم للمؤمنين، وهذا ما اقتضاه عدله وحكمته وكماله المقدس.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٦].

وهذا واضح في أنه ليس مجرد تهديد ووعيد، بل يعني أن المعاد أمر ضروري لا مفر من القول به.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٩٨ ـ ٣٩٩، وانظر عقائد الإمامية ص١٢٦.

٢ ـ ومن الحديث الشريف:

أ ـ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «**إنكم ملاقو الله حُفاة عراة غُرْلاً**».

وفي صحيح مسلم: قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «**يا أيها الناس إنكم تُحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً**» ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][1].

ب ـ أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والإسماعيلي في معجمه والحافظ الضياء في المختارة وابن مَرْدُويْه والبَيْهَقي في الشُّعَب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعَظْم حائل، ففتّه بيده فقال: يا محمد، يحيي الله هذا بعد ما أرَمّ؟ قال: «**نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يُدخلك نار جهنم**» فنزلت الآيات من آخر سورة يَس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ . . .﴾ [٧٧ إلى آخر السورة].

وهذا نص صريح في الحشر الجسماني، يقلع عِرْقَ التأويل بالكلية.

٣ ـ وعليه إجماع سلف الأمة.

ومن المعقول:

١ ـ أن الأنبياء تأتي بما تدركه العقول، أو تتحير فيه، ولا تأتي بما تحيله العقول أبداً. والمعاد ممكن لأنه: إما إيجاد ما انعدم، أو جمع ما تفرق، أو إحياء بعدما أميت.

وهذه كلها ممكنة لا إحالة في ذلك. وأخبار الأنبياء والكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم كثيرة جداً.

٢ ـ الأصل فيما لا دليل على وجوبه ولا على امتناعه هو الإمكان، كما يقول الحكماء والمتكلمون: من أن كل ما قرع سمعك من الغرائب قذّره في حيِّز الإمكان، ما لم يردك عنه قائم البرهان، فمَن زعم عدم إعادة المعدوم، ألزم بالمبدأ، فإن المبدأ مثل المعاد، بل هو عينه أو أيسر ـ كما مر ـ، وهو لا يخفى على العاقل الحصيف[2].

---

(١) لوامع الأنوار ج٢ ص١٥٩ الغُرْل: بضم الغين وإسكان الراء جمع أغرل وهو الأقلف.

وحديث البخاري في صحيحه ـ كتاب الرقاق ـ باب الحشر./ فتح الباري ج١١ ص٣٧٧.

وحديث مسلم في صحيحه ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ بيان فناء الدنيا وبيان الحشر ج٤ ص٢١٩٤.

(٢) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص١٥٨ ـ ١٥٩.

وعليه فإن المعاد الجسماني حق واقع، فصانع الساعة إذا جزأها إلى أجزائها الصغيرة هو قادر على إعادتها إلى ما كانت عليه، متقنة، تضبط الوقت بدقة، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، فالشك في البعث (الخلق الثاني) هو شك في قدرة الله تعالى على الخلق الأول، وفي كونه علة الوجود.

لا سيما إذا علمنا أن جسم الكائن الحي يتجدد ما بين وقت وآخر، فجسم الإنسان يستهلك حوالي ١٢٥ مليون خلية في الثانية الواحدة، ويحيا مثل هذا القدر محلها، وهذا يعني أن جسم الإنسان في تجدد ودورة مستمرة، من موت إلى حياة، وحياة إلى موت، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩] فجسم الإنسان يموت ويحيا في كل لحظة، فالقادر على إحيائه وإماتته على مرأى من العين في الدنيا، قادر على إحيائه بعد موته في حياة أخرى.

وهناك صورة أخرى حية تمثل لنا هذا الإحياء: يأتي الخريف فيجرد أوراق الأشجار... ثم تعود الحياة فيها في الربيع، وينزل الماء على اليابسة الجرداء فتهتز بالنبات، قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [قٓ: ١١].



الساعة

تعريف يوم الساعة:

هو ذلك اليوم العظيم الرهيب، الذي يضطرب فيه العالم، ويفسد نظامه، فتهلك جميع الأحياء.

أسماؤه:

وردت في القرآن الكريم أسماء عديدة منها:

يوم القيامة، يوم الدين، الطامَّة، الحاقَّة، الغاشِية، الواقعة، القارعة، الصاخَّة...

الساعة لا ريب فيها:

نفى الله سبحانه الرَّيْب والشك عن يوم القيامة، وأكد في آيات عديدة أن القيامة آتية، فقال تعالى:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣][١].

وهذا ما يقرره العلم الحديث، فقد قال الدكتور أدوارد لوثر كيسيل:

(هنالك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية... ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضُب فيها مَعِين الطاقة، ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيمياوية أو طبيعية، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون)[٢].

ويقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي:

(يؤكد علماء الفلك جميعاً أن الشمس (كأي نجم آخر) لا بد أن يعتريها ازدياد مفاجىء في حرارتها وحجمها وإشعاعها بدرجة لا تصدقها العقول، وعند ذلك يتمدد سطحها الخارجي بما حوى من لهب ودخان حتى يصل القمر، ويختل توازن المجموعة الشمسية كلها، وكل شمس في المساء لا بد أن تمر على مثل هذه الحالة قبل أن تحصل على اتزانها الدائم، ولم تمر شمسنا بالذات بهذا الدور بعد)[٣].

والظاهرة الأولى التي تنذرنا بإمكان القيامة هي الزلازل، فبطن الأرض شديدة الحرارة تؤثر على ظهرها بشكل بارز، فإما أن تتفجر الأرض بالحمم البركانية المدمرة، وإما أن تؤثر الزلازل الرهيبة في حياة الإنسان رغم تقدم العلم والتكنولوجيا، إذ لا يملك إزاءها شيئاً، فكثيراً ما طمست مدن بأكملها أو تساقطت الجدران بصوت مرعب، ولقي الملايين من الناس مصرعهم خلال ثوان معدودات، كما حدث في الصين والهند والبرتغال... ولا يستطيع الإنسان أن يتنبأ بموعدها، بل تأتيه بغتة، حتى قال عالم الجغرافية جورج جاموف: (نحن واقفون على ظهر لغم ـ ديناميت ـ عظيم، ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت، ليدمر النظام الأرضي بأكمله).

---

(١) وانظر الآيات في: طه ١٥ والحج ٧ والجاثية ٣٢.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ـ لجماعة من العلماء، ط٣، سنة ١٩٦٨، ص٢٧.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ١٦٥، ط٣. وانظر فيه: أقوال الدكتور فرانك ألن ص٥ والدكتور إيرفنج وليام نوباوتش ص٥٣ والأستاذ كلود م. هاثاوي ونيوتن وبولتزمان ص٩٠ ـ ٩١، وكلها تؤيد ما ذكرناه.

أليست تلك قيامة صغرى؟

هذا شأن الأرض أما حال الكون ففيه الأجرام السماوية والنجوم الجبارة العظيمة أشبه ما تكون بملايين القاذفات للقنابل النووية، تسير في الفضاء بسرعة خارقة، وليس بغريب مطلقاً ـ كما قرر علماء الفلك ـ أن تصطدم هذه الأجرام، فيتبدد هذا النظام بأكمله، وينفرط عقده.

وما رؤيتنا القيامة بصورتها الأولية إلا دليل واضح على أنها في حد الإمكان، وأنها آتية غداً لا ريب فيها[1].

علم الساعة عند الله:

أخفى الله سبحانه وتعالى العلم بموعد الساعة عن المخلوقات، فلا يعلمها ملَك أو نبي أو أي فرد من الناس، وهذا رد على دعوى بعض الجهلة أو الدجالين أن موعدها السنة الفلانية أو اليوم الفلاني...

وإنما أخفاها الله تعالى لأنه أصلح للعباد، لئلا يتباطؤوا عن التوبة والتأهب والاستعداد لليوم الآخر، كما أن إخفاء وقت الموت أصلح لهم[2].

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في آيات عديدة منها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤][3].

وفي حديث الإيمان والإسلام: سأل جبريل الرسول ﷺ: متى الساعة؟ قال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»**[4].

مجيء الساعة بغتة:

مجيئها بغتة، وسرعة قيامها كرجْع الطَّرف من أعلى الحدَقة إلى أسفلها أو هو أقرب، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ

---

(١) الإسلام يتحدى ص٧٤ ـ ٧٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٦٦.

(٣) وانظر الآيات: الأحزاب ٦٣ وفصلت ٤٧ والزخرف ٨٥ والنازعات ٤٢ ـ ٤٦.

(٤) متفق عليه. رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان./ اللؤلؤ والمرجان ص٢.

﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ [الأنبياء: ٤٠][1].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾ [النحل: ٧٧].

وفي حديث أبي هُريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**تقومُ الساعةُ والرجلُ يَحلُب اللِّقْحةَ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوبَ، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجُل يَلِط**[2] **في حوضه فما يَصْدُرُ حتى تقوم**» رواه مسلم.

يوم تقوم الساعة لا يقبل إيمان من كافر ولا معذرة:

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم: ٥٧].

ومَن أنكر الساعة فهو معتدٍ أثيم ونصيبه الخسران المبين في جهنم:

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان: ١١].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال ﷻ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ [المطففين: ١٠ - ١٢].

---

(١) وانظر الآيات: يوسف ١٠٧ والحج ٥٥ والزخرف ٦٦ ومحمد ١٨.

(٢) اللقحة: القريبة العهد بالولادة من الإبل والغنم.

يلط: يطين ويصلح.

والحديث من صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب قرب الساعة ج٤ ص٢٢٧٠.

أشراط الساعة:

أخبرنا القرآن الكريم بأن الساعة قد اقترب موعدها، في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١].

وقوله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١][1].

كما أخبرنا بأن أشراطها ـ أي علاماتها ـ قد جاءت.

وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

وهذا يفيد أن ما بقي من عمر العالم هو أقل مما مر.

ومن علاماتها التي أخبرنا بها القرآن الكريم: عمران الأرض، والتقدم العلمي بحيث يعتقد أهلها أنهم قادرون على التغيير بإرادتهم، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وقد بيَّن الرسول الصادق أمارات الساعة بأحاديث كثيرة جداً منها: ما ورد في صحيح مسلم واللفظ له، ورواه أبو داود والتِّرْمِذي وابن ماجه، عن حُذَيْفة بن أَسِيد الغِفَاري ﷺ (قال: اطَّلَع النبي ﷺ علينا ونحن نَتَذاكر، فقال: «**ما تَذاكرون؟**» قالوا: نذكُرُ الساعة، قال: «**إنها لن تقومَ حتى تَرونَ قبلها عشرَ آيات**»، فذكر: الدُّخانَ، والدجَّال، والدابَّة، وطلوعَ الشمس من مغربِها، ونزولَ عيسى بن مريم، ويأجوجَ ومأجوج، وثلاثةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالمشرِق، وخَسْفٌ بالمغرِب، وخَسْفٌ بجزيرةِ العرب، وآخرُ **ذلك**: نارٌ تخرجُ من اليَمَن، تطردُ الناسَ إلى مَحْشَرِهم).

هذه الآيات العظام علامة لانتهاء الدنيا وانقضائها.

وقد وردت أحاديث تشير إلى أن من علامات الساعة:

بعثة النبي محمد ﷺ، وموته، وفتح بيت المقْدِس، ورفع العِلم، وغلبة الجهل، واستيلاء أهله، وكثرة الزنا، وشرب الخمر، وقلة الرجال، وكثرة النساء، وضياع الأمانة، وإضاعة الصلاة، وأكل الربا، وإطالة البنيان، وزخرفة المساجد، وأمارة الصبيان، ولعن آخر الأمة أولها، وكثرة الهرج (القتل)، ونزول الفِتن كمواقع

---

(١) وانظر: الشورى ١٧ والنجم ٥٧.

القطر، وكثرة البلاء حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من كثرة البلاء، وهلاك هذه الأمة بعضهم ببعض...

فهذه العلامات قد تحقق بعضها، وبقي الآخر في طي الغيب يكشفه مرّ الدهور وتتابع الأيام.

وإخباره بها دليل على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام[1].

فعلينا أن نعتقد ونصدق بخبر الرسول الأعظم ﷺ، فكما أن بعض هذه العلامات قد تحقق، فإن بقيتها ستحقق لا محالة.

قال القرطبي:

(قال العلماء: والحكمة في تقديم الأشراط، ودلالة الناس عليها، تنبيه الناس على رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها)[2].

أهوال الساعة:

يرسم القرآن الكريم ليوم القيامة مشاهد الفظاعة، وهول المنظر، والبؤس، والشقاء، والخوف الذي يلقاه مَن كفر به، بصور مروعة مرهبة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾[3] [ق: ٢٠ ـ ٢٢].

والهول يشمل الأرض والسماء والحيوان والإنسان والصغار والكبار والجنة والنار، وكلها في موقف الانتظار والرهبة.

---

(١) راجع تفصيل هذه الأشراط والأحاديث الواردة فيها في: تذكرة القُرطبي ولوامع الأنوار البهية ج٢. ولفلظ حديث أشراط الساعة هذا، في صحيح مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ج٤ ص٢٢٢٥.

(٢) التذكرة للقرطبي ص٦٢٤.

(٣) حديد: نافذ، لزوال المانع للإبصار.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير: ١ - ١٤][1].

هول ترتجف له الأرض، وتندك الجبال، وتنفطر السماء، وتتفرق الجموع، ويشيب الولدان، وكلٌّ منشغل بنفسه، وهو: إما مؤمن مستبشر، وإما فاجر خيَّم عليه الذل والعبوس، يرسم ذلك القرآن الكريم في صور حية شاخصة، تتراءى للقارىء، فيتملاها، ويهتز لها الوجدان:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٧ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) التكوير: لف ضوء الشمس، فذهب انبساطه في الأفق، وزال أثره.
انكدرت: زالت وانقضت، أو أظلمت.
العشار: النوق اللاتي أتى على حملهن عشرة أشهر.
عطلت: تركت مهملة.
حشرت: جمعت.
سجرت: فجرت حتى تصير بحراً واحداً، أو تفجرت بالنار من باطن الأرض، أو تحت شرر كهربائي شديد، كما يحدث في البراكين.
زوجت: أي قرنت النفوس بالأبدان، أو كل منها بشكلها، أو بكتابها وعملها.
وإذا الصحف نشرت: صحف الأعمال، فإنها تطوى عند الموت، وتُنشر عند الحساب.
كشطت: قلعت وأزيلت، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة.
أُزلفت: قربت من المؤمنين.

وقال عزّ وعلا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٤ ـ ٥].

وقال جلّ وعز: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٤٢].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦][1].

* * *

الصور

تعريفه:

هو قرْن كالبوق، ينفخ فيه إسرافيل، حين يأذن الله تعالى بقيام الساعة.

أخرج التِّرْمِذي عن عبدالله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصُّور؟ قال: «**قَرنٌ يُنفخ فيه**» قال: حسن صحيح[2].

قال مجاهِد: الصور كالبوق. ذكره البُخاري.

والنفخ في الصور هو: نفخة البعث والنشور.

عدد النفخات:

اختلفوا في عدد النفخات على قولين:

القول الأول:

ثلاث نفخات: وهو اختيار ابن العَرَبي وغيره.

النفخة الأولى: وهي نفخة الفزع، وهي التي يتغير بها هذا العالم، ويفسد نظامه، فيفزع أهل السماوات والأرض لشدة هولها، فتذهل المراضع، وتشيب

---

(١) انظر هذه الصور وأمثالها في كتاب: مشاهد القيامة في القرآن ـ سيِّد قطب.

(٢) سنن الترمذي ـ كتاب صفة القيامة ـ باب ما جاء في شأن الصور ج٧ ص١٤٥.

الولدان، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧].

النفخة الثانية: وهي نفخة الصعق، وفيها هلاك كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزُّمر: ٦٨].

وفسروا الصعق بالموت.

أخرج مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟**»[١].

النفخة الثالثة: وهي نفخة البعث والنشور والقيام لرب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

القول الثاني:

نفختان. ونفخة الفزع هي نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لها، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، وهو الذي صححه القُرطبي، بدليل:

أ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفخَتين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أبَيْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبَيْتُ.. رواه مسلم[٢].

ب ـ رواية ابن المبارك عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين النفختين أربعون سنة، الأولى: يميت الله تعالى بها كل حي، والأخرى: يحيي الله بها كل ميت**».

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب المنافقين ـ صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) أي: أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يوماً أو شهراً أو سنة، بل الذي أجزم أنها أربعون مجملة. والحديث في صحيح مسلم ـ كتاب الفتن ـ باب ما بين النفختين ج٤ ص٢٢٧٠ وصحيح البخاري بلفظ مقارب/ إرشاد الساري ج٧ ص٣٢٣.

جـ ـ الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الوارد في الآيتين: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ . . .﴾ و﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ . . .﴾ دال على أنهما واحدة.

قال الحَليمي: اتفقت الروايات على أن ما بين النفختين أربعون عاماً، بدليل الحديث المتقدم.

قال المفسرون: المنادي هو إسرافيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينفخ في الصور[١].

* * *

الحشر

تعريفه وأدلته:

الحَشْر في أصل اللغة: الجمع[٢]. يقال: حشرت الناس إذا جمعتهم. والمقصود من حشر الآخرة هو:

١ ـ حشر الأموات من قبورهم بعد البعث جميعاً. أي: جمع أجزاء الميت بعد التفرقة[٣]، ثم إحياء الأبدان بعد موتها. وهذا يرادف البعث والنشور في المعنى.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٤].

سِراعاً: أي إلى المنادي صاحب الصور.

يَسير: هين سهل.

وفي حديث مسلم:

عن سهْل بن سعْد قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُحشر الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاء عَفراء كقُرْصَةِ النَقي، ليس فيها عَلَم لأحد»**[٤].

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/١٦١ وما بعدها، تذكرة القرطبي ١٦٥ ـ ١٨٥.

(٢) القاموس المحيط والمختار من صحاح اللغة مادة (حشر).

(٣) انظر الخلاف بين المتكلمين: هل الحشر هو إيجاد بعد فناء؟ أو جمع بعد تفرق؟ مع بيان الأدلة في المقاصد وشرحه ٢/٢١٥ ـ ٢١٨.

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب في البعث والنشور ج٤ ص٢١٥٠.

وفي حديث مسلم:

عن ابن عباس ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «**يا أيها الناس إنكم تُحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً**» ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤][1].

٢ ـ حشرهم إلى موقف الحساب، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

٣ ـ حشرهم إلى الجنة والنار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾[2] [الفرقان: ٣٤].

وقال بعضهم: إن الحشر إذا أطلق يراد به شرعاً الحشر من القبور ما لم يخصه دليل[3].

فإذا قيل: إن كانت الصيحة للخروج ـ في الآية ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [قٓ: ٤٢] فكيف يسمعونها وهم أموات؟

أجيب: بأن نفخة الإحياء تمتد وتطول، فتكون أوائلها للإحياء، وما بعدها للإزعاج من القبور، فلا يسمعون ما يكون للإحياء، ويسمعون ما كان للإزعاج.

ويحتمل: أن تتطاول تلك النفخة، والناس يحيون منها أولاً فأولاً، وكلما حيا واحد سمع ما يحيى به من بعده، إلى أن يتكامل الجميع للخروج[4].

حكم الإيمان به:

الإيمان به واجب، للنصوص الواردة فيه.

وهذا ما هو عليه أهل السنة وجمهور المعتزلة[*].

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب فناء الدنيا وبيان الحشر ج٤ ص٢١٩٤.

(٢) التذكرة للقُرطبي ٢٠١ وما بعدها، ولوامع الأنوار البهية ٢/١٤٥ ـ ١٥٥، والمسامرة لابن أبي شريف على المسايرة للكمال بن الهُمام (مطبعة السعادة بمصر) ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٣) لوامع الأنوار البهية للسَّفَّاريني ٢/١٥٥.

(٤) التذكرة ٢٠٢.

(*) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٧٠.

العرض والحساب

العرض:

إذا بُعث الناس من قبورهم إلى الموقف وقاموا فيه ما شاء الله، يعرضون على الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ... يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩][١].

---

(١) شرح العقيدة الطَّحاوية ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

ثبت بالدليل القطعي في العلم الحديث: أن الأصوات تحرك موجات الأثير، فتبقى إلى الأبد، ومن الممكن سماعها مرة أخرى، إلا أن الصعب هنا هو التمييز بين الأصوات الكثيرة ـ القديمة والحديثة ـ وإن كان هناك احتمال قوي جداً اختراع الأجهزة الكفيلة بالتمييز بين هذه الأصوات.

وليس ذلك بغريب، إذ أن آلاف المحطات الإذاعية في العالم التي تذيع ليل نهار برامجها الكثيرة، والتي تمر موجاتها في الفضاء بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميل بالثانية يمكن التمييز بين واحدة وأخرى حين يفتح المذياع ويدار مفتاحه على المحطة المطلوبة. كما أن تسجيل الأصوات والأشرطة الآن على آلة التسجيل يصلح أن يكون مثالاً لما يحدث في الآخرة.

كما أن العلم الحديث يؤكد بأن جميع أعمالنا التي نباشرها في الضوء أو الظلمة، فرادى أو مع الناس، وحتى الأشياء سواء كانت متحركة أم جامدة، تصدر عنها (حرارة) بصفة دائمة في كل مكان، وفي كل حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً، وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن، حينما خرجت منه الموجات الحرارية. وذات ليلة حلّقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك، فصوّروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها.

فإذا أكد العلم الحديث تسجيل الأقوال والأفعال في الفضاء، فلا تبقى مرية لمرتاب في أمر حساب الله تعالى للناس، ونشر سجلاتهم أمامهم يوم القيامة، لينالوا جزاء ما فعلوه، فيرى حياته كقصة مصورة على فيلم كامل، تتجلى فيها حركاته القلبية واللسانية والعضوية مسجلة بآلات تصوير=

وعرض الناس هذا يكون ثلاث عرضات، بينتها الأحاديث الشريفة، منها: ما أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله**»[1].

ورواه ابن ماجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ولفظه:

«**وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله**»[2].

وأخرجه البَيْهقي من حديث ابن مسعود ﷺ، ولفظه: «**وأما العرضة الثالثة: فتطاير الكتب في الأَيمان والشمائل**».

فتطاير الصحف في اليمين والشمال، هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

قال ابن عباس: طائره عمله.

وقال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه، أُمِّيًا كان أو غير أُمِّي.

الحساب:

فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتونها بعد البعث، حوسبوا بها، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٨].

والمحاسبة تكون عند إتيان الكتب، لأن الناس إذا بُعثوا لا يكونون ذاكرين لأعمالهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

= أوتوماتيكية سريعة على صفحة الفضاء في كل حين ليلاً أو نهاراً، قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] ويقول هؤلاء في ذلك اليوم: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] انظر: الإسلام يتحدى ص٨٠ ـ ٨١.

(١) سنن التّرمذي ـ كتاب: صفة القيامة ـ باب ما جاء في العَرْض ج٧ ص١٤١.

(٢) سنن ابن ماجة ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر البعث ج٢ ص١٤٣٠.

ما يُسأل عنه:

وعند الحساب يُسأل العبد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] أي: يُسأل عن ذلك، ويجازى.

وأخرج التِّرمذي عن أبي بَرْزَة الأسْلَمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبدٍ يومَ القيامة حتى يُسأل: عن عُمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه»**[1].

شهادة الجوارح عليه:

وحين يُسأل العبد عما اقترف في دنياه، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده تبكيتاً.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

الحكمة من الحساب:

ومحاسبة الله تعالى لخلقه هي إعلامهم بما لهم وما عليهم، فيؤتى السعداء كتبهم بيمينهم، ويؤتى الأشقياء كتبهم بشمالهم، أو وراء ظهورهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[2] [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) سنن الترمذي - كتاب، صفة القيامة - باب في القيامة ج٧ ص١٣٦ وقال: حسن صحيح.

(٢) التذكرة ٢٥٣ وما بعدها، لوامع الأنوار البهية ١٧١/٢ و١٨٠ - ١٨١.

أنواع الحساب:

منه: اليسير والعسر، والسر والجهر، والتوبيخ والفضل والعدل.

قال بعض العلماء: ذكر الله تعالى الحساب جملة، وجاءت الأخبار بذلك، وفي بعضها ما يدل على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، فصار الناس إذاً ثلاث فِرَق: فرقة لا يحاسَبون أصلاً، وفرقة تحاسَب حساباً يسيراً، وهما من المؤمنين، وفرقة تحاسَب حساباً شديداً يكون منها مسلم وكافر. وإذا كان من المؤمنين مَن يكون أدنى إلى رحمة الله، فيدخل الجنة بغير حساب، فلا يبعد أن يكون من الكافرين مَن يكون هو أدنى إلى غضب الله، فيُدخله النار بغير حساب[1].

حكم الإيمان به:

الإيمان بالحساب واجب. لأنه حق ثبت بالكتاب والسنّة والإجماع[*].

❊ ❊ ❊

الحوض

أدلته ووصفه:

الحوض الذي يعطاه النبي ﷺ في الآخرة ثابت بالأحاديث الصحيحة.

والأحاديث الواردة في ذكر الحوض ووصفه تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً، استقصاها ابن كثير في آخر تاريخه البداية والنهاية منها:

عن أبي ذَرّ قال: قلت: يا رسول الله: ما آنية الحوض؟ قال:

«والذي نفسُ محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبِها، ألا في الليلة المظلِمة المُضحِية، آنيةُ الجنة مَن شَرِبَ منها لم يظمأ آخرَ ما عليه، يَشْخُبُ فيه مِيزابان من الجنة، مَن شرب منه لم يظمأ، عَرْضُه مِثل طُولِه، ما بين عَمَّان إلى أَيْلَةَ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» رواه مسلم[2].

---

(١) التذكرة ٢٨٦، والباجوري على الجوهرة ج٢ ص٧٣ ـ ٧٤.

(*) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص٢٢٧.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ وصفاته ج٤ ص١٧٩٨.

وعن عبدالله بن عَمْرو بن العاصِ قال: قال رسول الله ﷺ:

«حوضي مسيرةُ شهر، وزواياه سَواء، وماؤه أبيضُ من الورِق، وريحه أطيب من المِسك، وكِيْزانه كنجوم السماء، فمَن شرِب منه فلا يظمأ بعده أبداً» أخرجه مسلم[1].

وعن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذاتَ يوم بين أظْهرِنا، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسَه متبسِّماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **«أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ»** فقرأ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: **«أتدرون ما الكوثر؟»** فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **«فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فَيُخْتَلَجُ العبدُ منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدثتْ بعدك»** رواه مسلم[2].

والذي يؤخذ من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: **«إنه حوض عظيم، ومورِد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء»**[3].

أما ثبوته بالقرآن الكريم في سورة الكوثر فهو احتمال وليس بصريح، لأن العلماء اختلفوا في تفسير الكوثر، هل هو الحوض، أو الخير الكثير، أو النهر الذي في الجنة[4]؟

مَن يطرد عن الحوض:

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليردنّ عليّ ناس من أصَحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم، اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[5].

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ وصفاته ج٤ ص١٧٩٣.

(٢) التذكرة ٣٠٣ ـ ٣٠٤. وشرح العقيدة الطَّحَاوية ص١٨٨ ـ ١٨٩. وحديث أنس في صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب حجة مَن قال: البسملة آية من كل سورة، سوى براءة ج١ ص٣٠٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١٨٩.

(٤) انظر: الأقوال العديدة في المراد بالكوثر في تفسير القرطبي ج١٠ ص٧٣٠٦ ـ ٧٣٠٨.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب في الحوض / فتح الباري ج١١ ص٤٦٤.

وأخرج مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنّي على الحوض حتى أنظرَ مَن يرِد عليّ منكم، وسيُؤخذ أناس دوني، فأقول: يا ربِّ مني ومن أمتي. فيقال: أما شَعَرْتَ ما عملوا بعدَك؟ والله ما برِحُوا بعدكَ يَرجِعون على أعقابِهم**»[1].

قال العلماء:

فكل مَن ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه[2].

حكم الإيمان به:

الإيمان بالحوض واجب، فيثاب عليه مَن صدّق به، ويبدّع ويفسّق جاحده. وهو مذهب الجمهور. لما مر من الأحاديث الصريحة بإثباته.

وفي ذلك ردّ على المعتزلة الذين نفوه[3].

* * *

الميزان

تعريف الوزن والميزان:

الوزن في أصل اللغة: معرفة كمية بأخرى على وجه مخصوص[4].

والميزان في اللغة: معروف.

أما في الاصطلاح فقد اختلفوا فيه على قولين:

الأول: إن الله تعالى ينصب ميزاناً، له لسان وكفتان يوم القيامة، توزن به أعمال العباد خيرها وشرها. وهذا قول الجمهور. لظاهر الأحاديث الواردة في ذلك.

الثاني: الميزان هو العدل والقضاء في تقدير ما به يكون الجزاء على الأعمال، لأن حمل الوزن على هذا المعنى شائع في اللغة. وهذا هو قول مجاهد والضحاك والأعمش.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ج٤ ص١٧٩٤.

(٢) التذكرة ٣٠٦ ولوامع الأنوار البهية [illegible].

(٣) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص [illegible].

(٤) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص [illegible].

وذهب المعتزلة إلى أن الميزان هو العدل، لأن الأعمال عندهم هي أعراض، والأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بنفسها[1].

لذلك تساءلوا:

كيف يتصور وزن الأعمال وهي أعراض، والأعراض لا توصف بالخفّة والثقل؟ ويمكن أن يجابوا بما يأتي:

إن جسم الإنسان وغيره من الجواهر على الأرض له وزن معين، وذلك بتأثير الجاذبية الأرضية، ولكن حين ينفصل عن جاذبية الأرض - كأن يكون في القمر - ينعدم وزنه كما هو معروف. فالجسم في القمر مثلاً ليس له وزن، وفي الأرض له وزنه. كذلك الأعمال وهي أعراض في الدنيا لا وزن لها، لكن لا مانع من أن تقلب في الحياة الآخرة أجساماً فتوزن.

يؤيد هذا:

أ - ما روي عن ابن عباس ﷺ: أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساماً، فيَزِنُها يوم القيامة.

ب - وما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**يُؤتَى بالموت كبشاً أغثر، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبُّون وينظرون. ويقال لأهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفَرج، فيُذبح. فيقال: خلوداً لا موت**» والحديث صحيح[2].

فالموت وهو عَرض في الدنيا يُقلَب جسماً في الآخرة ويُذبح، فكذلك الأعمال.

محله:

قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها.

---

(١) رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص١١٤.

(٢) التذكرة ص٣١٣ وشرح المواقف ص٥٩٣. والحديث في مسند أحمد ج٢ ص٤٢٣.

أدلته:

والميزان ثابت بالقرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم ..﴾ [المؤمنون: ١٠٣، والأعراف: ٩].

وثبت بالسنّة النبوية الصحيحة[١] كما سيأتي:

الموزون:

اختلف العلماء في ما يوزن، تبعاً لاختلاف الأحاديث الواردة فيه على أقوال:

القول الأول: صحف الأعمال: وهو ما صححه القُرطبي وابن عبدالبَر، وصوَّبه الشيخ مرعي، وذهب إليه جمهور من المفسرين بدليل:

أ ـ عن عبدالله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلاً، كلَ سِجِل مثل مَد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذرٌ؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلمَ عليك اليوم. فتخرج له بِطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كِفة، والبِطاقة في كِفة، فطاشت السجلات، وثقُلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء» رواه التِّرْمِذي[٢].

وأخرجه ابن ماجه في سننه وقال في أول الحديث: «**يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق**»[٣].

---

(١) التذكرة ٣٠٩، لوامع الأنوار البهية ١٨٤/٢ نقلاً عن التذكرة، شرح الطحاوية ٤١٠.

(٢) سنن الترمذي ـ أبواب الإيمان ـ باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. ج٧ ص٢٩٥ وقال: حسن غريب.

(٣) سنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج٢ ص١٤٣٧.

ورواه ابن حِبّان في صحيحه والحاكم والبَيْهقي، وقال الحاكم على شرط مسلم.

قال محمد بن يَحْيى: البِطاقة: الرُّقْعَة، وأهل مِصْرَ يقولون للرقعة: بِطاقة.

ب ـ أن الرسول ﷺ سئل عما يوزن يوم القيامة، فقال: «**الصحُف**»[1].

جـ ـ قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال[2].

القول الثاني: **العامل**: بدليل:

أ ـ حديث البطاقة السابق الوارد بلفظ آخر: «**توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة...**» الحديث.

ب ـ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السَّمين يوم القيامة، لا يَزِنُ عندَ الله جناح بعوضة**» وقال: «**اقرؤوا** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]» رواه البخاري[3].

جـ ـ عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يَجْتني سِواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «**مِمّ تضحكون؟**» قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد**» وهو حديث حسن، رواه الإمام أحمد في مسنده[4].

القول الثالث: **الأعمال**: بدليل:

أ ـ عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**» أخرجه مسلم[5].

ب ـ قال الرسول ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» أخرجه البخاري وغيره[6].

---

(١) لوامع الأنوار البهية ١٨٧/٢.

(٢) التذكرة ٣١٣.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب أولئك الذين كفروا بآيات ربهم./ فتح الباري ج٨ ص٤٢٦.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ٤١١ ـ ٤١٢. وحديث ابن مسعود في مسند الإمام أحمد ج١ ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٥) صحيح مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء ج١ ص٢٠٣.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية السابق.

الحكمة من الميزان:

هي إظهار العدل وبيان الفضل، حيث أنه يزن مثاقيل الذَّرّ من خير وشر[١]، فهو علامة لأهل السعادة والشقاوة، وبه يعرف العباد ما لهم وما عليهم من الخير والشر، فتقام الحجة عليهم[٢].

كيفية الوزن:

ويكون بمقابله الحسنات بالسيئات، كلٌّ في كِفّة[٣] في قول الجمهور.

لمَن يكون الوزن؟

توزن أعمال مَن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين، لينال كل جزاءه.

وتوزن أعمال المؤمنين المتقين لإظهار فضلهم.

أما السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ـ كما ورد في الحديث ـ فلا ترفع لهم ميزان. ولا يأخذون صحُفاً، وإنما هي براءات مكتوبة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءة فلان بن فلان، قد غفر له، وسعد سعادة لا يشقى بعدها.

وتوزن أعمال الكافرين، إظهاراً لخزيهم وذلهم، وتبكيتاً على خلوهم من كل خير[٤].

حكم الإيمان به:

الإيمان به واجب، لثبوته بالكتاب والسنة كما تقدم[٥].

❊ ❊ ❊

= والحديث في: صحيح البخاري ـ كتاب الأيمان والنذور/ إرشاد الساري ج٩ ص٣٩٧، وصحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ج٤ ص٢٠٧٢ ومسند أحمد ج٢ ص٢٣٢ وسنن الترمذي ـ باب الدعاء/ عارضة الأحوذي ج١٣ ص١٦ وابن ماجه ـ كتاب الأدب ـ فضل التسبيح ج١ ص١٢٥١.

(١) المصدر السابق ٤١٣، لوامع الأنوار البهية ١٨٨/٢.

(٢) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٨٠.

(٣) التذكرة ٣١٢.

(٤) التذكرة ٣١١ و٣١٥.

(٥) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

الصراط

تعريفه:

الصِّراط لغة: الطريق الواضح. من سرطت الشيء إذا ابتلعته (بالصاد والسين) لأنه يبتلع المارّة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

واصطلاحاً: جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار[1].

أدلته:

وقد ثبت الصراط بآيات منها:

أ ـ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ [يس: ٦٦].

ب ـ ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢] أي: واردو النار.

وبأحاديث كثيرة منها:

الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ، ومنه:

«ثم يُضرب الجِسْرُ على جهنم، وتَحِلُّ الشفاعةُ، ويقولون: اللهم سلِّمْ سلِّمْ» قيل: يا رسول الله، وما الجِسْرُ؟ قال: **«دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، فيه خطاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَكٌ، تكون بنجْد فيها شُوَيكة، يقال لها السَعْدان، فيمر المؤمنون كطَرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخَيل والرِّكاب، فنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ومخدوش مُرْسَلٌ، ومَكْدُوسٌ في نارِ جهنمَ»**[2].

وحين يمر المؤمنون على الصراط يعطون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم مَن يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم دون ذلك، كما أشار إلى ذلك الحديث

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/١٨٩.

(٢) التذكرة ٣٣١. والحديث في صحيح مسلم ـ كتاب الأيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية ج١ ص١٦٩.

الصحيح الذي رواه البيهقي وصححه الحاكم على شرط الشيخين[1].

وصف الصراط:

قال أبو سعيد الخُدْرِي ﷺ: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشَّعْر، وأحَدُّ من السيف[2].

وذهب بعض المتكلمين كالقرَافي والعِزّ بن عبدالسلام إلى تأويل هذا الوصف، فقالوا:

أ ـ أنه راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى، وقد جرت العادة بضرب دقة الشعر مثلاً للغامض الخفي، وضرب حد السيف لإسراع الملائكة في المضي، لامتثال أمر الله وإجازة الناس عليه.

ب ـ وهذا الوصف مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه، وأن فيه كلاليبَ وحسكاً، أي: أن مَن يمر عليه يقع على بطنه، ومنهم مَن يَزِلّ ثم يقوم. وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطىء للأقدام، ودقة الشعر لا يحتمل هذا كله.

وقال القَرافي تَبَعاً للبَيْهقي:

(كون الصراط أدقّ من الشعر، وأحَدّ من السيف، لم أجده في الروايات الصحيحة، وإنما يروى عن بعض الصحابة)[3].

ورد هذا القول الإمام القرطبي فقال:

(وهذا مردود بما ورد من الأخبار، وأن الإيمان يجب بذلك، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر أن يمسك عليه المؤمن، فيجريه أو يمشيه. ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة، ولا استحالة في ذلك للآثار الواردة في ذلك، وبيانها بنقل الأئمة العدول، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)[4].

الصراط صراطان:

ذكر العلماء أن في الآخرة صراطين:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٢) التذكرة ٣٣١. وهو في صحيح مسلم ـ كتاب الأيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية ج١ ص١٧١.

(٣) التذكرة ٣٣٣، لوامع الأنوار البهية ٢/١٩٣.

(٤) التذكرة السابق، لوامع الأنوار البهية ٢/١٩٤ نقلاً عن التذكرة، وانظر: شرح المقاصد ٢/٢٢٣، شرح المواقف للسيد الشريف ٥٩٢. وإحياء علوم الدين ج١ ص١٢٠.

الأول: مجاز لأهل الحشر كلهم، ثقيلهم وخفيفهم، إلا مَن دخل الجنة بغير حساب، أو مَن يلتقطه عنق النار، ولا يخلص منه المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم، فيحبسون على صراط آخر ثان، بين الجنة والنار، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله، لأنهم قد عبروا الصراط الأول، المضروب على متن جهنم، الذي يسقط فيها مَن أَوْبَقَه ذنْبُه، وأرْبَى على الحسنات بالقِصاص جُرمُه.

أخرج البخاري: . . . عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلصُ المؤمنون من النار، فيُحْبَسُون على قَنطرة بين الجنة والنار فيُقَصُّ لبعضهم من بعض، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونَقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**».

ذكر الدارَقُطْني حديثاً ذكر فيه: أن الجنة بعد الصراط.

قال القُرطُبي: ولعله بعد القنطرة، بدليل حديث البُخاري[1].

حكم الإيمان به:

الإيمان به واجب، لما تقدم من الأدلة الصريحة[*].

❊ ❊ ❊

الجنة والنار

مرّ بنا أن الإنسان يُبعث من القبر بعثاً جسمانياً ـ بروحه وجسده ـ فيتنعم المؤمن، ويتألم، ويحزن الكافر، فيشهد مشاهد القيامة، حتى ينتهي إلى مكان عقابه أو ثوابه الأخير، وهو الجنة أو النار.

وقد صورتهما نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، بما يقطع أن لهما كياناً مادياً محسوساً، لكن صورة ذلك الكيان مقربة إلى تفكير الإنسان في الحياة الدنيا

---

(١) التذكرة ٣٣٨ ـ ٣٣٩، لوامع الأنوار البهية ١٨٩/٢.

وحديث البخاري في صحيحه ـ كتاب الرقاق ـ باب القصاص يوم القيامة./ فتح الباري ج١١ ص٣٩٥.

(*) شرح عبدالسلام على الجوهرة ص٢٣٥.

على سبيل المثال، ليعلم مدى العذاب أو اللذة الجسدية والروحية فيهما، وإلا فإن الجنة والنار أوسع وأكبر مما يتصوره عقل الإنسان في حياته الدنيا، بدليل:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يقول الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، ذُخراً بَلْهَ** (أي: غير أو دَعْ) **ما أطلعكم الله عليه**» ثم قرأ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] أخرجه مسلم[(١)].

وحديث أبي سعيد الخُدري وأبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسوا أبداً**» فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] رواه مسلم[(٢)].

وهنا أُبين ما ذكره القرآن الكريم خاصة من أوصاف لهما ولأهلهما، ترغيباً بالجنة ونعيمها وترهيباً من النار وفظاعة عذابها.

❊ ❊ ❊

النار

أهل النار:

أعدّ الله سبحانه وتعالى النار، عقاباً للذين لم يعملوا بما أمر الله تعالى، ولم ينتهوا عما نهى عنه في الحياة الدنيا، وقد وصفهم القرآن بأوصاف هي:

١ ـ الكافرون:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤].

---

(١) صحيح مسلم ـ بداية كتاب الجنة ج٤ ص٢١٧٥.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة ـ باب في دوام نعيم أهل الجنة ج٤ ص٢١٨٢.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١][(١)].

٢ ـ المكذبون بآيات الله المتكبرون عن سماعها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت: ٢٨].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١][(٢)].

٣ ـ المنافقون:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٨].

٤ ـ المجرمون:

قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزخرف: ٧٤].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: ٤٧].

٥ ـ الغاوون:

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩١].

٦ ـ الظالمون:

قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

٧ ـ الطاغون:

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) وانظر أيضاً: البقرة ٢٤ وآل عمران ١٣١ والمائدة ١٠ والأنعام ٧٠ ويونس ٤ والإسراء ٨ والحج ٧٢ والعنكبوت ٦٨ وفاطر ٣٦ وغافر ٦ والملك ٦ والبيّنة ٦.

(٢) وانظر أيضاً: المائدة ١٠ والزمر ٦٠ والمرسلات ٣٤ والنبأ ٢٨.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

٨ ـ المؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

٩ ـ الفجار:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ [الانفطار: ١٤ ـ ١٥].

١٠ ـ الفاسقون:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

١١ ـ المعادون لله ولرسوله:

قال تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٣].

١٢ ـ مَن خفّت موازينه (أي طاشت كفة حسناته أمام كِفَّة السيئات الراجحة، في ميزان يوم القيامة):

قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

أوصاف النار وحال أهلها في القرآن الكريم:

١ ـ تعرض جهنم على الكافرين يوم القيامة فتظهر بارزة لهم:

قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف: ١٠٠].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦].

٢ ـ تسع جهنم مستحقيها من الجن والإنس:

قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩، والسجدة: ١٣].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

٣ ـ لها أبواب:

قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢، وغافر: ٧٦].

٤ ـ لها خَزَنةٌ تعنفهم وتذيقهم أصناف العذاب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

٥ ـ عليها ملائكة فيهم الغلظة والشدة:

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٣٠].

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١].

٦ ـ مبنية على أعمدة وموصدة الأبواب:

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ٨ ـ ٩].

٧ ـ لها سرادق (حائط من نار):

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

٨ ـ لها طبقات طبقة فوق أخرى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

٩ ـ جوُّها لا يطاق، فحرّ نارها ينفذ إلى المسام، ودخانها أسود، لا يُخفف حرّها، بل يزيد فيه:

قال تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾[١] [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤].

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٣ ـ ٩٤].

١٠ ـ وجهنم موقدة حامية:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ [التكوير: ١٢].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١].

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ [الهمزة: ٦].

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٤].

١١ ـ وشررها عظيم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣].

١٢ ـ تزداد سعيراً كلما خبت:

قال تعالى: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

١٣ ـ لها أصوات منكرة مرعبة:

قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧ ـ ٨].

١٤ ـ وهي شديدة، لا تبقي شيئاً إلا أهلكته:

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٢٨].

١٥ ـ وأهلها يحشرون، ليميز الله الخبيث من الطيب:

---

(١) سموم: حر ينفذ إلى المسام.
يحموم: دخان أسود.
كريم: نافع.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧].

١٦ ـ ويعرضون على النار، فينظرون الهول من طرف خفي، رعباً وخشية:

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

١٧ ـ لا يفلت منها أحد:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

١٨ ـ ويلقون فيها من مكان ضيق مقرَّنين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

١٩ ـ وقودها الناس والحجارة:

قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨].

٢٠ ـ تتسلط على الأفئدة:

قال تعالى: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: ٧].

٢١ ـ وعذابهم فيها متواصل:

قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥].

٢٢ ـ ولهم فيها ألوان العذاب الأليم:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾[1] [النساء: ٥٦].

---

(١) يقول الطب الحديث: إن الجسم يتكون من جِلْد وأدَمة. والجلد هو موضع الإحساس، أما الأدَمة فلا إحساس بها. وهذا من مواضع الإعجاز العلمي للقرآن.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٠، ويونس: ٤].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة: ٢٠ ـ ٢١].

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [فصلت: ٢٧].

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾ [النبأ: ٣٠].

٢٣ ـ لا صبر ولا طاقة لهم بالعذاب:

قال تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [الطور: ١٦].

٢٤ ـ الزبانية يسحبونهم في الحميم والنار والأغلال في أعناقهم ويضربون بمقامع من حديد:

قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ [غافر: ٧١ ـ ٧٢].

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩].

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤)﴾ [ق: ٢٤].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٤].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر: ٤٨].

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة: ٣١ ـ ٣٢].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢١].

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ [المزمل: ١٢].

٢٥ ـ لهم فيها زفير وشهيق:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٦].

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٠].

٢٦ ـ تلفح النار وجوههم وتقلب فيها:

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٢٧ ـ تنزع الأطراف وجلدة الرأس وتحرق البشرة وتسوّدها:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٦][1].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[2] [المدثر: ٢٩].

٢٨ ـ فراشهم وغطاؤهم من النار:

قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦].

٢٩ ـ ملابسهم من نار:

قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ[3] وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

٣٠ ـ الذين يكنزون الذهب والفضة يعذّبون بما كنزوا:

---

(١) لظى: لهب.
الشوى: الأطراف أو جلدة الرأس.

(٢) لوّاحة: مسوّدة لأعالي الجلد.

(٣) القطران: ما يطلى به الإبل الجَرْبَى فيحرق الجَرَب، وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٥].

٣١ ـ طعامهم من شجر الزقوم، يخرج من أصل الجحيم، وهو شجر صغير الورق، دَفِر، مُرّ الطعم، وثمره نار، يضطرهم الجوع إلى أكله، لعدم وجود غيره، فيحرق معدهم، وشرابهم من المُهْل، وهو دُرْدِيّ[1] الزَّيت، أو ما يمهل في النار، حتى يذوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦].

﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[2] [الواقعة: ٥٢ ـ ٥٥].

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾[3] لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧].

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٧][4].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾[5] لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٦ ـ ٧].

٣٢ ـ شرابهم الحميم (الماء المغلي)، والغساق (صديد أهل النار)، فتقطع الأمعاء من شدة حرارته:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن

---

(١) دردي الزيت: ما يبقى في أسفل إناء الزيت بقوامه الغليظ ولونه الأحمر.
والدَّفر: النتن.

(٢) الهيم: الإبل.

(٣) حميم: قريب.
غسلين: غسالة أهل النار وصديدهم.

(٤) طلعها: ثمرها.
كأنه رؤوس الشياطين: في تناهي القبح والهول.
شوباً: شراباً أو صديداً مشوباً بالحميم.

(٥) ضريع: شيء في النار كالشوك مُرّ مُنتن.

﴿مَآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٥ ـ ١٧].

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الأنعام: ٧٠، ويونس: ٤].

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٤].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٢٥].

٣٣ ـ ويستغيثون، يطلبون الماء من شدة العطش، فيغاثون بماء كالمهل:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٥].

٣٤ ـ وحرّم عليهم طعام وشراب أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠].

٣٥ ـ مصير أهل النار التعاسة والخزي وبئس المصير:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤][1].

٣٦ ـ ويتمنون الرجوع إلى الحياة الدنيا، حين يقفون على العذاب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ . . .﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧ ـ ١٠٨].

---

(١) وانظر أيضاً: التوبة ٧٣ والرعد ١٨ والحج ٧٢ والفرقان ٦٦ والزمر ٧٢ وغافر ٧٦ والحديد ١٥ والمجادلة ٨ والملك ٦.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢٢].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ[١] فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤].

٣٧ ـ ويدعون الله ليصرف العذاب عنهم أو يخففه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩].

٣٨ ـ ويتمنون الموت، ليتخلصوا من العذاب، وأنّى لهم ذلك:

قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

٣٩ ـ ولا ينصرهم أحد، وإن طلبوا النصرة:

قال تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٥].

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ١٩].

٤٠ ـ ويعترف المذنبون بذنبهم، فينالون قسطهم من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

٤١ ـ وهم فيها خالدون:

قال تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩][٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: ١٦٢][٣].

---

(١) يصطرخون: يستغيثون بالصراخ.

(٢) وانظر الآية أيضاً في: البقرة ٨١ و٢١٧ و٢٥٧ و٢٧٥ وآل عمران ١١٦ والأعراف ٣٦ ويونس ٢٧ والرعد ٥ والمجادلة ١٧.

(٣) وانظر الآية أيضاً في: التوبة ٦٨ وهود ١٠٧ والنحل ٢٩ والزمر ٧٢ وغافر ٧٦ والتغابن ١٠ والبينة ٦.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩][1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٦٢، آل عمران: ٨٨].

﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾[2] [النبأ: ٢٣].

قال المفسرون يراد بالخلود في النار: المكث الطويل بحق المسلمين والمؤمنين بالله، والمكث الأبدي بحق غير هؤلاء، وقيل: غيره.

٤٢ ـ وبعضهم يلعن الآخر ويتهمه بأنه سبب ضلاله، ودخوله النار، فيدعو الله أن يضاعف له العذاب:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩].

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٧].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

٤٣ ـ ويخاطب أهل الجنة أهل النار بأنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم

---

(١) وانظر الآية أيضاً في: الأحزاب ٦٥ والجن ٢٣.

(٢) انظر هذا المعنى في: التوبة ٦٣ والنساء ١٤ و٩٣ وفصلت ٢٨ والأنبياء ٩٩.

مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

* * *

الجنة

أهل الجنة:

أعدّ الله الجنة للذين آمنوا بالله وبرسوله وبرسالته الإسلام. وقد وصفهم القرآن الكريم بأوصاف هي:

١ ـ المتقون:

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ [آل عمران: ١٥].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم: ٣٤](1).

٢ ـ الأبرار:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الدهر: ٥].

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

٣ ـ الصادقون:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ [المائدة: ١١٩].

٤ ـ الطائعون:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [النساء: ١٣].

---

(١) انظر أيضاً: آل عمران ١٣٣ و١٩٨ والذاريات ١٥ والرعد ٣٥ والشعراء ٩٠ والزمر ٢٠ و٧٣ والدخان ٥١ ـ ٥٢ ومحمد ١٥ والطور ١٧ والحجر ٤٥ والمرسلات ٤١ والنبأ ٣١.

٥ ـ المؤمنون بالله والمستقيمون:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ . . .﴾ [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤].

٦ ـ المقربون:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩].

٧ ـ الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ . . .﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢][1].

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الصالحات، التي لا تستقيم الحياة إلا بالالتزام بها، والتي يستحق المتمسكون بها الجنة، الذين وصفهم بأنهم:

أ ـ المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وما جاء به الرسول ﷺ جملةً وتفصيلاً، فهم: المؤمنون بالله، لا يشركون به شيئاً، والذاكرون الله، والذين إذا مروا بآيات ربهم أنصتوا إليها وعملوا بها، والتائبون إلى الله، والخائفون ربهم وسوء الحساب، والذين آمنوا بالرسل وناصروهم.

ب ـ المؤدون العبادات، فهم:

المقيمون الصلاة، والقائمون بالليل، والسجادون، المؤتون الزكاة، والمنفقون بالسراء بلا إسراف ولا إقتار.

جـ ـ الذين انتهوا عن المحرمات، ودافعوا عن الإسلام، فهم:

---

(١) انظر أيضاً: البقرة ٨٢ والنساء ٥٧ و١٢٢ والأعراف ٤٢ ويونس ٩ وهود ٢٣ وإبراهيم ٢٣ والكهف ٣٠ ـ ٣١ و١٠٧ ومريم ٩٦ وطه ٧٥ ـ ٧٦ والحج ٢٣ والعنكبوت ٥٨ والسجدة ١٩ وغافر ٤٠ ومحمد ١٢ والطلاق ١١ والبروج ١١ والبيّنة ٧ ـ ٨ والفتح ٥.

المهاجرون والأنصار الأولون، ومَن تبعهم بإحسان، والمهاجرون الذين هجروا ما نهى الله عنه، والمجاهدون الذين أوذوا في سبيل الله، وقاتلوا، وقُتلوا، والصابرون في سبيل الله.

د ـ الذين التزموا بالخلق القويم بحسن معاملاتهم للآخرين، فهم:

الذين لا يقتلون النفس إلا بالحق، ولا يزنون، ولا يقولون الزور، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، والمحسنون، والمستغفرون لذنوبهم، والذين لا يصرون على فعلها، والموفون بعهد الله، والموصلون ما أمر الله أن يوصل، والمتواضعون للناس، والمعرضون عن الجاهلين برفق وسلام، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، والعاملون الحسنات ليدفعوا السيئات، والداعون أن يهبهم الله قرة أعين، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، وأن يصرف عنهم عذاب جهنم.

وهذه الأمور الأربعة هي جماع ما تحتويه رسالة الإسلام، وقد نصّ القرآن الكريم على كثير من جزئياتها، وعلى أن جزاءها الجنة في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ﴾ [آل عمران: ١٣٤ ـ ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ [التوبة: ٨٨ ـ ٨٩].

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٠ ـ ٢٣].

وقال عَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٨].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧١ ـ ٧٤].

وصف الجنة وحال أهلها في القرآن الكريم:

١ ـ تقرب الجنة وتبرز لأهلها، قبل أن يدخلوها، ويعلم كل واحد منهم منزله فيها، فيهتدي إليه:

قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٦].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء: ٩٠].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١].

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣].

٢ ـ الجنة عالية مرتفعة في المكان، أو الدرجات، أو الأبنية والأشجار:

قال تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة: ٢٢، والغاشية: ١٠].

٣ ـ عرضها عرض السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٤ ـ لها أبواب:

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

٥ ـ لها خزنة يهنئون ويحيون الداخلين:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

٦ ـ أنهارها من ألوان مختلفة:

قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ [الواقعة: ٣١].

٧ ـ وهذه الأنهار تجري من تحتها:

قال تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥ و٢٦٦][(١)].

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣، ويونس: ٩، والكهف: ٣١].

٨ ـ فيها العيون:

قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٥٠].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٦].

٩ ـ فيها غرف فوقها غرف كبناء عال ذي طوابق:

قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

١٠ ـ أشجارها ذات فروع خضر، تميل إلى السواد لخضرتها، طيبة الرائحة:

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ . . . ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾[(٢)] [الرحمن: ٤٦ و٤٨].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ . . . مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾[(٣)] [الرحمٰن: ٦٢ و٦٤].

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾[(٤)] [الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩].

---

(١) وهذه الآية في: آل عمران ١٥ و١٣٦ و١٩٥ و١٩٨ والنساء ١٣ و٥٧ و١٢٢ والمائدة ١٢ و٨٥ و١١٩ والتوبة ٧٢ و٨٩ والرعد ٣٥ وإبراهيم ٢٣ والنحل ٣١ وطه ٧٦ والحج ١٤ و٢٣ والفرقان ١٠ والعنكبوت ٥٨ والزمر ٢٠ ومحمد ١٢ والفتح ٥ و١٧ والحديد ١٢ والمجادلة ٢٢ والصف ١٢ والتغابن ٩ والطلاق ١١ والتحريم ٨ والبروج ١١ والبيّنة ٨.

(٢) أفنان: جمع فنن أغصان أو ثمار.

(٣) مدهامتان: خضراوتان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.

(٤) مخضود: لا شوك فيه.

طلح: شجر كثير النور طيب الرائحة.

منضود: نضد حمله من أسفله إلى أعلاه.

١١ ـ ظلها ظل ظليل منبسط:

قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾[1] [الواقعة: ٣٠].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١].

١٢ ـ جوها معتدل بين الحرارة والبرودة الشديدتين:

قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الدهر: ١٣].

١٣ ـ خيراتها كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الدهر: ٢٠].

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

١٤ ـ عيشة أهل الجنة راضية هانئة:

قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١].

١٥ ـ نعيمهم مقيم دائم:

قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

١٦ ـ عطاؤهم غير مقطوع:

قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2] [هود: ١٠٨].

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات: ٤١].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [صٓ: ٥٤].

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

---

(١) ممدود: منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت.

(٢) مجذوذ: مقطوع.

١٧ ـ تقدم لهم أصناف اللحوم:

قال تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢١].

١٨ ـ وشرابهم بكؤوس فيها جمال المنظر ولذة الشارب:

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1] [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [صۤ: ٥١].

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣].

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٨ ـ ١٩].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الدهر: ٥ ـ ٦].

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الدهر: ٢١].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٣٤].

١٩ ـ فيها الفواكه بجميع ألوانها المختلفة مما تشتهيها النفوس:

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٧٣].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٥٢].

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٨].

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤٢].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبأ: ٣٢][2].

---

(١) غول: غائلة كما في خمر الدنيا.
ينزفون: يسكرون أي ينزف عقله.

(٢) وانظر أيضاً: يۤس ٥٧ والصافات ٤١ ـ ٤٢ وصۤ ٥١ والطور ٢٢ والواقعة ٣٢.

٢٠ ـ ثمارها كثمار الدنيا ولكن مع فارق كبير:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢١ ـ قطوفها في متناول الأيدي:

قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

٢٢ ـ ويقدَّم إليهم طعامهم وشرابهم بصحاف الذهب والفضة والأكواب البديعة:

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٥ ـ ١٨].

٢٣ ـ ويطوف عليهم بالشراب والطعام غلمان في غاية الجمال المصون:

قال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] [الطور: ٢٤].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٧].

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

٢٤ ـ وحليهم الأساور الذهبية واللؤلؤ، ولباسهم الحرير الرقيق والسميك:

قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[2] [الكهف: ٣١].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣].

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الدخان: ٥٣].

﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

٢٥ ـ لهم الراحة على السرر والفرش الحريرية العجيبة:

قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٦].

---

(١) المكنون: المصون عما يضر به في الصفاء والنقاء.

(٢) السندس: رقيق الحرير، والإستبرق: [illegible]

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٥٧].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٠].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[1] حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٧٦].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ[2] مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣ ـ ١٦][3].

٢٦ ـ وأزواجهم مطهرة حسان، متحببات إلى أزواجهن، قصرنَ طرفهن عليهم:

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٨ ـ ٤٩].

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: ٧٠].

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ... كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمٰن: ٥٦ و٥٨].

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾[4] ... حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ... لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٠ و٧٢ و٧٤].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣].

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾[5] لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٨][6].

٢٧ ـ التنعُّم بالنظر إلى وجهه الكريم:

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) الرفوف: الوسائد أو البسط. والعبقري: كل شيء عجيب.

(٢) موضوعة بين أيديهم.

والزرابي: البسط. والنمارق: الوسائد.

(٣) وانظر أيضاً: الكهف ٣١ وصّ ٥١ والطور ٢٠ والرحمٰن ٥٤ والواقعة ١٥ ـ ١٦ و٣٤ و٨٩ والدهر ١٢ ـ ١٣.

(٤) خيرات: أي خيِّرات.

وحسان: حسان الخَلْق والخُلُق.

(٥) عرباً: أي متحببات إلى أزواجهن.

(٦) وانظر أيضاً: آل عمران ١٥ والنساء ٥٧ وصّ ٥٢ والدخان ٥٤ والطور ٢٠ والنبأ ٣٣.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣][1].

٢٨ ـ فيها ما تشتهي الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ [الفرقان: ١٦].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [قَ: ٣٥].

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

٢٩ ـ أهلها خالدون:

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢][2].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٥ و١٣٦ و١٩٨][3].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧ و١٢٢][4].

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥٦].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [قَ: ٣٤].

٣٠ ـ لا لغو فيها ولا تأثيم:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦].

---

(١) انظر ما كتبناه عن رؤية الله تعالى ومذاهب العلماء فيه في باب الإلهيات.

(٢) وانظر الآية في: الأعراف ٤٢ ويونس ٢٦ والمؤمنون ١١ وآل عمران ١٠٧ وهود ٢٣.

(٣) وانظر أيضاً الآية في: النساء ١٣ والمائدة ٨٥ والتوبة ٧٢ و٨٩ وهود ١٠٨ وإبراهيم ٢٣ والكهف ١٠٨ وطه ٧٦ والفرقان ٧٦ والعنكبوت ٥٨ ولقمان ٩ والأحقاف ١٤ والفتح ٥ والحديد ١٢ والمجادلة ٢٢.

(٤) وانظر أيضاً الآية في: المائدة ١١٩ والتوبة ٢٢ و١٠٠ والتغابن ٩ والطلاق ١١ والبينة ٨

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية: ١١].

٣١ ـ لا يشعرون بتعب أو كلال:

قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1] [فاطر: ٣٥].

٣٢ ـ ويحمدون الله على ما آتاهم من النعم التي وعدوا بها:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

٣٣ ـ لا غل بين أهلها:

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

٣٤ ـ يحيي بعضهم الآخر بالسلام:

قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

٣٥ ـ تلقي الملائكة إليهم السلام:

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

---

(١) النصب: التعب.

ولغوب: كلال.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

٣٦ ـ لا خوف على أهلها ولا هم يحزنون:

قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ٤٦].

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٢].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [قٓ: ٣٤].

٣٧ ـ لهم النضرة والسرور:

قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الدهر: ١١].

٣٨ ـ لهم الإكرام:

قال تعالى: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٥].

٣٩ ـ الرحمة والرضوان لأهلها:

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥].

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ... وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٤٠ ـ نوالهم الجنة هو الفوز والفلاح الأعظم:

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩](1).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢، والدخان: ٥٧، والحديد: ١٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الصافات: ٦٠].

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤١ ـ البشرى لهم:

قال تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ [الحديد: ١٢].

٤٢ ـ يهنئون بما هم فيه من نعيم:

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩، والمرسلات: ٤٣].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

٤٣ ـ وأهلها مشغولون بما هم فيه، فلا مجال لطرح سؤال، وماذا بعد هذا النعيم المقيم؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: ٥٥].

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨].

٤٤ ـ وأهلها لا يرضون عنها بديلاً، لما فيها من نعيم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهكذا تتضح لنا صورة الجنة، وأهلها يحبرون فيها، وينعمون بألوان السعادة والهناء، قال الأستاذ عبدالرزاق نوفل في كتابه: يوم القيامة:

أهل الجنة يختلفون ـ كما يختلف أهل الدنيا ـ في طريقة التمتع ولونه وشكله ومصدره، ففي الحياة الدنيا نجد مَن يبحثون عن المتعة في الطعام الجيد، والشراب العليل، أو المنظر الجميل، أو اللحن الرتيب، أو الجلسة الهادئة مع صديق، أو

(1) وانظر الآية أيضاً في: التوبة ٨٩ و١٠٠ والصف ١٢ والتغابن ٩.

الانفراد للتأمُّل والتفكُّر، وهناك صفوة طيبة، منتهى لذتها وتمام سعادتها الخلوة بربها في صلاة ودعاء. . . وهكذا.

فيا ترى عندما يشرق على الوجود في الآخرة نور الله، وترتفع الحجب لتتعلق القلوب والأنفس قبل العيون بمصدر هذا النور. . . ويحاول الإنسان بجزأيه الطاهرين، أن يتعلق بأصل النور، وأن يفنى في وجود لا يرى فيه سوى الله. . . ترى مَن يبحث عند ذلك عن أكل أو شرب أو متعة. . . فهل هناك متعة وإمتاع، وسعادة ونعيم: قدر القرب من الله ورؤيته. . . إن أمل المؤمنين ـ وقد وضح لهم نورهم ـ أن يتم لهم هذا النور، ليصبحوا جزءاً من النور، وهذا هو ما يدعون به الله، ويسألونه بنص الآية الشريفة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨][1].

أما الكلام عن مكان الجنة والنار، وهل هما مخلوقتان الآن؟ فلا حاجة لنا به هنا، إذ أنه ليس بالأمر الخطير الذي يمس صلب العقيدة[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) يوم القيامة ـ عبدالرزاق نوفل ص١٥٥ ـ ١٥٧ (بتصرف).

(٢) انظر الكلام عن هذا في المقاصد وشرحه ٢١٨/٢ ـ ٢٢٠، والمواقف وشرحه ٥٨٤.



فهرست المصادر

١ - **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين السُّيوطي ت سنة ٩١١. ط٣ سنة ١٩٥١ مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٢ - **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة**: شهاب الدين القَرافي ت سنة ٦٨٤هـ. طبع بهامش (كتاب الفارق بين المخلوق والخالق).

٣ - **الإحكام في أصول الأحكام**: علي بن محمد الآمِدي ت سنة ٦٣١هـ. مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.

٤ - **الإحكام في أصول الأحكام**: ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ. مطبعة العاصمة بالقاهرة.

٥ - **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد الغزالي ت سنة ٥٠٥هـ. القاهرة ١٩٣٩م.

٦ - **أحكام القرآن**: للإمام الشافعي ت سنة ٢٠٤هـ. تحقيق الشيخ عبدالغني عبدالخالق. الطبعة المصورة - دار الكتب العلمية - بيروت.

٧ - **الأديان دراسة تاريخية مقارنة**: القسم الأول الديانات القديمة. الدكتور رشدي عليان وسعدون الساموك. دار الحرية، بغداد سنة ١٩٧٦.

٨ - **أديان الهند الكبرى**: أحمد شلبي. الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧، القاهرة. والطبعة الثالثة سنة ١٩٧٢، القاهرة.

٩ - **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**: القَسْطَلاّني ت سنة ٩٢٣هـ. الطبعة السابعة سنة ١٣٢٣هـ ببولاق مصر.

١٠ - **أساس التقديس في علم الكلام**: فخر الدين الرّازي ت سنة ٦٠٦هـ. القاهرة ١٩٣٥.

١١ - **أسباب نزول القرآن**: الواحدي. تحقيق أحمد صقر. الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

١٢ - **الإسلام عقيدة وشريعة**: الشيخ محمود شلتوت، ت١٩٦٣. دار الشروق - ط٦ سنة ١٩٧٢.

١٣ - **الإسلام وحاجة الإنسانية إليه**: د. محمد يوسف موسى. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة ثانية سنة ١٩٦١.

١٤ - **الإسلام يتحدّى**: وحيد الدين خان. الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣.

١٥ - **الإسلام والخلافة**: الدكتور رشدي عليان. مطبعة دار السلام - بغداد سنة ١٩٧٧.

١٦ - **الإشارات والتنبيهات**: ابن سينا. المطبعة الحيدرية - طهران سنة ١٣٧٧هـ.

١٧ - **اشتقاق أسماء الله**: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق د. عبد الحسين المبارك. مطبعة النعمان سنة ١٩٧٤م.

١٨ - **أصل الشيعة وأصولها**: محمد حسين آل كاشف الغطاء. الطبعة الرابعة عشرة. المطبعة الحيدرية بالنجف سنة ١٣٨٥هـ.

١٩ - **الأصنام**: ابن الكلبي. تحقيق أحمد زكي. الطبعة الأولى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٢٠ - **أصول الدعوة**: الدكتور عبدالكريم زيدان. ط١ سنة ١٩٦٨ بغداد.

٢١ - **أصول الدين**: عبدالقاهر البغدادي ت سنة ٤٢٩هـ. الطبعة الأولى، مطبعة الدولة سنة ١٩٢٨.

٢٢ - **أصول الدين الإسلامي**: محمد علي ناصر. منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٢٣ - **الأصول العامة للفقه المقارن**: محمد تقي الحكيم. الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م. دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

٢٤ - **أصول الفقه**: د. عبدالكريم زيدان. انظر الوجيز في أصول الفقه.

٢٥ - **أصول الفقه**: محمد رضا المظفر. الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦هـ مطبعة النعمان بالنجف.

٢٦ - **إظهار الحق**: رحمة الله بن خليل الرحمٰن الهندي. تحقيق عمر الدسوقي. مطبعة الرسالة، القاهرة سنة ١٩٦٤.

٢٧ - **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**: مصطفى صادق الرافعي. ط٦ سنة ١٩٥٦ مصر.

٢٨ - **إعلام النبوة**: لأبي الحسن علي بن محمد الماوَردي ت٤٥٠هـ. مصر سنة ١٩٧١.

٢٩ - **الاقتصاد في الاعتقاد**: لأبي حامد الغَزالي، تقديم د. عادل العوا. دار الأمانة، بيروت سنة ١٩٦٩. وطبعة كلية الإلهيات - أنقرة سنة ١٩٦٢.

٣٠ - **الأموال**: أبو عُبَيد القاسم بن سَلاّم ت٢٢٤هـ. تحقيق محمد خليل هراس. القاهرة ١٩٦٩.

٣١ - **إنجيل برنابا**: ترجمة د. خليل سعادة. القاهرة ١٩٠٨.

٣٢ - **الإنسان ذلك المجهول**: تأليف ألكسيس كاريل، تعريب شفيق أسعد فريد. بيروت.

٣٣ - **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البَيضاوي)**: القاضي البيضاوي ت سنة ٧٩١هـ. الطبعة الثانية - المطبعة البهية المصرية ١٩٢٥.

٣٤ - **أوائل المقالات في المذاهب والمختارات**: الشيخ المفيد ت سنة ٤١٣هـ. ط٣ سنة ١٩٧٣ - المطبعة الحيدرية بالنجف.

٣٥ - **البداية والنهاية**: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كَثير ت سنة ٧٧٤هـ. مطبعة السعادة بمصر.

٣٦ - **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين الزَركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر سنة ١٩٥٧.

٣٧ - **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**: لابن الزَّمْلَكاني ت سنة ٦٥١هـ. تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي. مطبعة العاني سنة ١٩٧٤.

٣٨ - **البيان في غريب إعراب القرآن**: أبو البركات بن الأنباري، تحقيق د. طه عبدالحميد طه. مصر سنة ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

٣٩ - **تاريخ الأدب العربي**: كارل بروكلمان، ترجمة د. عبدالحليم النجار. ط٣ دار المعارف بمصر.
٤٠ - **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي ت سنة ٤٦٣هـ. مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣١م.
٤١ - **تأريخ الفلسفة في الإسلام**: دي بور، ترجمة أبي ريدة، الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٧م.
٤٢ - **تاريخ المذاهب الإسلامية**: محمد أبو زُهْرة ت سنة ١٩٧٤م. دار الفكر العربي ـ القاهرة.
٤٣ - **التبصير في الدين**: أبو المظفر الإسفراييني ت سنة ٤٧١هـ. تحقيق محمد زاهد الكَوْثَري ت سنة ١٣٧١هـ. القاهرة سنة ١٩٥٥م.
٤٤ - **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**: لابن الزَّمْلَكاني ت سنة ٦٥١هـ. تحقيق د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب. مطبعة العاني ١٩٦٤.
٤٥ - **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**: لأبي عبدالله الأنصاري القرطبي ت سنة ٦٧١هـ. مطابع مدكور وأولاده ـ القاهرة.
٤٦ - **التصوير الفني في القرآن**: سيد قطب ت سنة ١٩٦٧م. دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦.
٤٧ - **تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية**: الدكتور عمر ملا حُويش. مطبعة الأمة، بغداد سنة ١٩٧٢.
٤٨ - **التعريفات**: السيد الشريف الجُرْجاني ت سنة ٨١٦هـ. مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٥٧هـ.
٤٩ - **التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن**: حنفي أحمد. دار المعارف بمصر.
٥٠ - **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير ت سنة ٧٧٤هـ. دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٩٦٩م. ومطبعة دار إحياء الكتب العربية.
٥١ - **التفسير الكبير**: الفخر الرازي ت سنة ٦٠٦هـ. ط٢ مصورة دار الكتب العلمية ـ طهران.
٥٢ - **تلبيس إبليس**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن الجَوزي ت سنة ٥٩٧هـ، ط٢ المطبعة المنيرية.
٥٣ - **التمهيد**: أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني ت سنة ٤٠٣هـ، عُني بطبعه ونشره الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت سنة ١٩٥٧م.
٥٤ - **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية**: مصطفى عبدالرازق. القاهرة سنة ١٩٥٩م.
٥٥ - **تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك**: جلال الدين السيوطي ت سنة ٩١١هـ. المكتبة التجارية بمصر.
٥٦ - **توضيح المراد في شرح تجريد الاعتقاد**: الطهراني. الطبعة الأولى سنة ١٣٨١هـ بمطبعة المصطفوي، إيران.
٥٧ - **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**: الرُّمَاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجُرجاني، تحقيق محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام. دار المعارف بمصر ط٢ سنة ١٩٦٨.
٥٨ - **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القُرطُبي): أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي. ط. الشعب ـ مصر.
٥٩ - **الجواب الصحيح لمَن بدّل دين المسيح**: ابن تيمية تقي الدين ت سنة ٧٢٨هـ، القاهرة.
٦٠ - **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**: لابن قيّم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ. الطبعة الرابعة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.

٦١ - **حاشية البَنَّاني**: ت سنة ١١٩٨هـ، على شرح الجلال المَحلي ت سنة ٨٦٤هـ، على متن جمع الجوامع لابن السُّبْكي ت٧٧١هـ. ط٢ سنة ١٩٣٧ بمصر.

٦٢ - **حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين**: يوسف بن إسماعيل النبهاني. الطبعة المصورة - بيروت.

٦٣ - **حقيقة البابية والبهائية**: محسن عبدالحميد. منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

٦٤ - **خاطرات جمال الدين الأفغاني**: محمد باشا المخزومي. دار الفكر بدمشق ط٢ سنة ١٩٦٥.

٦٥ - **دائرة معارف القرن ١٤هـ ٢٠م**: محمد فريد وجدي، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧١ بيروت.

٦٦ - **دراسات في الفِرَق والعقائد**: د. عِرْفان عبدالحميد. مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.

٦٧ - **الدين**: بحوث ممهدة لدراسة تأريخ الأديان، الشيخ محمد عبدالله دراز. مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٦٩.

٦٨ - **الدين الإسلامي**: محمد علي. اقتبسه من الأصل الإنكليزي إلى العربية محمد سعيد. مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة سنة ١٣٧٠هـ.

٦٩ - **الدين المقارن**: محمود أبو الفيض المَنُوفي. دار نهضة مصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠م.

٧٠ - **راحة العقل**: الكرماني.

٧١ - **الرازي مُفَسِّراً**: د. محسن عبدالحميد، دار الحرية بغداد سنة ١٩٧٤م.

٧٢ - **الرسالة الشافية للجُرْجاني**: انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٧٣ - **الرسالة القُشَيْرية في علم التصوف**: لأبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري ت سنة ٤٦٥هـ. مكتبة محمد علي صبيح سنة ١٩٥٧.

٧٤ - **رسالة التوحيد**: محمد عبده. دار الهلال عدد ١٤٣ لسنة ١٣٨٢هـ، والطبعة ١٧ دار المنار بمصر سنة ١٣٧٦هـ.

٧٥ - **رسالة الفتوى الحمَوية الكبرى**: ابن تَيْمِيّة ت سنة ٧٢٨هـ. الطبعة الرابعة، المطبعة السلفية بمكة المكرمة.

٧٦ - **رسالة في التوحيد والفِرَق المعاصرة**: كمال الدين الطائي ١٣٩٢ - ١٩٧٢م. مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد.

٧٧ - **الرسول**: سعيد حَوّى. مؤسسة الرسالة ببيروت، طبعة ثالثة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٧٨ - **رياض الصالحين**: الإمام النَّوَوي محيي الدين يحيى بن شرَف ت سنة ٦٧٦هـ. مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الرابعة.

٧٩ - **الروح**: لابن قَيِّم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ. الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.

٨٠ - **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين محمود الألوسي ت سنة ١٢٧٠، الطبعة المصورة عن الطبعة المنيرية.

٨١ - **الروض الأُنُف في تفسير سيرة ابن هِشام**: للسُهَيْلي ت سنة ٥٨١هـ. تحقيق طه عبدالرؤوف سعد. القاهرة ١٩٧٣.

٨٢ - **زاد المعاد في هَدي خير العباد**: ابن قيم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ. ط٢ سنة ١٩٥٠ مصر.

٨٣ - **سنن التِّرمذي**: ت سنة ٢٧٩هـ. تحقيق عزة عبيد الدعاس، حمص ١٩٦٥.

٨٤ - **سنن ابن ماجة**: ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي بمصر سنة ١٩٥٢م.

٨٥ - **السيرة النبوية**: ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ. تحقيق مصطفى عبدالواحد. مطبعة عيسى البابي بالقاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٦م.

٨٦ - **السيرة النبوية**: ابن هشام ت سنة ٢١٨هـ. الطبعة الثالثة سنة ١٣٩١هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت. **وتهذيب سيرة ابن هشام**: عبدالسلام هارون.

٨٧ - **شرح الأصول الخمسة**: عبدالجبار بن أحمد ت سنة ٤١٥هـ، تحقيق عبدالكريم عثمان. الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة.

٨٨ - **شرح البَيجُوري - على جوهرة التوحيد -**: إبراهيم البَيْجوري ت سنة ١٢٧٧هـ. القاهرة ١٩٦٤م.

٨٩ - **شرح البيجوري على السَّنُوسية - وبهامشه تقرير العلامة الشمس الأنبابي**: القاهرة ١٣٦٩هـ.

٩٠ - **شرح تجريد الاعتقاد**: علاء الدين علي بن محمد القوشجي ت سنة ٨٧٩هـ. طبع في إيران طبعة حجرية سنة ١٢٧٤هـ.

٩١ - **شرح الخَريدة البهية**: سيدي أحمد الدَّرْدِير ت سنة ١٢٠١هـ. وحاشية العلامة الصاوي عليه. مطبعة الاستقامة بمصر.

٩٢ - **الشرح الجديد لجوهرة التوحيد**: للشيخ محمد أحمد العَدَوي. **وجوهرة التوحيد**: منظومة لإبراهيم بن إبراهيم اللَّقاني المتوفى سنة ١٠٤١هـ. الطبعة الأولى ١٩٤٧، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٩٣ - **شرح جوهرة التوحيد، المسمى (إتحاف المريد بجوهرة التوحيد)**: لعبدالسلام بن إبراهيم اللَّقاني المالكي المتوفى سنة ١٠٧٨هـ، وقد شرح منظومة والده. الطبعة الثانية ١٩٥٥، مطبعة السعادة بمصر.

٩٤ - **شرح رمضان أفندي، على شرح العقائد للتفتازاني**: دراسات سنة ١٣١٤هـ.

٩٥ - **شرح العقائد النسفية**: سعد الدين مسعود بن عمر التَّفْتَازاني ت سنة ٧٩١هـ. الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ، تركيا، أعادت مكتبة المثنى طبعها بالأوفست. وطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر، وبهامشه حاشية عصام الدين الإسْفَرائيني.

٩٦ - **شرح العقيدة الطَّحاوية**: لابن أبي العز، ط٣ نشر المكتب الإسلامي بدمشق.

٩٧ - **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: للقاضي أبي الفضل عِيَاض اليَحْصُبي ت سنة ٥٤٤هـ. المكتبة التجارية بمصر.

٩٨ - **الشورى بين النظرية والتطبيق**: قحطان عبدالرحمٰن الدوري. مطبعة الأمة، بغداد ١٩٧٤.

٩٩ - **الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة**: هاشم معروف الحسني، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤.

١٠٠ - **الصابئون - حرانيين ومندائيين**: الدكتور رشدي عليان. مطبعة دار السلام، بغداد سنة ١٩٧٧.

١٠١ - **صحيح البخاري**: ت سنة ٢٥٦هـ. طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي ببيروت عن طبعة القاهرة.

١٠٢ - **صحيح مسلم بن الحجاج القُشَيري**: ت سنة ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.
وشرح الإمام **النووي يحيى بن شرف** ت سنة ٦٧٦ على صحيح الإمام مسلم، مطبوع بهامش إرشاد الساري للقَسْطلاني.

١٠٣ - **الطب محراب الإيمان**: د. خالص كنجو، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م دمشق.

١٠٤ - **الطريق إلى النجوم**: **فان دريت وللي**: نقله إلى العربية د. عمر فروخ. دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٤.

١٠٥ - **الظاهرة القرآنية**: مالك بن نبي، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار الفكر، بيروت.

١٠٦ - **عارضة الأحوذي بشرح صحيح التِّرمِذي**: لابن العَرَبي ت سنة ٥٤٣هـ. الطبعة المصورة.

١٠٧ - **عقائد الإمامية الإثني عشرية**: إبراهيم الزنجاني. ط٢ سنة ١٩٧٣.

١٠٨ - **عقائد الإمامية**: محمد رضا المظفر، مطابع النعمان - النجف.

١٠٩ - **العقائد العضدية**: عضد الدين عبدالرحمٰن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦هـ، ومعه **شرح جلال الدين محمد بن أسعد الدَّوَّاني الصِّدِّيقي** المتوفى ٩١٨هـ، ومعه **حاشية إسماعيل الكلنبوي** المتوفى ١٢٠٥هـ، وبهامشه **حاشية المَرْجاني وحاشية الخلخالي** المتوفى ١٠١٤هـ. دراسات مطبعة عثمانية ١٣١٦هـ.

١١٠ - **عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة**: رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة تقدم بها نائل حنون عليوي - كلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٧٥.

١١١ - **العقل عند الشيعة الإمامية**: د. رشدي عليان. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م مطبعة دار السلام، بغداد.

١١٢ - **العقل وسطوته**: ج. راين، ترجمة محمد الحلوجي، مطبعة السعادة بمصر.

١١٣ - **العقل والوجود**: يوسف كرم، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.

١١٤ - **العقيدة والشريعة**: جولد زيهر، نقله إلى العربية الدكتور محمد يوسف موسى، وآخرون، طبعة أولى سنة ١٩٤٦، مطابع دار الكاتب المصري.

١١٥ - **علم أصول الفقه**: عبدالوهاب خلاَّف، ط٧ سنة ١٩٥٦ مصر.

١١٦ - **علم الكلام وبعض مشكلاته**: أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م، مكتبة القاهرة الحديثة.

١١٧ - **العلم ليس كافراً**: د. محسن عبدالحميد، مقال في مجلة التربية الإسلامية، بغداد، العدد الثالث ١٩٧٣. ونشر برسالة مستقلة.

١١٨ - **العلم يدعو للإيمان**: كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلَكي، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢، والخامسة سنة ١٩٦٥.

١١٩ - **غاية المرام في عقائد أهل الإسلام**: الحاج حمدي الأعظمي، الطبعة الثانية بغداد ١٣٦٧هـ.

١٢٠ - **غاية المرام في علم الكلام**: لسيف الدين الآمدي ت سنة ٦٣١هـ، تحقيق حسن محمود عبداللطيف، القاهرة ١٩٧١.

١٢١ - **الغلوّ والفِرق الغالية**: عبدالله سلوم السامرائي، مطبعة الحكومة، بغداد سنة ١٣٩٢هـ.

١٢٢ - **الفارق بين المخلوق والخالق**: عبدالرحمٰن بك باجه جي زاده، **الطبعة الأولى**، مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢هـ.

١٢٣ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لابن حُجر العَسْقلاني ت سنة ٨٥٢هـ، طبع بعناية محب الدين الخطيب، دار المعرفة ببيروت، مصورة عن طبعة المكتبة السلفية بالقاهرة.

١٢٤ - **فتح الغفار بشرح المنار**: لابن نُجَيْم الحنفي ت سنة ٩٧٠هـ، مصر ١٩٣٦.

١٢٥ - **فجر الإسلام**: أحمد أمين. الطبعة العاشرة سنة ١٩٦٥م لجنة التأليف والنشر بالقاهرة.

١٢٦ - **الفَرْق بين الفِرَق**: عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ت سنة ٤٢٩هـ. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني القاهرة.

١٢٧ - **فِرَق الشيعة**: النُّوبَخْتي، إستانبول سنة ١٩٣١، وطبعة المطبعة الحيدرية بالنجف سنة ١٩٦٩.

١٢٨ - **الفرق بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان**: لابن تيمية ت سنة ٧٢٨هـ. دار الغدير ببغداد سنة ١٩٦٩.

١٢٩ - **الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل**: لابن حزم الأندلسي ت سنة ٤٥٦هـ، طبع مكتبة المثنى ببغداد بالأوفست.

١٣٠ - **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**: أبو الوليد ابن رُشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ. دار المعارف بمصر.

١٣١ - **الفقه الأكبر**: للإمام أبي حنيفة، شرح علي القاري ت سنة ١٠١٤هـ. دار الكتب العربية بمصر.

١٣٢ - **في الدين المقارن**: محمد كمال جعفر، دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠م.

١٣٣ - **في ظلال القرآن**: سيد قُطب ت سنة ١٩٦٧م. دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٧.

١٣٤ - **في العقائد والأديان**: د. محمد جابر الحيني، ط١ سنة ١٩٧١.

١٣٥ - **القاموس المحيط**: مجد الدين الفَيْرُوزآبادي ت سنة ٨١٧هـ. المكتبة التجارية بالقاهرة.

١٣٦ - **القسطاس المستقيم**: الغَزّالي، تحقيق فكتور شلحت. طبعة أولى سنة ١٩٥٩م المطبعة الكاثوليكية.

١٣٧ - **قصة الإيمان**: نديم الجسر، مطابع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩.

١٣٨ - **قصة الديانات**: سليمان مظهر، الطبعة الأولى، دار الوطن العربي للطبع والنشر.

١٣٩ - **القضاء والقدر**: محمد متولي شعراوي، دار الشروق بمصر.

١٤٠ - **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير عز الدين ت سنة ٦٣٠هـ، دار صادر ببيروت.

١٤١ - **كبرى اليقينيات الكونية**: د. محمد سعيد رمضان البوطي، طبعة ثانية سنة ١٣٩٠هـ.

١٤٢ - **الكتاب**: سيبويه أبو بِشْر عَمْرو سنة ١٨٠هـ، الطبعة الأولى ببولاق مصر سنة ١٣١٦هـ.

١٤٣ - **كشاف اصطلاحات الفنون**: التهانوي، كلكتا سنة ١٨٦٢م.

١٤٤ - **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزَّمَخْشري ت سنة ٥٣٨هـ. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٤٨ وطبعة سنة ١٩٦٦.

١٤٥ - **الكواشف الجَلية عن معاني الواسطية**: عبدالعزيز المحمد السلمان. والعقيدة الواسطية لتقي الدين بن تَيْمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ. الطبعة الرابعة ـ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام. من مطبوعات رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

١٤٦ - **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**: محمد فؤاد عبدالباقي. مراجعة د. عبدالستار أبو غُدّة. المطبعة العصرية بالكويت سنة ١٩٧٧.

١٤٧ - **لباب النقول في أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي بهامش تفسير الجلالين. المطبعة الهاشمية بدِمَشْق سنة ١٣٥٨هـ.

١٤٨ - **لسان العرب**: جمال الدين بن منظور المصري ت سنة ٧١١هـ. دار صادر ببيروت.

١٤٩ - **الله**: عباس محمود العقاد، دار الهلال بمصر.

١٥٠ - **الله جلّ جلاله**: سعيد حوّى، طبعة ثالثة سنة ١٩٧٢م.

١٥١ - **الله يتجلى في عصر العلم**: نخبة من العلماء الأمريكيين. أشرف على تحريره جون كلوفرمونسا، ترجمة د. الدمرداش، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨، مؤسسة الحلبي وشركاه بمصر.

١٥٢ - **لماذا أؤمن بالقرآن الكريم وبمحمد ﷺ**: هلال علي هلال.

١٥٣ - **اللمع لأبي نصر السراج الطوسي**: تحقيق د. عبدالحليم محمود ود. عبدالباقي سرور سنة ١٩٦٠. مطبعة السعادة بمصر.

١٥٤ - **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**: محمد بن أحمد. السفاريني الأثري الحنبلي، مطابع دار الأصفهاني وشركاه بجدة ١٣٨٠هـ.

١٥٥ - **مباحث الحكم عند الأصوليين**: محمد سلاّم مدكور، طبعة ثانية سنة ١٣٨٤هـ.

١٥٦ - **مباحث في علوم القرآن**: د. صبحي الصالح ت سنة ١٩٨٦م. الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين بيروت.

١٥٧ - **مبادئ الإسلام**: أبو الأعلى المودودي، ط٢ سنة ١٩٥٧، دمشق.

١٥٨ - **مجمع البيان في تفسير القرآن**: الطَّبرْسي ت سنة ٥٤٨هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٥٩ - **محاضرات في أصول الفقه على مذاهب أهل السنة والإمامية**: بدر المتولي علي عبدالباسط، بغداد الطبعة الأولى.

١٦٠ - **محاضرات في الفلسفة الإسلامية**: يحيى هويدي، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦.

١٦١ - **محاضرات في النصرانية**: محمد أبو زهرة ت سنة ١٩٧٤م، مطبعة العلوم ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م مصر.

١٦٢ - **المختار من صحاح اللغة**: محمد محيي الدين عبدالحميد، ومحمد عبداللطيف السُّبْكي، الطبعة الرابعة بمصر.

١٦٣ - **المذاهب الإسلامية**: محمد أبو زُهرة، المطبعة النموذجية بمصر، سلسلة الألف كتاب.

١٦٤ - **مذاهب الإسلاميين**: عبدالرحمٰن بدوي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت.

١٦٥ - **مذاهب ومفاهيم في الفلسفة والاجتماع**: عبدالرزاق الماجد، منشورات دار المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٦٦ - **مروج الذهب**: المسعودي ت سنة ٣٤٦هـ، الطبعة الثانية دار الأندلس، بيروت سنة ١٩٧٣م.

١٦٧ - **المسايرة**: للكمال بن الهمّام ت سنة ٨٦١هـ، والمسامرة بشرح المسايرة لابن أبي شريف القدسي ت سنة ٩٠٦هـ، وشرحه الشيخ قاسم بن قطلوبغا المتوفي سنة ٨٧٩هـ، حاشية محمد محي الدين عبدالحميد مطبعة السعادة بمصر.

١٦٨ ـ **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم النيسابوري ت سنة ٤٠٥هـ، النسخة المصورة على طبعة الهند.

١٦٩ ـ **مسند أحمد بن حنبل**: طبعة مصورة في بيروت على طبعة الميمنية بمصر المطبوعة سنة ١٣١٣هـ.

١٧٠ ـ **مشاهد القيامة في القرآن**: سيد قطب ت سنة ١٩٦٧م. دار المعارف بمصر.

١٧١ ـ **مع الأنبياء في القرآن الكريم**: عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت.

١٧٢ ـ **مع الله في السماء**: د. أحمد زكي. دار الهلال بمصر.

١٧٣ ـ **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: السيُوطي ت سنة ٩١١هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي. القاهرة سنة ١٩٦٩.

١٧٤ ـ **المعتقد الإيماني ـ شرح منظومة الشيباني**: لأبي البقاء الأحمدي الشافعي، بغداد سنة ١٩٦٢، مطبعة شفيق.

١٧٥ ـ **المعتقد المنتقد**: الشاه فضل الرسول القادري، طبعة مصورة، مكتبة إيشق، إستانبول ١٩٧٥.

١٧٦ ـ **مفتاح السعادة**: طاش كبرى زادة ت سنة ٩٦٨هـ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.

١٧٧ ـ **المفردات في غريب القرآن**: الراغب الأصفهاني ٥٦٥هـ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠.

١٧٨ ـ **المقاصد وشرحه**: كلاهما للتَّفْتازاني ت سنة ٧٩١هـ. طبعة الأستانة سنة ١٣٠٥هـ.

١٧٩ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين**: أبو الحسن الأشعري ت سنة ٣٣٠هـ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩هـ، مكتبة النهضة المصرية.

١٨٠ ـ **المقالات والفِرَق**: أبو خَلَف الأشعري، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور، الطبعة الأولى، مطبعة الحيدري، طهران سنة ١٩٦٣.

١٨١ ـ **مقام العقل عند العرب**: قدري طوقان، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

١٨٢ ـ **مقدمة ابن خلدون**: ت سنة ٨٠٨هـ، مطبعة مصطفى محمد بمصر.

١٨٣ ـ **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**: طه باقر. الطبعة الثانية بغداد سنة ١٩٥٥.

١٨٤ ـ **المِلَل والنِّحَل**: الشَّهْرَسْتاني ت سنة ٥٤٨هـ تحقيق عبدالعزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، طبعة سنة ١٩٦٨. وطبع أيضاً بهامش الفِصَل لابن حَزْم.

١٨٥ ـ **مناهج الأدلة في عقائد الملة**: لابن رشد ت سنة ٥٩٥هـ، الطبعة الثالثة، تقديم وتحقيق الدكتور محمود قاسم ١٩٦٩، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

١٨٦ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**: محمد عبدالعظيم الزُّرْقاني، دار إحياء الكتب العربية.

١٨٧ ـ **منهاج الإسلام في الحكم**: محمد أسد، نقله إلى العربية الأستاذ منصور محمد ماضي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت.

١٨٨ ـ **الموافقات**: للشاطبي، الطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤١.

١٨٩ ـ **المواقف**: لعضد الدين الإيجي ت سنة ٧٥٦هـ، مع **شرح المواقف** للسيد الشريف علي بن محمد الجُرْجاني، طبع بالقسطنطينية سنة ١٢٨٦هـ.

١٩٠ ـ **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين**: للأستاذ مصطفى صبري، القاهرة ١٩٥٠.

١٩١ ـ **النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن**: د. محمد عبدالله دراز، طبعة ٣ سنة ١٩٧٠.

١٩٢ ـ **النجوم في مسالكها**: الدكتور جيمس جينز، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٢م.

١٩٣ ـ **نداء الروح**: فاضل صالح السامرائي، المطبعة الإسلامية، بغداد ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.

١٩٤ ـ **نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عِياض**: ت سنة ٥٤٤هـ، شهاب الدين الخفاجي المصري ت سنة ١٠٦٩هـ، دار الفكر ببيروت، مصورة عن طبعة القاهرة.

١٩٥ ـ **نشأة الآراء والمذاهب والفِرَق الكلامية**: يحيى حسن فرغل، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٢.

١٩٦ ـ **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**: د. علي سامي النشار، دار المعارف بمصر ج١ سنة ١٩٧٥ الطبعة السادسة.

١٩٧ ـ **نهاية الإقدام في علم الكلام**: عبدالكريم الشهرستاني سنة ٥٤٨هـ، صححه الفرد جيوم.

١٩٨ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: مجد الدين ابن الأثير الجَزَري ت سنة ٦٠٦هـ. تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، القاهرة ١٩٦٥م.

١٩٩ ـ **نور الإسلام**: الشيخ عبدالكريم محمد المدرّس، الدار العربية للطباعة ببغداد ١٩٧٨م.

٢٠٠ ـ **هداية الحيارى من اليهود والنصارى**: ابن قيّم الجوزية، هامش كتاب (الفارق).

٢٠١ ـ **هداية العقول**: القاسم بن محمد، طبع في اليمن سنة ١٣٥٩هـ.

٢٠٢ ـ **الوجيز في أصول الفقه**: عبدالكريم زيدان، ط٣ سنة ١٩٦٧ بغداد.

٢٠٣ ـ **الوحي المحمدي**: السيد محمد رشيد رضا ت سنة ١٩٣٥م، شركة الطباعة الفنية القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٦٠.

٢٠٤ ـ **الوسيلة في شرح الفضيلة**: عبدالكريم المدرس، ط١ سنة ١٩٧٢ مطبعة الإرشاد، بغداد.

٢٠٥ ـ **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**: عبدالوهاب الشَّعْراني ت سنة ٩٧٣هـ، مصر ١٩٥٩.

٢٠٦ ـ **يوم القيامة**: عبدالرزاق نوفل، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م.

٢٠٧ ـ **اليهودية**: د. أحمد شلبي، ط٣ سنة ١٩٧٣، مطبعة السنة المحمدية، مصر.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

□□□□□□




أبرز المؤلفات العلمية
للدكتور رشدي عليان

أولاً ـ الكتب العلمية:

١ ـ **العقل عند الشيعة**: مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٣.

٢ ـ **الإسلام والخلافة**: مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٦.

٣ ـ **الصابئون ـ حرانيين ومندائيين**: مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٦.

٤ ـ **الأديان**: دراسة تاريخية مقارنة ـ بالاشتراك مع د. سعدون الساموك، مطبعة دار الحرية، بغداد ١٩٧٦.

٥ ـ **علوم القرآن**: بالاشتراك مع د. قحطان الدوري وكاظم فتحي الراوي ـ مطابع مؤسسة دار الكتب بالموصل ١٩٨٠.

٦ ـ **علوم الحديث ونصوص من الأثر**: بالاشتراك مع د. قحطان الدوري وكاظم الراوي ـ مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠.

٧ ـ **أصول الدين الإسلامي**: هذا الكتاب.

٨ ـ **نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي**: بالاشتراك، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ١٩٨٥.

٩ ـ **النصيرية حركة هدمية**: بالاشتراك، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٦.

١٠ ـ **التطرف الديني**: بالاشتراك، مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٨٦.

١١ ـ **أسرى الحرب في الإسلام**: بالاشتراك، مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٨٦.

ثانياً ـ الكتب المنهجية:

شارك في تأليف عشرين كتاباً منهجياً لمختلف المراحل الدراسية في وزارة التربية وهي:

١٢ ـ **التربية الإسلامية**: (٤) كتب، للصفوف: الثالث المتوسط والرابع والخامس والسادس الإعدادي من المدارس الثانوية سنة ١٩٧٩م.

١٣ ـ **التربية الإسلامية**: كتابان، للصفين الأول والثاني من دور المعلمين سنة ١٩٧٩م.

١٤ ـ **التربية الإسلامية**: (٣) كتب للصفوف: الأول والثاني والثالث المتوسط من المدارس الإسلامية سنة ١٩٧٩م.

١٥ ـ **علوم القرآن**: كتابان للصفين: الرابع والخامس الإعدادي من المدارس الإسلامية سنة ١٩٧٩م.

١٦ ـ **الفقه الإسلامي**: (٣) كتب للصفوف: الرابع والخامس والسادس الإعدادي من المدارس الإسلامية سنة ١٩٧٩.

١٧ ـ **الحديث الشريف**: (٣) كتب للصفوف: الرابع والخامس والسادس الإعدادي من المدارس الإسلامية سنة ١٩٧٩م.

١٨ ـ **العقائد الإسلامية**: (٣) كتب للصفوف: الرابع والخامس والسادس الإعدادي من المدارس الإسلامية سنة ١٩٧٩م.

ثالثاً: البحوث والدراسات:

١٩ ـ **الإجماع في الشريعة الإسلامية**: مجلة المورد، مجلد ٢ عدد ١ سنة ١٩٧٣.

٢٠ ـ **ديانة العرب قبل الإسلام**: مجلة كلية الدراسات عدد ٦ سنة ١٩٧٤.

٢١ ـ **الديانة المصرية القديمة**: مجلة الرابطة الأدبية ـ النجف عدد ٤ سنة ١٩٧٥.

٢٢ ـ **الديانة البابلية**: مجلة الرابطة الأدبية ـ النجف عدد ٢ سنة ١٩٧٥.

٢٣ ـ **الديانة اليونانية**: مجلة البيان الكويتية عدد ١٢٤ سنة ١٩٧٦.

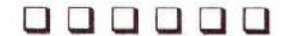
٢٤ ـ **الشورى في الإسلام**: مجلة آفاق عربية عدد ١٠ سنة ١٩٧٩.

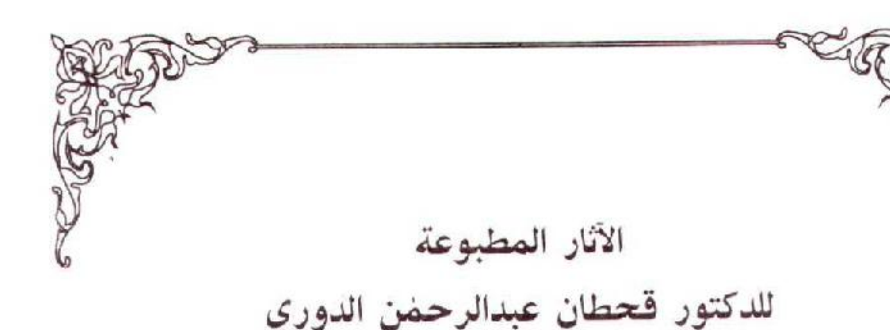
٢٥ ـ **مكافحة أمّيّة الكبار**: مجلة كلية الآداب عدد ٢٧ سنة ١٩٧٩.

٢٦ ـ **القرآن والأحرف السبعة**: مجلة المورد مجلد ٩ عدد ٤ سنة ١٩٨١.

٢٧ ـ **الفقه الإسلامي في العراق**: موسوعة حضارة العراق ج٧ سنة ١٩٨٥.

٢٨ ـ **المؤسسة الدينية وأثرها في تكوين الشخصية الإيرانية**: مجلة المنار عدد (٥) سنة ١٩٨٥.





الآثار المطبوعة
للدكتور قحطان عبدالرحمن الدوري

أولاً ـ الكتب:

١ ـ الاحتكار وآثاره في الفقه الإسلامي: ط١ مطبعة الأمة، بغداد ١٩٧٤، وط٢ دار الرشيد بالرياض ١٩٨٣م.

٢ ـ الشورى بين النظرية والتطبيق: مطبعة الأمة، بغداد ١٩٧٤.

٣ ـ صفوة الأحكام من نيل الأوطار وسبل السلام: ط١ مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٤، وط٢ مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٦.

٤ ـ الكمال بن الهمام وتحقيق رسالته: إعراب قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان...» مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠م.

٥ ـ الاقتراح في بيان الاصطلاح: لابن دقيق العيد (دراسة وتحقيق) مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٢ لوزارة الأوقاف العراقية.

٦ ـ القرآن الكريم كلماته ومعانيه: (ج٢٧ ـ ٢٨) لوزارة التربية، مطبعة الخلود ببغداد ١٩٨٣م.

٧ ـ عقد التحكيم في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي: مطبعة الخلود، بغداد ١٩٨٥ لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

ثانياً ـ الكتب بالاشتراك:

أ ـ لوزارة التعليم العالي، بالاشتراك مع آخرين:

٨ ـ المدخل إلى الدين الإسلامي: بالاشتراك مع د. منير البياتي، مطبعة دار الحرية، بغداد سنة ١٩٧٦م.

٩ ـ أصول الدين الإسلامي: بالاشتراك مع د. رشدي عليان، ط١، مطبعة دار الحرية، بغداد سنة ١٩٧٧م، وط٢ في مطبعة جامعة بغداد ـ بغداد ١٩٨١م، وط٣ في مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٦م وهو هذا الكتاب.

١٠ ـ قواعد التلاوة: بالاشتراك مع السيد فرج توفيق الوليد، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠م.

١١ ـ **علوم الحديث ونصوص من الأثر**: بالاشتراك مع د. رشدي عليان وكاظم فتحي الراوي، مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٠.

١٢ ـ **علوم القرآن**: بالاشتراك مع د. رشدي عليان وكاظم فتحي الراوي، مطابع مؤسسة دار الكتب بالموصل سنة ١٩٨٠.

١٣ ـ **التفسير**: بالاشتراك مع د. محسن عبدالحميد، دار المعرفة ١٩٨٠م.

(ب) لوزارة التربية، بالاشتراك مع آخرين:

١٤ ـ **التربية الإسلامية**: (للمدارس الإسلامية) (٦) كتب، للصفوف: الرابع والخامس والسادس الابتدائي، والأول والثاني والثالث المتوسط، سنة ١٩٧٩م.

١٥ ـ **الحديث الشريف وعلومه**: (للمدارس الإسلامية) (٦) كتب، للصفوف: الأول والثاني والثالث المتوسط، والرابع والخامس والسادس الإعدادي، سنة ١٩٧٩م.

١٦ ـ **التربية الإسلامية**: (للصف السادس من المدارس الشعبية) المجلس الأعلى للحملة الوطنية الشاملة لمحو الأمية الإلزامي. بغداد ١٩٨٠م.

١٧ ـ **علم التجويد**: (للمدارس الإسلامية) ١٩٨٢ بالاشتراك مع الشيخ جلال الحنفي والأستاذ فرج توفيق الوليد.

ثالثاً ـ الأبحاث:

١٨ ـ **عقد التحكيم في الفقه الإسلامي**: نشر في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الرابع سنة ١٩٧٢م وقد تضمنه كتاب (عقد التحكيم في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي).

١٩ ـ **التسعير في الفقه الإسلامي**: نشر في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الخامس سنة ١٩٧٣ وطبع ضمن كتاب الاحتكار وآثاره في الفقه الإسلامي.

٢٠ ـ **محمد عبده ـ المُصْلِح الأستاذ**: نشر في ٩ مقالات في مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد سنة ١٩٨٢م.

٢١ ـ **محمد رشيد رضا**: نشر في مجلة دراسات عربية إسلامية، العدد الثالث، بغداد سنة ١٩٨٣م.

٢٢ ـ **الادخار**: نشر في مجلة الرسالة الإسلامية، العدد ١٦٠ ـ ١٦١، بغداد سنة ١٩٨٣م.

٢٣ ـ **علوم الحديث الشريف**: نشر في كتاب (حضارة العراق) ج٧ و١١ لوزارة الإعلام العراقية، بغداد سنة ١٩٨٥م.

٢٤ ـ **الحركات الهدّامة في الإسلام**: وطبع في كتاب (النصيرية حركة هدمية) من منشورات كلية الشريعة ١٩٨٦م.

٢٥ ـ **التطرف الديني**: وطبع في كتاب (التطرف الديني) من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية لكلية الشريعة ١٩٨٦م.

٢٦ ـ **مادة (ثَمَن)**: في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٨٦، ومادة (مقايضة) فيها أيضاً ١٩٨٩.

٢٧ ـ **غلو الخمينية في ولاية الفقيه**: ضمن كتاب (ولاية الفقيه ـ الواقع والأبعاد) من منشورات كلية الشريعة ١٩٨٨.

٢٨ ـ **الإسلام والإرهاب**: ضمن كتاب (الدين والإرهاب) من منشورات منظمة المؤتمر الإسلامي الشعبي، مطبعة الرشاد ببغداد ١٩٨٨.

٢٩ ـ **تأثير المحدثين العراقيين في خارج البلاد العربية**: ضمن كتاب (العراق في موكب الحضارة) بغداد ١٩٨٨.

٣٠ ـ **الحركة الباطنية ـ الوسائل والغايات**: ضمن بحوث ندوة (الحركة الباطنية ودورها التخريبي في الفكر العربي الإسلامي) من منشورات كلية الشريعة ١٩٨٩م.

٣١ ـ **التحدي في آيات الإعجاز**: مجلة الرسالة الإسلامية ١٩٩٠.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

